

تاريخ
الأدب
العربي

٢

دكتور شوقي ضيف

العصر الإسلامي



دار المغاري

تاريخ
الأدب العربي

٢

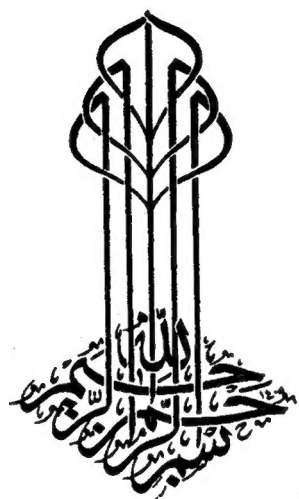
العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور شوقي ضيف
الطبعة السابعة



دار المغارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ع . م .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَذَمِّة

هذا هو الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي ، وهو خاص بالعصر الإسلامي ، وقد وزعته على كتابين ، جعلتُ أولهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بني أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولاً تُبَيِّنُ فيها جوانب الحياة في العصر بحثاً ترتب فيه المقدمات والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبَيِّنُ فيها الأعلام الناهيون في الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرَسِّمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحصر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض ، وقد مضوا يصندرون عنه في أشعارهم صدور الشدَى عن الأزهار الأرجة . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاءً إذ أنشأوا — على هدى القرآن الكريم — آيات بدیعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بني أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى في نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يحسب في

أوطان جديدة حياة خصبة، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب، بل أيضاً خراسان التي أهملها مؤرخو أدبنا، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً. وقد أخذ الشعراء يخضعون في كل مكان لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية. وفي هذه الأثناء كان الموالي يتعربون، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعرّبوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم. وليس بصحيح ما يورده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب في العصر الأموي، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حيثئذ علاقة بيرة وتعاون وإخاء.

والكتاب الثاني يتبسّط كل هذه الظروف الجديدة في حياة الأمة العربية لعصر بني أمية وكيف اندفع الشعراء في ظلها ينهضون بالشعر ويتطورون به في فنونه وأغراضه، فقد مضى شعراء المهجاء والفخر في البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائص التي بثوا فيها مناظرة عنيفة في المثالب والمفاخر القبلية، كان يجتمع لها معاصروهم في سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتعة. ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسي الذي صور فيه الزبيريون والخواارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم في الحكم وقيامهم من دونها مدافعين. ولكل فرقة من هذه الفرق في شعرها طوابع تميزه، فبينما يميز مثلاً شعر الخوارج بتصوير استبسالهم في الحروب ونهاقتهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثرة ما ذرّفوا على أمتهم المستشهدين من دموع غزار، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشرعيين. وقد اضطربت فنون الشعر اضطراباً لا في المديح والمهجاء والفخر فحسب، بل أيضاً في الغزل، فظهر فيه الغزل العنّري بجانب الغزل الصريح، وزكا شعر الزهد، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة، ومدّ الرُّجّاز طاقة أراجيزهم، وسلكوا فيها الطرديّات، فهي ليست عباسية - كما كان يُظن - إنما هي أموية. وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذها وشواردها، حتى غدّت - في بعض جوانبها - كأنها متون للاستظهار والحفظ. وفي كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء.

ولعلّ عصرّاً عربياً لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت في عصر بني أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها ينددون عن نظرياتهم مؤلّبين الناس على خصوصهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتدمت على لسان الوعاظ والقصاص احتداماً ، استطاعوا في أثناءه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات في المراكز المتحضرة التي يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات : مع العناية بدقائق المعاني وفَتْق الحيل للتعبير عن خفيّاتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهّد لوضع قواعد البلاغة العربية .

ومما تدوين المعارف في عصر بني أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبويّ وخطوب جسام . وقد مضوا يصنّفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء . وفي المثالب والأمثال والمواعظ . وفي مسائل العقيدة من قنَدَر وغير قنَدَر ، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء ، ودوّنوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة . جعلتهم يستعبدون من الوعاظ أسلوبهم الذي وصفناه ، وما زالوا يترقّون بكتابتهم . حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهديني سواء السبيل .

الكتاب الأول

في عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ، وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) . ومن ثمَّ أُطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلَّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) . ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه) .

فالإسلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التي تفرض سلطانها على كل ما سبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل في العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدة الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصمدُ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رَبُّ العالمين) رب كل شيء في الكون وخالقه (ليس كمثله شيء) (لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما في الكون (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شيء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانته وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتي وسعت كل شيء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقرن بالرحمة في القرآن الكريم المحبة التي يفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهي عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة (رُسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمتها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبي ، به نوعان من الأرواح خيبر وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحي على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهي الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم يستفثون غوايتهم فيسئلوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

ويُكثِّر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبْعَثُونَ) وهو يوم الحساب، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذرَّةَ خيراً يرهُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئةٍ بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يذوقون فيها برّداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً جزاءً وفاقاً) .

ودائماً يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى ، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه في كل ما يأتي ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هي مشيئة الله التي تسيطر على كل ما في الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التي تجعله مسئولاً أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يده (وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كلُّ نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسبُ إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هي أصول العقيدة الإسلامية ، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أدائها ، وهي ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسييح واستغفار ، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها ، وفي القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتلاً إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون) . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (والله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً) وهو في أشهر معلومات ، وقد بيّن الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهي أن يُردّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهي تُذكر في القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثاً عليها في مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلّوا به في سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : (عبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .. والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يُقتَرُوا وكان بين ذلك قواماً .. ولا يقتلون النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق ولا يزننون ومن يفعل ذلك يلقِ أثاماً يضاعفُ له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنّاً على وهن .. وآمُرُ بالمعروف ونهَى عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعّرْ خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقتصدْ في مشيك واغضضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جلّ وعزّ ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة .. يا أيها الذين آمنوا لا يسخّرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءً من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمّزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظنّ إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . ومما حرّمه تحريماً باتاً آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والميسر .. رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا في الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنيا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس وتبئد كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُعْزَى كلُّ إنسان بما قدَّمَت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه في سره وعلمته ، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والثرهات ، وقد مضى يحتكم إليه في معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل في ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر في هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخلَق عبثاً وأن له صانعاً سوى كل شىء فيه وقدَّره ، يقول جلَّ ذكره : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فكنا عذاب النار) (الشمس والقمر بحسبان) (والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل في دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن في الإيمان بوحْدانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الوجود أَن يَعْبُدَ أَشْيَاءَ خَلَقَهَا اللهُ وَسَخَّرَهَا لِفَائِدَتِهِ (قُلْ أَغِيرَ اللهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) . وَهُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ يَدْبِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُصِفُونَ) . وَبِالْمِثْلِ يَحْتَكِمُ الْقُرْآنُ إِلَى الْعَقْلِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّةِ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ فَإِنْ مِنْ يَبْعَثُ الْحَيَاةَ فِي الْكَائِنَاتِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهَا (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (وَضَرَبْنَا لَنَا مِثْلًا نُنْسِي خَلْقَهُ قَالِ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وَيُنَسِّحِي الذِّكْرَ الْحَكِيمَ بِاللَّائِمَةِ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَعِدُّونَ عَقْلَهُمْ ، فَيُشَبِّهِهُمْ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ ، وَيَقُولُ لِمَنْ لَا يَمْتَاظِرُونَ فِي شَيْءٍ عَنِ الصَّمِّ الْبُكْمُ الْعُمَى (لَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أُعْينَ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا وَلَمْ أُأْذَنْ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (أَمْ نَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) . وَكَثِيرًا مَا تُخْتَصِمُ الْآيَاتُ بِمِثْلِ (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

وَوَدَّاعْمًا يَدْعُو الْقُرْآنَ كُلَّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَغْلِ عَقْلَهُ فِيمَا خُلِقَ لَهُ مِنَ التَّدْبِيرِ ، فَيَتَأَمَّلُ وَيَنْظُرُ وَيَحْكُمُ لَا عَنْ عَقَائِدٍ موروثة بَلْ عَنْ دَلِيلٍ نَاطِقٍ وَشَهَادَةٍ صَحِيحَةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ الْمُسْتَبْصِرَةُ رُكْنًا أُسَاسِيًّا فِي الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ أَسْلَمٌ عَنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَتَبْصُرٍ كَانَ إِسْلَامُهُ مُنْقَوَصًا ، إِذِ الْإِسْلَامُ الصَّحِيحُ يَقُومُ عَلَى الْفَهْمِ وَالِاقْتِنَاعِ لَا عَلَى التَّقْلِيدِ وَالْمُحَاكَاةِ لِلْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ .

وَيُشِيرُ الْقُرْآنُ مَرَارًا إِلَى مَا وَهَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ فَضِيلَةِ الْعَقْلِ ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي هَذِهِ الْفَضِيلَةِ خَوَاصَّ تَمَكُّنُهُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلُوقَاتِ ، يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فكلُّ ما في الوجود مسخر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : (وقل رب زدنى علماً) (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه : ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاونوا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحث على العلم والتعلم من مثل : « طلب العلم فريضة » على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد حمل الإسلام هؤلاء العلماء أمانة الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما يُطوَّى فيه من استنباط للأحكام يقول جتل ذكره : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ويقول للرسول الكريم : (وشاورهم فى الأمر) ، وفعلًا كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويصّدر عن رأيهم^(١) . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام حين لا يوجد نصّ فى كتاب أو سنة . روى الرواة عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله

(١) انظر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وما بعدها .

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال : فضرب
 بيده في صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول
 الله^(١) . وقد نسما الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم
 يكن الخلفاء يفتنون بأرائهم إلا بعد استشارة الصحابة^(٢) . ومُصِّرت الأمصار
 وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء في كل مصر إسلامي تحمل
 للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه في
 القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفي كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفع من شأن العقل
 الإنسانى إذ جعله الحَكَمَ في فروع الشريعة وحسَّه على استكمال سيطرته على
 الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتح الأبواب واسعة أمامه
 كى يجتهد في مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين
 يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى .
 وسرعان ما شادوا صرح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم
 الذهنية في جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصَّله الإسلام من
 حق الاجتهاد العقلى أثر واسع في أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقاً
 أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصولٌ أسَّست على العقل الصحيح وفسحت
 له في التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون في الجاهلية قبائل متنازعة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما
 يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها
 تعصباً شديداً ، فإذا جنى أحدهم جناية شركته في مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن
 عبد البر (طبع القاهرة) ٥٥/٢

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جَلَّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس) وهي أمة يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء ، ومن ثمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توجِّد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نَقَلَ حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر — كما كان الشأن في الجاهلية — يجرُّ ثأراً في سلسلة لا تنهى ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدِّمَ القتال لأولي الأمر حتى يلتقي جزاءه . وقدمضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عزَّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . » ^(١)

وأخذ الإسلام يُرسي القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكانهم أسرة واحدة ، تُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات ، وينبغي أن يعودوا لإخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، بآدلا له ولصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع . فهو لا يعيش لنفسه وحدها . وإنما يعيش أيضاً للجماعة يَفْقِدُها بروحه وبماله وبكل ما أوتي من قوة . ومن ثمَّ وُضِعَ نظام الزكاة وعُدَّتْ — كما قدمنا — ركناً أساسياً في الدين ، فواجبُ كل شخص أن يقدم من ماله سنوياً فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة في حسن المثوبة ، يقول جلّ وعزّ : (من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . . مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة من برّية أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطُلّ والله بما تعملون بصير . . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردّ الغنى بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقاً دينياً . إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأُمته ويتربط معها ترابطاً اقتصادياً كما يتربط في وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله ، ويؤثّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر »^(١) وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به ، فقد جهّز عثمان جيش العُسرة في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمّ الألف بخمسين فرساً^(٢) ، وكثر مال عبد الرحمن ابن عوف حتى قدّم عليه في إحدى تجارته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها في سبيل الله^(٣) . ولم يُعن الإسلام فقط بتنظيم العلاقات بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنَى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ . (٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف)

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلَّ الناس بأى وجه من الوجوه . سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلَّ شأنه : (وأوفوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءهم) (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ .. وأحلَّ الله البيع وحرم الربا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قوامها العدالة .

وقد نظَّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردَّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (وهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً هن مثل ما للرجال من السعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزَّ شأنه : (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن) . وكان كثير من غلاظ القلوب يَشُدُّون بناتهم خشية العار ، فحرم ذلك القرآن ، يقول جلَّ ذكره : (وإذا بُشِّرْ أحدُهم بالأُنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أَيْمُسِكُهُ على هُونٍ أم يدسه فى الترابِ أَلَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وحرم البغاء وشدَّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظَّم الزواج وجعله فريضة محببة إلى الله ونعمة من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حِجَّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم وأن لا يَدْخُلن أحداً تَكَرَّهُنَّ بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلَّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاقَ بَيْنَهما فابعثوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تُفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يُسرَّحها بإحسان وأن لا يُمسك عنها شيئاً من صداقتها ، يقول جلَّ وعز : (وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَ منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكلِّ ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحرِّيم الذي شاع في العصر العباسي ، فلن الإسلام يُجِلَّ المرأة ويرفع قدرها ، حتى نراها في الصدر الأول من العصر الإسلامي تشارك في الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين في حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هي نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوي وهدى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرَّره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلاً من أن يشعر أنه مسخَّر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوَّى نَبْهه إلى أنها مسخرة له ولنفسته ، ودعاه لأن يستخدم في معرفة قوانينها عقله ويُعَمِّل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهياه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هياه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه في المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يتفَضَّلُ سائر المخلوقات فقد خلق في (أحسن تقويم) ، وسوى وعدل وركَّب في أروع صورة ، وهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر في الطبيعة إلى خدمته ، يقول جلَّ شأنه : (ولقد كرَّمنا بني آدم وحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) . ويذكر القرآن في غير موضع أن الإنسان خليفة الله في الأرض (وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله في أرضه ووكيله فيها ، خلقه ليسودها ، ويخضع كل ما في الوجود لسيطرته .

وقدمضى الإسلام يعتدَّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل في جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغَّب في ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبهر كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكُّون رقاب الرقيق بشراهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحق الكامل في أن يكتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يسردَّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) . وقد حرَّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاه ، حتى إذا مات رُدَّتْ إليها حريتها . وكانوا في الجاهلية يسرقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كابائهم .

ووسَّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها في الدين نفسه إذ نصَّت آية كريمة على أن (لا إكراه في الدين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام ، بل يُشْرَكُون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الديني ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربُّك لَأَمَسَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) . وحققاً اضطرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دين الله لا للعدوان ، يقول جلَّ وعز : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلاً إلى السلم والسلام في مثل قوله تعالى :
(وَإِنْ جَسَحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا
في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) لذلك لانعجب
إذا كانت تحية الإسلام هي « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ،
ومن تنمة ذلك ما وضعه من قوانين في معاملة الأمم المغلوبة سلمياً وحرباً ، فقد
أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين في حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً
ولا طفلاً ولا امرأة ، وعهده^(١) لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن
المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمسّ كنائسهم ومعابدهم وأن تُترك لهم
الحرية في ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به في
معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور
هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم
أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم
ولا يُستَقَص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرهون
على دينهم ولا يضار أحد منهم »^(٢) . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التي
عُقدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هي التي فتحت الشام ومصر
إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفل للناس حريتهم لا لأتباعه
وحدهم ، بل لكل من عاشوا في ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة
النوع الإنساني ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبي)

٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها ،

وقارن بفتح البلدان للبلاذري (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري (طبع مطبعة الاستقامة

بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

الفصل الثاني

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنْجَمًا في ثلاث وعشرين سنة . حتى تهيأ النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي (وقرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُوثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) . وكان أول نزوله في شهر رمضان وفي ليلة معلومة منه هي ليلة القدر (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وظلَّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربي بليغ (وإلهنا لتنزيل رب العالمين نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله) (نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسُ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذي اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتِبِينَ مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب . وفضي كثير من كتَّبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوّلوا على كتابته فقط ، إنما عوّلوا أولاً على حفظه وأخذوه شفاهاً عن الرسول الأُمِّي ، الذي كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنَّتِهِ يتحفَّظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتلين له ترتيلاً .

ونصوصُ القرآن صريحة في أن سورة وآياته جميعاً رُتِّبَتْ بوحى من الله إلى رسوله ، يقول جبلُّ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (إن علينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . فالرسول لم

يُرْفَعُ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى إِلَّا بَعْدَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ وَسُورِهِ تَرْتِيباً كَامِلاً . وَتَلْقَاهُ
عنه الصحابة بهذا الترتيب ، وكان حَفَظْتُهُ يَسْمَوْنَ بِالْقُرَّاءِ . ولما استحرَّ القتل بهم
يوم اليمامة لعهد أبي بكر خشي عمر بن الخطاب أن يستحرَّ بهم في مواطن
أخرى ، فيذهب قرآن كثير ، فدخل على أبي بكر لستين من خلافته ،
فقال له : إن أصحاب رسول الله يهافتون في المعارك ، وإني أخشى أن تأتى عليهم .
وهم حَمَلَةُ الْقُرْآنِ فيضيع وَيُسْتَسَى ، فلو جمعته ! ولم يزل عمر يراجع حتى شرح
الله صدره للفكرة ورأى رأيه ، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي
الأبرار - بجمعه ، فجمعه من العُسب واللَّخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان
من مثل أبي بن كعب وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبي هريرة
وأبي الدرداء وأبي موسى الأشعري وتحرياً في الدقة ومبالغة في الحيلة أمر أبو بكر
أن لا يُقْبَلُ من حافظ شيء حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كُتِبَ بين
يَدَي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما جُمع المصحف حُفِظَ في بيت أبي بكر ،
ولما توفي وخلفه عمر انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته
أم المؤمنين .

وحدث في عهد عثمان أن أخذ القُرَّاء في الأمصار البعيدة يختلفون في بعض
الأداء ، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه ، فأفرغ ذلك
حذيفة بن اليمان الذي كان يغزو في فتح أرمينية وأذربيجان فهُرِعَ إلى عثمان
قائلاً : إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل
ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف . فهَمَّ عثمان الأمر ، وأجمع رأيه على
أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه . وبعث إلى حفصة أن أرسل إلىنا
بالمصحف ننسخ منه نسخاً ، ثم نرده إليك ، فأرسلت به إليه ، فأمر زيد بن
ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن
هشام ، وقال عثمان للرهط القرشيين ، وهم الثلاثة الأخيرون : إذا اختلفتم أنتم
وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قریش ، فلما نزل
بلسانهم ، فصدعوا بأمره . وردَّ عثمان مصحف أبي بكر إلى حفصة وطابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرَّاء إلى الأمصار ، ويُقَرَّئوا الناس على حَرَفِها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحرق ماسواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم في صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرَّاء في العالم الإسلامي يُقَرِّئون الناس القرآن على حَرَفِ هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم في القراءة داخل ذلك الحرف . وهي المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها . وهي قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبي عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائي .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحِيطَ بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونّها في صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلاً ونهاراً ، وسرعان ما نجمه ويكر في مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعث بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره في العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولاً وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهي تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمَتْ تسهيلاً لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهي أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلت كثرة السور بمكة ، ومن ثم كانت السور إمامكية وإمام مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتاز فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلَّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً في المعاني التي تدور عليها . أما السور المكية فلإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده وتبذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر في خلق السموات والأرض ، فإن من تدبر في هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فلإنها تفصل القول في العمل الصالح الذي ينبغي على المسلم أن يقوم به ، ومن ثم كان يكثر فيها التشريع الديني وكذلك التشريع الاجتماعي بكل ما يتصل به من نظم الأسرة كالمراث والزواج والطلاق وبيع والدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفي تضاعيف ذلك تُذكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبين لهم بعض الآيات ، يقول جلَّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهيّاً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن في القرآن آيات تحتاج تأويلاً ، وهي تصرّح بذلك في وضوح .

وفي مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسروا للناس أى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسميهم الله عز وجل باسم الراسخين في العلم . ويحدثنا السيوطي في كتابه « الإتيقان ^(١) » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدونها في كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره في كتاب طبع في ستة أجزاء سماه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عباس ^(٢) ، ويصرح بأن الرواية عن أبي بكر وعمر وعثمان نَزرة ، أما على فقد روى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير . أما أبيّ فله سند في الطبرى عن طريق أبي العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كَوّن في أثناءها مدرسة في الكوفة حَمَلت عنه تفسيراً كثيراً ، وسنده الجيد هو السُدّي الكبير عن مرّة الحمداني . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبي طلحة . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير فهو الذى تهجه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم في تفسير بعض الألفاظ ^(٣) . وقد حَمَل ابن جرير الطبرى في تفسيره الكبير ما أُثّر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة في تفسير هذا النبع الإلهي الذى لا تنفى كنوزه .

(٣) انظر في ابن عباس ودوره في التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجولده تسهر (ترجمة عبد الحليم النجار) ص ٨٣ وما بعدها .

(١) انظر النوع الثامن والسبعين في هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

أثر القرآن في اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُتَحَ لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خلقه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين : الأولى والآخرة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم ، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه ، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألد خصومه سمعه يتلو بعض آي الذكر الحكيم ، فتوجّه إلى نفر من قريش يقول لهم : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن » ، وإن له الحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق^(١) . وواضح أنه أحسّ في دقة أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصاحتهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهّانهم . إنه ليس شعراً موزوناً ، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم ، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهّانهم وغيرهم من خطبائهم ، إنما هو نمط وحده فصّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس ، وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعدوبة . إنه نمط باهر ، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته ، يقول جلّ ذكره : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . وفعلا عجز العرب عن معارضته عجزاً تاماً ، فمضوا يجرّدون سيوفهم ويغمّدون ألسنتهم ، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت ،

(١) انظر تفسير الزمخشري في

سورة المدثر. مغدق : كثير المياه .

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيا لانقلاب واسع في تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجِّمِل ذلك إجمالاً ، فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلاً عن صحف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جَمَعَ العرب على لهجة قريش ، وحقاً كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية في الجاهلية ، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلاً أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلون آاء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيبه ، يقول عزَّ شأنه : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) . وبذلك تحول المسلمون في جمهورهم إلى حفظ القرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورعوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تُحَفِّظ أيضاً وتظل على مرِّ العصور جديدة غَضَّة لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوب — لا حصر لها — لسانها . فأصبح هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . فكل من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حلَّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذي حفظ العربية من الضياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثاني آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتهيم والركوع والسجود ، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد ، له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خلقت السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يعى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عيبر ، ومن تقرير البعث والنشور وبسط صور الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالقول وتمييزها وما ينبغى أن يتبها لها من صواب الرأى . وإنه ليترقى دائماً من معرفة الخواص إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرع للناس ما يشغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أمّسهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يبتذل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى لزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تعدّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه العزيز .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتيقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامّه وخاصّه مما هيا لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هيا بقوة لهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لببند أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقاً اختطَّ أسلوباً جزلاً ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السهل الممتنع الذي يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذي يميز عرب بيتنا ، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفافة . وقرأ في قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفي ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطرداً في جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومثانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُونَ : (ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتُ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلَّ وعز لرسوله في سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فأوى وجذك ضالاً فهدى وجذك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعدة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزاليته وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانها ، ومع الألفاظ المستحسنة في الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التي تغذى العقول برحيقها الصافي وتشقى القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره ، فعلى هديهِ أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتمين بديباجته الكريمة وحُسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفّظونهُ ، فهو معجمهم اللغوي والأدبي الذي ساروا على هُده ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والركة وسلكس الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعجب بها الناس وشهدا عى وأبى ، ثم لنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شىء من القرآن » (١) . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى في سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يَسْتَقُونَ من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يَقومُ ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالا له ، بل منه ما يسمّى باسم

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خُلُقه أو عمله أو في شأن من شئونه .
 وضم إليه الرواة كثيراً مما حُكي عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ
 كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ويقول الجاحظ : « كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّةَ أَبِي بَكْرٍ وعمر ،
 بل يقال : سنة الله وسنة رسوله »^(١) . وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :
 « اجتمعت أنا والزُّهري ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السُّنن ، قال : وكتبنا
 ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن
 الصحابة فإنه سُنَّةٌ ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم
 أكتب ، فأنجح وضيَّعت »^(٢) .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي
 وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصلها ، فالقرآن مثلاً لم يذكر
 تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله
 تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ،
 كما فصل الفوائد والأُسس التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها . وهذا
 أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيَّن
 أحكام الشريعة وصورها عملياً كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية
 التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملًا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه
 أو يَسْتنبه المراد من معنى بعض آياته ، فقد روى عن علي بن أبي طالب أنه لما
 أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه
 حَمَلٌ أَوْجِهٌ ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السُّنَّة فلا يجدوا منها
 مخرجاً^(٣) .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان
 هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائي قلنا

ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ .

(٣) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ١٤٦/٢ .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي)

٣٣٦/١ .

(٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوروبا)

يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس ^(١) . وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يرسل في القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومرّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تقضى ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبِسنة رسوله . فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفى الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما روى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالحديث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثم تكون سند الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من روايته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوي ، وهو يسمى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي وصحابته ، وهي تستعمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُون في حياته ، وخاصة تلك

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني

على البخارى .

التي تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك في بعض كتبه المأثورة ^(١) . ورخص النبي في بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكاً إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه ^(٢) ، وعن رافع بن خديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج ^(٣) » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له ^(٤) ، وكان يسمى صحيفته التي كتبها عن الرسول الصادقة ^(٥) . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يبنى خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية ^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول في حياته ، فإنها كانت محدودة جداً ، وكان الرسول ينهى أن تصبح كتابة حديثه عامة ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أثير عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمحاه » ^(٧) . ومما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة في كتابته ، ووفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً ^(٨) . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدون في القرن الأول للهجرة تدويناً عاماً . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

(٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها

(٥) تقييد العلم ص ٨٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٨٦ .

(٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها .

(٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

(١) انظر في ذلك مجموعة الوثائق السياسية

في العهد النبوي والخلافة الراشدة لحمد الله

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي (طبعة

يوسف العش) ص ٦٥ .

(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .

الخلافة (٩٩ - ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء في حاشية^(١) الزرقاني على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع في العلماء (من حفظها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي (والي المدينة) فيما كتب إليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه . وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة أو نحو هذا فاكتبه لي فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علقه البخاري في صحيحه ، وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . وتوفي عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد . وأول مدون للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهري^(٢) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعياً أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى يتهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا في عبارته وقدموا في كلماتها وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُروى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت - تُروى غالباً - بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

٥٧١/١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/٤٤٥

وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٢/١ والمعارف لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢/٧٧ .

(١) انظر الحاشية ١٠/١ .

(٢) انظر في ترجمته كتاب الأنساب للسمازي ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق)

على أن طائفة من الأحاديث رُوِيَتْ روايةً تواتر، ومن ينظر في هذه الأحاديث وما نصَّ عليه العلماء بأنه رُوِيَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم ،
 وحققاً ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويُسرَّ بالتوفيق » ^(١) ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأَنْصار :
 « أما والله ما علمتكم إلا لتقلُّون عند الطمع ، وتكثرُون عند الفزع » وقوله
 « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ،
 وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرمًا » ،
 وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلى وأقربكم مني مجالس
 يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطَّئون أكفأُ الذين يَأْلِفون ويؤْلَفون .
 وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفسيِّهون » ،
 وقوله « لا تَجُنَّ يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملكُ تاجر صدوق » وقوله :
 « رَحِمَ الله عبدًا قال خيراً فغَنِمَ أو سكتَ فسلمَ » وقوله : « إن الله يَرْضَى لكم
 ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يَرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا
 بحبله جميعاً ولا تفرقوا وأن تُنَاصِحوا من ولَّاه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ
 وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابنُ آدم : مالى مالى ، وإنما لك من
 مالك ما أكلت فأفْنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأَمْضيتَ » وقوله : « إن قوما
 ركبوا سفينة في البحر فاقْتسموا فصار لكل رجل موضع ، فنقَرَ رجل موضعه
 بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا
 على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصَّنوا أموالكم بالزكاة
 وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان
 حقا على الله أن يحرمَ لحمه على النار » وقوله : « أوصاني ربى بتسع : أوصاني
 بالإخلاص في السرِّ والعَلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى
 والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ،
 وأن يكون صمتى فكراً ونطقى ذكراً ونظري عِبراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي، فاجاءكم غني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو غني قلته أو لم أقله . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التي دارت بين الناس دوران الأمثال والتي تُعَدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم^(١) :

يا خيلَ الله اركبي - مات حتف أنفه^(٢) - لا تنتطح فيه عنزان - الآن حمي الوطيس^(٣) - كل الصيّد في جوف الفراء^(٤) - هُدنة على دخن وجماعة على أقذاء^(٥) - لا يُلْسَع المؤمن من جُحُر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(٦) - إياكم وخضراء الدمن^(٧) - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة^(٨) .

وإذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن في اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه في البلاغة ، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وفي حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُستخدَم من قبل هذا الاستخدام الخاص ، وقد أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقاً أن كثرت رؤيت بالمعنى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهي من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالي هي كثر ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكثر في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها - على مر العصور - رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

(١) انظر البيان والتبيين ١٥/٢ وراجع

كتب الأمثال .

(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .

(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلاً في

اشتداد الحرب .

(٤) الفراء : حمار الوحش . يضرب مثلاً

في نفاسة الشيء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى

هلك فلم يقض ما ينبغي من حاجة أو من سفر .

والظهر : الناقة التي يركبها .

(٧) الدمن : البعر المتليد . يضرب مثلاً

للتفكير من المرأة الحسناء تنشأ في منبت سيء .

(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من أمير أمصيام في أمسفر » ، أى ليس من البر الصيام في السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء في غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام . ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب في أن المسلمين أشد الأمم عناية بتاريخ رجالهم على نحو ما نعرف في مثل طبقات ابن سعد وأُسْدُ الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبي . فالحديث هو الذى فَتَحَ باب الكتابة التاريخية وهيباً لظهور كتب الطبقات في كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته في علوم التفسير والفقه ، مما بعثَ على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظِم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة ، نلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهي دعوة اضطرت به إلى حمل السيف للذيادة عنها ، وانقسم العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحسّن إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدّون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام في الجزيرة ، غير أن أقواءاً ارتدوا لعهد أبي بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فعَلَت أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم في كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديّيه الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . وقرأ في كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبري وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، وقرأ في

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوديهما البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهراً في صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخترسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحفظه وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه ^(١) . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحي لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل في الإسلام بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة . ولإذن فانصرفهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أي إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله في أول كلامه بما قاله في آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردُّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وحتى في العامين الأخيرين من حياته عانى الوفود كان كل وفد يُقدِّم معه خطبائه وشعراؤه ، وبمجرد أن يمشلوا بين يديه يتحدث خطبائهم ويُششد شعراؤهم ويرد عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه ^(٢) .

ولعل الذي دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلام وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلَت عن الشعر العرب وتشاغلوا

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٦/٤

بالجهاد وغزو فارس والروم ولدت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثّر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير^(١) . وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفيه ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لمت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة لصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » . وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويشبّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قَيْحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً »^(٢) أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكماً أو حكمة »^(٣) ، وكان يحضّ حسان بن ثابت وغيره على نظمهم وشبّهم . وكان بعض خصومه ممن توعدّهم يتخذهم وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قدّم عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فقهّل وجهه بشراً وخلع عليه بُردته^(٤) .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام

(٢) العدة ٩/١

(٣) أغاني (طبعة السامي) ١٤٢/١٥ وما بعدها

(٤) طباع دار المعارف ص ٢٢ .

(٢) العدة لابن رشيّق (الطبعة الأولى) ١٢/١ .

والحق أن الإسلام لم يردَّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذهُ سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وقع نبئله عليهم أشد من وقع الحسام^(١) . وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم^(٢) ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد^(٣) . وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسن^(٤) ، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مَرُّ مَن قَبَلَكَ بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب »^(٥) ، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٦) .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُشَبَّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الخفيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الخطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبير بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهدته على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء^(٧) . وتابع عثمان سنة عمر في التشديد على من يتسلقون المسلمين باللسنة حداد ، وقصته مع ضابي بن الحارث البرجعي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعاً أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات^(٨) .

٢٧٠/٥ . وخزانة الأدب للبغدادى ٢٩٢/٢ .

(٥) العمدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ . وانظر في ترجمة

ضابي أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة

٢٦٧/٣ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للبرد (طبعة

رايت) ص ٢١٩ .

(١) العمدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة

وكتاب عثمان إلى علي حين حوصر ، وانظر ابن

سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج ١ ص ٢١

ص ٩٥ - ٩٦ . والفائق للزنجشري ٢٥٧/١ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ،

٢٨٨/١٠ والمقد الفريد (طبعة لجنة التأليف)

ولكن هاتين القصصين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة في هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان يُنشدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو في الفتوح أو في معركة على مع خصومه في العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حملت من عَقْد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التي لم تُعرَف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معاً .

٢

الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمَّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصَّمَّة والأعشى وأمية ابن أبي الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشَلِي وأضرابهم من مِثْلِكَ المخضرمين وننظمهم في سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادثت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب في جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفؤوا حوله في المدينة في جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء في الجانبيين المتناقضين يسدلون ألسنتهم ، ولم تكن مكة في الجاهلية - كما قدمنا - تُعرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنسبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فتيانها مثل نُبَيْه ومساfer اللذين ترجم لهما أبو الفرج في أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عزة الجمحى وهُبَيْرَة بن أبى وهب المخزوم ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية ، فقال لأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله سلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرّنى به مِقْصُولٌ بين بُصْرَى وصنعاء »^(١) وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم المجاء بينهم وبين شعراء مكة . وقرأ في سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد في السنة الثالثة وغزوة الخندق في السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك في فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغي أن نشك في كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق - كما يقول ابن سلام - كان يحتمل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه^(٢) ، ونرى ابن سلام يقول في ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : « لسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنّ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم »^(٣) . على أن ابن سلام نفسه يثبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها في يوم أحد كافية كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر^(٤) ، وقد

(١) أغاني ١٣٧/٤ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزُبَيْرِ قصيدته التي قالها في نفس اليوم^(١) ، والتي يقول فيها :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَزَرْجِ من وَقَعِ الأَسْلِ^(٢)
حين أَلَقْتُ بِقُبَاءِ بَرْكَهَا واستَحَرَّ القَتْلُ في عبد الأَسْلِ^(٣)
فقبلنا النُّصْفَ من سادتهم وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فاعتدل^(٤)

وأيضاً فإنه أثبت لأبي عَزَّةٍ ميمية يحرّض فيها بني كنانة^(٥) ، وقال عن هبيرة بن أبي وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذي يقول في يوم أحد^(٦) :

قَدْنا كنانة من أكنافِ ذِي يَمَنٍ عَرَضَ البلاد على ما كان يُزجيه^(٧)
قالت كنانة : أننى تذهبون بنا قلنا : النّخيلَ ، فأموها وما فيها^(٨)

وكان في الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلّه على قريش هذه الأبيات يتحدثى بها أبا سفيان بن الحارث^(٩) :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه . وعند الله في ذاك الجَزَاءُ
فإن أبى ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاءُ
أنهجوهُ ولستَ له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداءُ

(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .

(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .

(٧) الأكناف : النواحي . ذو يمن : موضع

قريب من مكة . يزجي : يسوق ويدفع .

(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرة فيها .

أموها : قصدها .

(٩) أغاني ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر

ص ١٢٩ .

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركي

قريش . الأسل : الرماح .

(٣) قباء : موضع بضواحي المدينة . أَلَقْتُ

الحرب بركها : حمى وطيسها . استحَرَّ القتل :

اشتد وكثر .

(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلنا منهم

لقتلى بدر .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أُحُدٍ في كلمة :

فَجَفْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطَهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمَقْنَعٌ^(١)
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ^(٢) ثَلَاثُ مِثَالٍ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ^(٣)
فَرَاخُوا سَرَاعاً مُوجِفِينَ كَأَنَّهُمْ جَهَامُ هَرَاقَتِ مَاءِ الرِّيحِ مُقْلِعٌ^(٤)
وَرُخْنَا وَأُخْرَانَا بِطَاءٍ كَأَنَّا أَسْوَدٌ عَلَى لَحْمٍ بِبَيْشَةٍ ظُلْعٌ^(٥)

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَرْعِيلٍ بَعْضُهُ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُخْرَقِ^(٦)
فَلَيَاتٍ مَأْسَدَةً تُسَلُّ سَيُوفُهَا بَيْنَ الْمَذَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ^(٧)

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْنِ إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مؤتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله^(٨) :

نَجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسُرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ وَفِينَا تَنْزِلُ السُّورُ^(٩)
وَقَدْ عَلِمْتُمْ بَأَنَا لَيْسَ غَالِبَنَا حَيٌّ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا
يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَالَهُ غَيْرُ^(١٠)
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرَ آكَالِذِي نُصِرُوا^(١١)

النارفي القصب . الأباء : أجمة القصب .
يصف أصوات المعركة .

(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاذ :
موضع بالمدينة . جزع الخندق : منقطع .

(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .

(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم

لا يزالون من يضربون .

(٩) غير : تغيير .

(١٠) يقصد الرسل .

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا
عند جبل يسمى حبشيا . الحاسر : الذي لا بيضة
له عكس المقنع .

(٢) النصية : الخيار والأشراف .

(٣) موجفين : مريعين . الجهام : السحاب
أفرغ مائه .

(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر .

ظلع : من الظلع وهو العرج . يكنى بذلك عن سيرهم
البطء المظنن .

(٥) يرعيل : يمزق . المعمة : صوت لذب

وفى الأغاني أن حسناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيبرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيبرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»^(١). ومن المؤكد أن حسناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبت على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة، لأنها هي التي كانت تؤذى نفوس القرشيين المكئين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزُّون بها، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا في الأحساب والأنساب، وعيبراسادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير. وطبيعي لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم في ذم المشركين، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن في الأعراض والأحساب، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتي على الشيب والشبان، إنما يتوعدهم بالنار، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون في دينه الخفيف.

وكان يَشْرِكُ شعراء قريش في التآليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار^(٢) وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذلون عنه قريشاً والعرب، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُنْشِئَ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم في هذا الفساد كعب بن الأشرف^(٣)، وقد بلغ من سوء فعله أن كان يشبِّبُ بنساء الرسول ونساء المسلمين، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله في رهط من الأنصار^(٤). غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سراً وجهرًا على تقويض الدعوة المحمدية، فاضطر الرسول إلى إجلالهم عن المدينة، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلالهم عن الجزيرة.

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية

٥٤/٣ وما بعدها .

(١) أغاني ١٣٨/٤ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٤٧/٢ .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٠٦/١٩ .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحترمين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، وراثؤه لقتلى بدر مشهور^(١) ومثل الأسود بن يعفر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد^(٢)، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع. وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام. وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر^(٣):

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ وَتَرٍ وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَحْجَمْنَا السُّيُوفَ^(٤)
نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا^(٥)
فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِنَسَاحَةِ دَارِكُمْ مَنَا أُلُوفًا^(٦)
فَنَنْتَزِعَ الْعُرُوشَ بَبْطُنٍ وَجٍّ وَنَتْرِكَ دَارِكُمْ مَنَا خُلُوفًا^(٧)
وَنُرْدِي اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَودًا وَنَسْلُبُهَا الْقِلَادَ وَالشُّنُوفًا^(٨)

وتُفْتَسَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هذيل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهذلى فى بكائه لدُبَيْسَةَ سَادَنِ الْعُزَّى حين قتله خالد بن الوليد^(٩). وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حنينين. على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدْجِجت الجزيرة كلها فيه، وأُخِذَتْ وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدين الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

-
- (١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١.
(٢) ابن سلام ص ١٢٣.
(٣) ابن سلام ص ١٨٤.
(٤) الوتر : الثأر.
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف.
(٦) الحاصن : المرأة العفيفة.
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم.
وج : الطائف ونواحيها. والحقى الخلوف : الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدوهم.
(٨) نردى : نهدم. اللات والعزى وود : أصنام : القلائد : السموط. الشنوف : جمع شنف وهو القرط.
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ١٤٨/٢ واقطر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٤ وما بعدها.

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ،
ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم تاب إلى رشده ، فقدم عليه
معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول في تضاعيفها ^(١) :

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رَحْلِها . أبرُّ وأوفى ذِمَّةً من محمدٍ
وتنظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسى فيها على ما فرط في جنب
الله ورسوله على شاكلة قوله ^(٢) :

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ محمدٍ
لكالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ ليلَه فهذا أوانٌ حين أهدي وأهتدي
وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم
في ذلك شعراء المدينة ، وتُنسَبُ إلى الأعشى قصيدة في مديحه ^(٣) لا شك أنها
منحولة ، وتُنسَبُ لأبي طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضُ يُستَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل
ويقول ابن سلام : «قد زيد فيها وطؤٌ» ^(٤) وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس
فارس بنى سُلَيْمٍ أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله ^(٥) :

نبيُّ أتنا بعد عيسى بناطقٍ من الحق فيه الفضلُ منه كذلكا
أميناً على الفرقان أول شافعٍ وآخر مبعوثٍ يجيب الملائكا
وتنظم كثير من المرثي في قتل المسلمين والمشركون ، ورثاءُ قتيلة
لأبيها النضر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه
الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُئي به قصيدة حسان التي يستهلها بقوله ^(٦) :

ما بالُ عيني لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكُحْلِ الأرمَدِ

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٠٥/١٤ .

(٤) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص ٥٨ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .

(٦) ابن سلام ص ٢٠٤ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكنى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصقّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون في صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّتْ أضواء الإسلام في الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن في الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قضى على الوثنية في أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر في نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتمهم وبعيرهم ، فاستشار الصديق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخيراً من السماء فتخطفني الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيي هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعوني عيلاً بالجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثاً حاول من حسن إسلامهم في القبيلتين أن يردوهما عن غيئهما ، ولم يلبث أن التى بهما خالد عند بئر بَزَاخَة ، فنكّل بهما تنكيلاً شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد تَوّاً إلى تيمم ومتنبئتها سَجَاح فلم تلبث بعد مناقشات صغيرة أن أذعن له ،

وقُتِلَ حينئذ مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة ^(١) .
 واتجه خالد بجيوشه نحو بني حنيفة في اليمامة ومتنبهاً مُسَيَّلِمةً ، فالتقى بها في
 « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحر فيها القتل ، غير أن الدوائر لم
 تلبث أن دارت على بني حنيفة ، فسقط متنبهاً في ميدان المعارك ، وأعلنت
 استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت « البحرين »
 بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ،
 حيث التف الناس هناك حول متنبى يسمى الأسود العنسي ومتنبى آخر يسمى
 قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

ولإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلقت
 ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هي الأخرى قد خلقت أشعاراً كثيرة ، بعضها
 كان إنذاراً وتخويفاً وعظاً من مثل قول الحارث بن مرة في وعظه لبني
 عامر ^(٢) :

بني عامرٍ إن تَنْصُرُوا اللهَ تَنْصُرُوا وإن تَنْصَبُوا اللهَ والدينَ تُخَذَلُوا
 وإن تُهْزَمُوا لا يُنْجِكمُ منه مهربٌ وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول
 أوس بن بجير الطائي في موقعة بَزَاحَة ^(٣) :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنا وما تَخْتَلِي من أذْرى ورقابٍ ^(٤)
 ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصبُّ على الكفار سَوْطَ عذابٍ
 وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم ^(٥) .

- | | |
|---|---|
| (١) انظر في متمم وراثته لأخيه الأغاني
(طبعة الساسي) ٦٣/١٤ والشعر والشعراء
(طبع دار المعارف) ٢٩٦/١ والحزنة
٢٣٤/١ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي)
ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف)
ص ٢٦٣ ، ٢٧١ . | (٢) الإصابة لابن حجر ٥٥/٢ وراجع
في أشعار أخرى الإصابة ٢٧٤/١ ، ٣/٢ ،
١٢٢/٥ ، ١٥٢/٢ . |
| (٣) الإصابة ٥٥/٢ . | (٤) تختل : تقطع . |
| (٥) تاريخ الطبري ٤٩٤/٢ والإصابة ١٢٥/٣ . | |

ورُئِبَ الصَّدْعُ وعاد الحق إلى نصابه ، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزييرتهم كى ينشروا الإسلام في آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون في سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبي العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهاز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان في فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون في موقعة أجنادين كما انتصر في موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوقى أبو بكر في السنة الثالثة عشرة للهجرة قريب العين بما أدى لله ورسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ تَوْفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِنِي بِالصَّالِحِينَ » ^(١) ، وبكاه كثير من الشعراء ^(٢) ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت ^(٣) :

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوْنَا مِنْ أَخِي ثَقَةٍ فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
التَّالِي التَّالِيَّ الْمَحْمُودَ سِيرَتَهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرِّسَالَا
وَتَالِيَّ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَا
وَكَانَ نَحْبُ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجَلَا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف في الحق لومة لائم . وهو أول من دوّن الدواوين ورتّب الناس فيها على سوابقهم ، وأول من رتّب التاريخ العربي وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمر المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره في ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش في الشام وولّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمّ يعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما في الشرق فكانت المعركة

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين

(١) الطبري ٦١٥/٢ .

(٢) الطبري ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢ . ٣٦٢/٣ .

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسَّس الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومضى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرق دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان من قتلته فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ونحيل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الخنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البرقي بن عياض الهذلى ، إذ يقول (١) :

وإن أميس شيخاً بالرجيع وولدةً وتصبح قوى دون دارهم مضر (٢)
أسائلُ عنهم كلما جاء ركبٌ مقبياً بأملأح كما رُبط اليعر (٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم بستة أبيات كما نبت العتر (٤)
وكان عمر يستهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برأهم ، ويروى أن الخبيل السعدى جزع جزعاً شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فاقتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢
حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً ماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .
(٣) أملأح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .
(٤) العتر : شجر له ورق صفار .
خلافهم : بعدهم .

إذا قال صبحي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيان أن لن يعقني تعقُّ إذا فارقتنى وتحوب^(١)
فرق له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل
عنده حتى مات^(٢). وليس المخبل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه، فقد
فزع إليه أيضاً أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب
الفرس، وكان مما أنشده فيه:

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن حفِظَ الكتابا^(٣)
إذا هتفت حمامة بطنٍ وجَّ على بيضاتها ذكراً كلابا
تركت أباك مُرَعَشَةً يدها وأملك ما تُسبغ لها شرابا
فأمر بإشخاصه إليه^(٤). ومن فزع إلى عمر أيضاً في ذلك أبو خراش الهذلي
حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام، وقد أنشده شعراً مؤثراً، فأمر برده عليه
وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته^(٥).

ولعل في هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد
في سبيل الله، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء
الدنيا والغنائم^(٦). لا ابتغاء الله وثواب الآخرة، وربما كان من خير ما يرد عليهم
قول النابتة الجعدى لامراته، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس^(٧):

يا ابنة عمى كتابُ الله أخرجني طوعاً وهل أمتعن الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربُّ الناس يرجعني وإن لحقتُ بربي فابتغى بدلا
ما كنتُ أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولاً^(٨)

(٦) راجع تاريخ الدولة العربية للهلوزن

(طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥

والعقيدة والشرعية لجولد تسيهر ص ١٣٧.

(٧) الشعر والشعراء ١/٢٥١ وقد ظلت هذه

الروح مسيطرة على الفاتحين في العصر الأموي،

انظر الطبري ٤١٣/٥.

(٨) ضارعا: ضاويًا نعيلا. ضنى: مرض.

(١) تحوب: تأثم.

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/١٩٠.

(٣) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء

والبر بهم.

(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزانة ٢/٥٠٥.

(٥) أغاني (سأسي) ٢١/٦٩ وديوان الهذليين

١٧٠/٢ وانظر في حالات مشابهة الأمالي

٣٠٩/٢ وذيله ص ١٠٩.

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعا للعدل والتقوى والزهد في الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبي لؤلؤة المجوسى الآثمة في الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين وتشييعهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جرّء بن ضرار أخى الشماخ^(١) :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَزْقِ^(٢)
فَمَنْ يَسْنَعُ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَعَامَةٍ لِيُذَرِّكَ مَا حَاوَلْتَ بِالْأَمْسِ يُسْبِقُ
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقُ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ^(٣)

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى في ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فضى ينفذ سياسة عمر في إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقرّ معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزّل عمرو بن العاص عن مصر وولّاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان في الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفي مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملاهم مودة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خمس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالقس وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يسلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفاهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغاني ١٥٩/٩ (٣) البوائق : الدوامى . تفتق : تنشق عن والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .
(٢) الأديم : الجلد .
نمرها . والاستمارة واضحة .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يشتركوا الدولة في الفئ ، ولكن صوته لم يرتفع في عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التدمير يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدّى إلى قتله في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة ^(١) ، من ذلك قول أيمن بن خريم ^(٢) :

ضَحُّوا بِعُثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضُحًى وَأَيُّ ذَنْبٍ حَرَامٍ لَهُمْ ذَبَحُوا
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَتْلَهُ سَفَهًا لَاقُوا أَثَامًا وَخُسْرَانًا فَمَا رُبِحُوا
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بِسَفْحِهِمُ لِلدَّمَ الزَّائِي الَّذِي سَفَحُوا
وكان على بُعد أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرض طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستغفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فَنَزَلَ فِي الْكَوْفَةِ ، وَلَمْ تَلْبِثِ الْحَرْبُ أَنْ نَشَبَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَسَرَّعَانَ مَا انْتَصَرَ عَلَى فِي مَوْقِعَةِ الْجَمَلِ الْمَشْهُورَةِ ، وَقُتِلَ طَلْحَةُ وَالزَّبِيرُ وَانْسَحَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَكَانَ عَلَى قَدِ عَزْلِ مَعَاوِيَةَ ابْنِ عَمِّ عُثْمَانَ وَوَالِيهِ عَلَى الشَّامِ ، فَلَمْ يَصْدَعْ لَأَمْرِهِ وَاعْتَبَرَ نَفْسَهُ وَلِيَّ دَمِ عُثْمَانَ ، فَجَهَزَ الْجِيُوشَ لِحَرْبِهِ وَانْقَضَ إِلَى مَعَاوِيَةَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَكَثِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ . وَسَارَ إِلَيْهِ عَلَى بِجُمُوعِهِ ، فَالْتَقَوْا عَلَى الْحُدُودِ الْعِرَاقِيَةِ السُّورِيَةِ فِي صَفِّينِ الْوَاقِعَةِ عَلَى الضَّفَّةِ الْيَمْنِيِّ لِلْفَرَاتِ ، وَاحْتَدَمَتْ مَعْرَكَةٌ عَنِيفَةٌ كَادَ فِيهَا النَّصْرُ أَنْ يُكْتَسَبَ لَعَلَى ، غَيْرَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ عَمِدَ — بِمَشُورَةِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ — إِلَى الْحِيلَةِ ، إِذْ جَعَلَ طَائِفَةً مِنْ جُنُودِهِ تَرْفَعُ الْمِصَاحِفَ عَلَى أَسْنَنَةٍ رَمَاحَهَا طَالِبَةُ الْإِحْتِكَامِ إِلَى الْقُرْآنِ وَوَقَّفَ هَذِهِ الْحَرْبَ الْمُبِيرَةَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَنَبَّهَ عَلَى الْحِيلَةِ غَيْرَ أَنَّ كَثْرَةَ جَيْشِهِ أَجْبَرَتْهُ عَلَى وَقْفِ الْقِتَالِ وَالِدُخُولِ مَعَ مَعَاوِيَةَ فِي مَفَاوِضَاتٍ . وَاتَّفَقَ الْفَرِيقَانِ عَلَى اخْتِيَارِ حَكَمَيْنِ ، هُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَنْ مَعَاوِيَةَ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ عَلَى لِيَحْكُمَا بَيْنَهُمَا عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْقُرْآنِ . وَاسْتَطَاعَ عَمْرُو أَنْ يَقْنَعَنَّ أَبَا مُوسَى بِمُخْلَعِ عَلَى وَمَعَاوِيَةَ

٤٤٧/٣ وما بعدها .

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣

المبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤-٤٤٥ والطبري

معاً . ولم يلبث مركز على أن تزعزع في العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعته منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها في حروراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعيناً حاول إقناعهم بخطتهم ، ولم يرأخيراً بدأ من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النهروان في دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذي تحيّن منه فرصة ، وقتله غيلة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه^(١) ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي إذ يقول^(٢) :

أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيئسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلّت بأنك خيرها حسباً وديننا

وقد كثرت الأشعار في هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض التأثيرين عليه والساخطين بصورون ثورتهم وسخطهم في أشعار كثيرة^(٣) ، ويُقتل عثمان ، ويبيكه كثيرون وخاصة من بني أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياً ويتهادونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم^(٤) :

ولنا وإياكم وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرأبته
وقد مضى يحترض معاوية على الأخذ بثأره في أشعار كثيرة^(٥) . وتطورت

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٠/٥
والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .

(١) انظر في مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ -
٤٨٦ والطبري ١١٦/٤ .

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢
١٢٢/٥ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢
والطبري ٤٤٩/٣ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٩/١٢
والطبري ١١٦/٤ وخيئسها في البيت الثاني :
ذلها .

(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .

الأمر ، ونشبت وقعة الجمل بين علي وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوت في هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة^(١) من مثل قول القائل^(٢) :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلِ نَنعَى ابنَ عَفَّانٍ بِأَطرافِ الأَسَلِ
ننازلُ الموتِ إذا الموتُ نَزَلَ والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلِ

والتي على معاوية في صفين ، وحمى وطيس المعارك . وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلُّ يعتقد أن الحق في جانبه ، من مثل قول أبي الطفَّيِّلِ عامر بن واثلة يصف بعض أنصار عليَّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشِرٍ على الخيلِ فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهُمُ سِما النبيِّ ورايةٌ بها انتقمُ الرحمنُ ممن يكيدها
ورَدَّ عليه خزيمة الأسدي يصف جيش معاوية^(٣) :

ثمانون ألفاً دينُ عثمان دينهم كتائبُ فيها جبرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمِتْ ففى النارِ سُقياهُ هناك صديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبية القبيلية^(٤) ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن في تاريخ الطبرى وفي كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفى لبيان ما انزل على الألسنة من أشعار ملتهبة^(٥) . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين علي والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يستخمد له أوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربى إذكاءً وأشعلتها إشعالا .

(١) تاريخ الطبرى ٥٢٢/٣ وما بعدها . نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ،

(٢) الطبرى ٥٢٧/٣ . ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفي مواضع متفرقة .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٩/١٥ . (٥) انظر الطبرى ١٦/٤ وما بعدها

(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبدالسلام محمدرون)

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي
الفرس والروم . فقتلوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام
ومصر . وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوِّية ، يتغنون
فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن
نعرِّض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف
قليلاً عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم
أبي محجن الثقفي^(١) ، وكان مولعاً بالخمير فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى
إذا احتدمت المعركة توسَّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه - على أن يعود إلى
قيده - ليسُهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وعاد
إلى سجنه وهو ينشد^(٢) :

لقد علمتُ ثَقِيفٌ غيرَ فخرٍ بآنا نحن أكرمهم سيوفنا
فإن أحبسَ فقد عرفوا بلاني وإن أطلَقَ أجرَّعهم خُتوفنا
وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برؤوس أبطالهم ،
وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معديكرب الزُبَيْدِي^(٣) ، وكان
من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك
ونهاوند ، ومن شعره^(٤) :

والقادسية حين زاحم رُسْتَمُ كنا الحماة بهنَّ كالأشطان^(٥)
الضاربين بكل أبيض مخدَم والطاعنين مجامع الأصغان^(٦)

٤٦٠/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة
الخليج) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢٤٠/٢
والعيني ٣٧٩/١ .

(٤) ذيل الأمل ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . الخدَم : القاطع .
مجامع الأصغان : القلوب .

(١) انظر في ترجمة أبي محجن الأغاني (طبع
السبي) ١٣٧/٢١ والشعر والشعراء ٣٨٧/١
والإصابة ١٧٠/٧ والخزانة ٥٥٠/٣ وما بعدها
والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغاني ١٤٠/٢١ .

(٣) انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني
(دار الكتب) ٢٠٨/١٥ والشعر والشعراء ٣٣٢/١
وذيل الأمل ص ١٤٥ والخزانة ٤٢٢/١ ،

ومنهم بشر بن ربيعة الحشعمرى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية^(١) :

تذكرُ - هداك الله - وَقَعَ سيوفنا بباب قُدَيْسٍ والمكرُ عَسِيرُ^(٢)
عَشِيَّةً وُدَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَنَاحِي طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِرَاع كَتِييَّةٍ دَلَفْنَا لِأُخْرَى كالجبال تسير^(٣)
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بِأَحْمَالٍ لَهُنَّ زفير^(٤)

ومن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المردى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك^(٥) :

جلبتُ الخيلَ من صَنَعَاءَ تَرْدَى بكل مدججٍ كالليث سامى^(٦)
إلى وادى القُرَى فديارِ كلبٍ إلى اليرموك فالبلد الشامى
وجِئْنَا القادسيَّةَ بعد شهرٍ مسومةً، دوابرُها دواى^(٧)
فناهضنا هنالك جَمْعَ كسرى وأبناء المرازبة الكرام^(٨)
فلما أن رأيتُ الخيلَ جالتُ قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأضربُ رأسه فهوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام^(٩)
وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

ومن حضر القادسية الأسود بن قُطَبة، وله فيها أشعار كثيرة^(١٠)، وعمر بن

(٦) تردى الخيل : ترجم الأرض بجوافرها .

(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب .

دواى : ملطخة بالدم .

(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .

(١٠) الإصابة ١/ ١٠٨ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/ ٢٤٣ .

(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها .

(٣) دلفنا : تقدمنا .

(٤) واجم : من الوجوم وهو انسكوت مع

كظم النبط .

(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة

المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .

شأن الأسدى^(١)، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام، وله يذكر قتل رستم^(٢) :

قتلنا رُستماً وبنيه قسراً تشير الخيلُ فوقهم الهبالا^(٣)
وفرَّ الهرمُزانَ ولم يحامى وكان على كتيبته وبالا^(٤)

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله^(٥) :

برزتُ لأهل القادسية معلماً وما كلُّ من يَغشى الكريهة يُعلم
ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي^(٦)، وقد ختم الجاحظ كتابه «الحيوان» بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ، يقول فيها^(٧) :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارسَ بيئُضها كالأعبل^(٨)
مُتسربلي حلقَ الحديد كأنهم جُربُ مقارفةٍ عنيّةٍ مُهمل^(٩)

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج في أغانيه، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعة في تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصبوح، ونحن نعرف أن الإسلام حرّم الخمر، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قليل أولهما في الجاهلية، وقليل ثانيهما في الإسلام، وسرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له في الفصل التالي. ومن ذلك قصيدة لعُبدة^(١٠) بن الطبيب، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا في حروب القادسية والمدائن، ونراه يستهلها بقوله^(١١) :

-
- (١) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة) دار الكتب ١٩٦/١١ والشعر والشعراء ٣٨٩/١ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢.
(٢) الطبري ٥٠/٣.
(٣) الهيال : ما يهال من الغبار.
(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس.
(٥) الأغاني (طبع الساسي) ٥١/١٦.
(٦) انظر ترجمته في أغاني (ساسى) ٩٠/١٩ والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والإصابة ٢٢٠/٢ والجزاة ٥٦٦/٣.
(٧) (٧) الحيوان (طبعة الحلبي) ٢٦٣/٧.
(٨) البيض : الخوذ. الأعبل : حجر أبيض.
(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء. مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير. العنية : طلاء للجرب، وأراد نفس الإبل الجربى. والمهمل : الذى يهمل الإبل في المرعى.
(١٠) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٣/١٨ والشعر والشعراء ٧٠٥/٢ والإصابة ١٠١/٥ والموشح ص ٧٥.
(١١) انظر القصيدة في المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥.

هل جبل نحوّلة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رموس العُجم ضاحيةً منهم فوارس لا عُزل ولا ميل^(١)
ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضل ربّ سيبه حسن وكل خير لديه فهو مقبول
ولكننا نُصدّم في آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثمّ كنّا
نقطع بأن القصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يخلّون من
خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة في سبيل
الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجتمع كثيراً من الأشعار التي نُظمت في
كل معركة ، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة
مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل
الأغاني وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح
ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض
من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كثير بن الغريزة التميمي يرثي بها من
أصيبوا في معارك الطالّلقان وجوزجان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول^(٢) :

سَقَى مُزْنَ السحابِ إذا استهلّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُوزجانِ
وما بي أن أكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القلب للبرق اليماني
ورُبُّ أخٍ أصاب الموت قبلي بكيْتُ ولو نُعِيتُ له بكاني

وعبروا في أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين
والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامّة ، على نحو

حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر
فيه الإصابة ٣١٨/٥ والخزانة ١١٨/٤ ومعجم
الشعراء ص ٢٤٠ .

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس .
العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
الميل : جمع أميل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل .
(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٧٨ / ١١

ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازي الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين^(١) ويروون أنه كان لأوس^(٢) بن مخرم « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلاءهم في الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمدٌ خيرٌ من يمشى على قدَمٍ وكان صافيةً لله خلصانا
ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيها اتئمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الحراج ، يقصُّ عليه كيف أثروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها وما يأخذون لأنفسهم من المغازي ، وفيها يقول^(٣) :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غزَوْا فأنتى لهم وقرٌ وليس لنا وقرٌ
وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه في فتوحهم من المعامل والحصون والحيوان كالفيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين^(٤) .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المحوِّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولاً ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثمَّ اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يرسل الراوي الشعر لإرسالاً بدون نسبته إلى شاعر بعينه ، وينصُّ الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرَف من نظمهما ، ويعقب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

(١) طبرى ١٠٨/٣ . مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة) (٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

دار الكتب ٨/٥ والشعر والشعراء ٦٦٨/٢ (٤) الحيوان ١٣٧/٤ والإصابة ١٤/٣ ٦٠/٥ .
والإصابة ١١٨/١ وابن سلام ص ٤٤٥ وفي

ذلك في عامة بلاد العرب^(١) . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب . فناظمها لا يعرف كما لا يعرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجّدوا بل إنه لا يعنيه أن يذكر أو يمجّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الحاطفة . وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدوره دون معاناة أو مكابدة ، ويرى به في سرعة كما يرى بسهمه أو يضرب بسيفه . غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة . وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم في حروب الفرس والروم أضيف إلى هذه الأشعار . وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملت كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لخيلة القُصّاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين . وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معرك ، مقصّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز . لأنه كان فعلاً الوزن الشعبي الذي يَسْتَظَم فيه عامة العرب .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصطبغون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القديح المعلّى في هذا الميدان ، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهديّ الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشرّكين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله ^(١) :

شهدتُ بأن وعد الله حقٌّ وأن النار مشوى الكافرينا
وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رُويت لهم أشعار تنمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صيرمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بدیعة ^(٢) :

ونعلم أن الله لا شيء غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا
وقول أبي الدرداء ^(٣) :

يريد المرء أن يؤتَى مُناه ويأبى الله إلا ما أَرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

(٢) الاستيعاب ص ٣٦٢ .

(٣) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

وتحوّل شعراء قريش منذ فتحت مكة ودخلوا في دين الله يكفّرون عما قدّمتم بأشعار ، يعتدرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزبعرى^(١) :

يا رسولَ الملِكِ إنّ لسانِي راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور^(٢)
 إذ أجارى الشيطان في سننِ الغةِ يٌ ومن مالٍ مَيْلُهُ مَثْبُورٌ^(٣)
 آمن اللحمُ والعظامُ بما قُذِّمَتْ فنفسي الفِداَ وأنتَ الذِّئْبُ
 وقد حَسُنَ إسلامهم ، ومضوا يصلدون عنه في أشعارهم ، حتّى إذا انتقل
 الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجّعون عليه ، على شاكلة قول
 أبي سفيان بن الحارث^(٤) :

لقد عظمتُ مُصِيتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَّةَ قَيْلٍ : قد قُبِضَ الرسولُ
 نبيُّ كان يَجْلُو الشكَّ عِنا بما يوحى إليه وما يقولُ
 وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادي وجدنا بينهم
 كثيرين يتقبسون من أضواء الإسلام ، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل
 الله فحسب ، فقد عمّ ذلك مَنْ ظَلُّوا في الجزيرة ولم يُتَبَّحْ لهم تقدم سنهم شرف
 الاشتراك في هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهورهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من
 الشهرة ، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عبدة بن الطبيب الذي تحدّثنا عنه
 في شعر الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه في شطر
 كبير منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبرِّ الوالد والحدَر من التَّمَام الذي يزرع
 الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول^(٥) :

أوصيكمُ بتقَى الإلهِ فإنّه يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ
 وبرِّ والدكم وطاعةِ أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوَعُ

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق : خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

واعصوا الذى يُزجى النّمايم بينكم متنصّحا ذاك السّيام المُنقَع^(١)
 يُزجى عقاربهُ ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق الأخدَع^(٢)
 وهو القاتل فى رثاء قيس بن عاصم^(٣) :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمته ما شاء أن يترحمها
 فلم يك قيسٌ هُلكهُ هلكَ واحدٍ ولكنه بنيان قوم تهدها

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد^(٤) بن
 أبى كاهل الشكرى فسرى المفضل الضبي يروى له قصيدة^(٥) يفخر فيها فخراً
 جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم به عليهم
 من نعيمٍ ، يقول :

كتب الرحمنُ والحمدُ له سعةُ الأخلاقِ فينا والصلعُ^(٦)
 وإباءُ للذّنِيّاتِ إذا أعطى المكثورُ ضيماً فكَنعُ^(٧)
 وبناءُ للمعالى إنما يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وضعُ
 نعمُ الله فينا ربّها وصنيعُ الله ، واللهُ صنعُ^(٨)

ويمضى فيعرض لخصم دنى النفس كان يراه يصفه وصفاً
 يستلهم فيه الآية الكريمة (ولا يَغْتَبِ بعضكم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل
 لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

-
- (١) يزجى : يدفع ويسوق . السيام : السم .
 المنقع : القاتل .
 (٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب
 أجابته العروق .
 (٣) الشعر والشعراء ٧٠٥/٢ .
 (٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٣٨٤/١٠
 والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٠٢ وابن
 سلام ص ٢٨ والإصابة ١٧٢/٣ والخزانة
 ٥٤٦/٢ وحديث الأربعاء لطف حسين
 (طبعة الحلبي) ١٩٠/١ .
 (٥) المفصليات ص ١٩٠ .
 (٦) الصلغ : الاضطلاع بالأمر .
 (٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .
 (٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لافعل ،
 أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابِنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌ وَدَاءٌ يُدْرَعُ^(١)
 وَيَحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعُ^(٢)
 وَمَنْ أَسْلَمَ وَهُوَ فِي سَنٍّ كَبِيرَةٍ الْخَصِيْنِ^(٣) بِنِ الْحُمَامِ سَيِّدِ بَنِي مِرَّةَ الذَّبْيَانِيْنَ ،
 وَلَهُ أَبْيَاتٌ تَطْرُدُ عَلَى هَذَا النِّحْوِ^(٤) :

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ لَبَسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا^(٥)
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَاكَ إِلَّا التَّقَى وَنَفْسٌ تَعَالَجُ آجَالَهَا
 أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَقَادِيرُ تَنْزُلُ أَنْزَالَهَا^(٦)
 أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمُخْزِيَا تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ أَعْمَالَهَا
 وَخَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِيْنَ وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى :
 (وَاتَّقُوا اللَّهَ) (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى
 يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ) (وإنْ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوله عَزَّ شَأْنُهُ : (إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ
 زِلْزَالًا) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما
 هاويةٌ وما أدراك ما هية نار حامية) (ووقيت كلُّ نفسٍ ما عملت وهو أعلم
 بما يفعلون) .

واقراً فى النَّصِيرِ^(٧) بِنِ تَوَلَّبَ ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علَّمت سنَّهم ،

-
- (١) وخم : غير مرى . يدرع : يلبس .
 (٢) رتع : أكل بنهم .
 (٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٠/٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب)
 ١٤/١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد
 الغابة ٢/٢٤ والإصابة ٢/١٨ والخزانة ٢/٧
 (٤) أغانى ١٤/١٤ ،
 (٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
 (٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع
 مواقعها .
 (٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧
 ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١/٢٦٨
 وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩/١٥٧
 والموشع ٧٨ والخزانة ١/١٥٢ والاستيعاب
 ص ٣٢٠ والإصابة ٦/٢٥٣ .

فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله ^(١) :

ومتى تُصَبِّكُ خَصَاصَةً فَارْجُ الْغِنَى وإلى الذي يُعْطَى الرِّغَابَ فَارْغِبْ
وهو القائل ^(٢) :

أَعِزَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصَرٍ وَعِجَّى ومن نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجَا
ومن حاجاتِ نَفْسِي فَاعْصِمْنِي فَإِنَّ لِمُضْمَرَاتِ النَّفْسِ حَاجَا ^(٣)
وَأَنْتَ وَلِيِّهَا فَبِرْتُ مِنْهَا إِلَيْكَ وَمَا قَضَيْتَ فَلَا خِلَاجَا ^(٤)
وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَنْشَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصِيدَةَ قَالَ فِيهَا ^(٥) :

لِللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ وَالشُّعْرَى وَآيَاتُ أُخْرَى
ومرتُ بِنَا اسْتِجَارَةُ الْمُخْبِلِ ^(٦) السَّعْدِيُّ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ هَاجَرَانِهِ
لِلْغَزْوِ وَكَيْفَ رَدَّهَ عَلَيْهِ ، ومن قوله في نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبي ^(٧) :

إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشَدُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّهُ الْإِثْمُ

وكان في الشَّهْمَاخِ ^(٨) شركثير ، وهو ممن شاركوا في معركة القادسية ومعارك
أذربيجان ، ومع ذلك لا نجد في ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده في سبيل الله ،
وكأنما عُنِيَ الرواة بشعره البدوي وإحسانه فيه لوصف القنوس وحمار الوخش ^(٩) ،
ومما يتمثل به من شعره ^(١٠) :

ليس بما ليس به بأسٌ بأش ولا يَضُرُّ الْبَرَّ مَا قَالَ النَّاسُ

-
- (١) الشعر والشعراء ٢٦٩/١ والأغاني ١٦١/١٩ .
(٢) الأغاني ١٦٢/١٩ والحيوان ٣٠٥/٢ .
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغاني ١٥٩/١٩ .
(٦) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٣٨٣/١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٩/١٣ والإصابة ٢١٨/٢ والخزانة ٥٣٦/٢ والموشح .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع في ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢٧٤/١ والأغاني (طبع دار الكتب) ١٥٨/٩ والخزانة ٥٢٦/١ والإصابة ٢١٠/٣ والموشح ص ٦٧ .
(٩) انظر ترجمته في المراجع السابقة وراجع الحيوان ٧٩/٥ .
(١٠) الشعر والشعراء ٢٧٧/١ وبأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا في الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جزء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرد^(١) بهجائه وخاصة للأضياف، ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء، كما يدل على ذلك قوله^(٢) :

تَنَزَّلْتُ مِنْ شَتَمِ الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مَنِي لَا يَنَادَى وَلِيَدَهَا
ومن شعراء هذيل البارعين في هذا العصر أبو ذؤيب^(٣) الهذلي، وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلاً من أبيات^(٤) :

كُفِيتَ لِمَصْرِعِهِ النُّجُومُ وَبَذَرَهَا وَتَزَعَزَعَتْ أَطَامُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلُّهَا وَنَخِيلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُقْدِحِ
وهو في ديوانه يُعْنَى بوصف النحل، مثله في ذلك مثل شعراء هذيل، وقد خرج يغزو في سبيل الله، ونراه في جنود عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفي له - قبل وفاته بعام - خمس بنين في وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس^٥ رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله^(٥) :

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِبْرَةٌ لَا تُقْلِعُ
فَقَبِّرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٌ نَاصِبٌ وَإِخَالٌ أَنَّى لَاحِقٌ مُسْتَتِيعٌ^(٦)

ومعاهد التنصيص ١٩٥/ ومعجم الأدباء
ليانوت (طبع مصر) ٨٣/١١ وشرح
شواهد المعنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجي)
ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦ .

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب
المصرية) ١/١ وما بعدها .

(٦) غبرت : بقيت . ناصب : متعب .
مستتيع : تابع .

(١) راجع في ترجمة مزرد الشعر والشعراء
٢٧٤/١ والخزانة ١١٧/٢ والإصابة ٨٥/٦
ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص
٢٠٢/١ .

(٢) الإصابة ٨٥/٦ .

(٣) انظر في ترجمته ابن سلام ص ١١٠
والشعر والشعراء ٦٣٥/٢ والأغاني ٢٦٤/٦
والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٦٣/٧
والخزانة ٢٠٣/١ وأسد الغابة ١٨٨/٥

وإذا النية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبته وإذا ترد إلى قليل تنفع
وروى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى
أبا عبيد^(١) :

أبا عبيد وقع الكتاب واقترب الوعيد والحساب
وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء برأ ورحمة بأهلهم وأقربائهم،
ويشتهر في هذا الصدد عمرو بن شأس الذي سبق أن عرضنا له في شعر الفتوح،
فقد كان له ابن من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها
بقطعة المعروفة^(٢) :

أردت عيراراً بالهوان ومن يرذ عيراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وكان ينحو هذا المنحى معن^(٣) بن أوس المزني في عتابه لابن عمه الذي
أساء إليه إساءة كبيرة، وظل يسيء إليه وهو يوالى أشعاره في صفحه عن
زلاته برأ به وبقرابته مع تجنيه عليه وتجرمه، يقول^(٤) :

وذى رحيم قلمت أظفار ضغني بهلمي عنه وهو ليس له حلم
فما زلت في لين له وتعطف عليه كما تحنو على الولد الأم
ومن غير شك كان يستهدى في ذلك آى الذكر الحكيم التي تدعو إلى
البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو^(٥) بن أحمر الباهلي فيتوجه
إلى ربه داعياً^(٦) :

-
- (١) أغاني ٢٧٩/٦ ومعجم الأدباء ٨٩/١١.
(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ٣٨٩/١.
(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) ٥٤/١٢ والإصابة ١٧٩/٦ والخزانة ٢٥٨/٣ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوقي ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره في ليبزج.
(٤) أغاني ٦٠/١٢ وديوانه (طبعة ليبزج)
(٥) ابن سلام قطة حكية يقول فيها :
والحي كالليت وبيق التقى
والعيش فنان فخلو ومسر
ص ٣٦٠، ٥.
(٥) راجع ترجمته في ابن سلام ص ٤٩٢
والشعر والشعراء ٣١٥/١ والإصابة ١١٤/٥
والخزانة ٣٨/٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والمرج
ص ٨٠.
(٦) الشعر والشعراء ٣١٦/١ وقد روى له
ابن سلام قطعة حكية يقول فيها :
والحي كالليت وبيق التقى
والعيش فنان فخلو ومسر

إليك إله الحق أرفع رغبتى عياداً وخوفاً أن تطيل ضلالي^(١)
 فإن كان بُرّاً فاجعل البرّ نعمةً وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضيا^(٢)
 ومن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل^(٣) بن حيرى فى مراثيه لأخيه
 مالك ، وكان قد قُتل بصيفيين ، ومن قوله فى إحداها^(٤) :

أناسٌ صالحون نشأت فيهم فأودوا بعد ألفٍ واتساقٍ
 أرى الدنيا ونحن نعيش فيها موليةً نهباً لانطلاق
 أعاذل قد بقيت بقاء قيس وما حى على الدنيا بباقي
 وكان بجانب من قد منا شعراء عرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب
 شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نسجه من حين إلى حين ، منهم
 عبس^(٥) بن الحساس ، وكان يتغزل غزلاً مفحشاً جعل قومه يقتلون له عهد
 عثمان ونراه يقول :

عميرة ودّع إن تجهزت غازيا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا
 ويروى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك
 مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشي^(٦) قيس بن عمرو ، الذى حدّثه على بن
 أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى
 رأسهم تميم بن أبى بن مقبل العجلاني ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادى أهل لؤم ودقة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل^(٧)
 قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خرذل

والشعراء ٣٦٩/١ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة
 ١٦٣/٣ والخزانة ٢٧١/١ وشرح شواهد المغنى
 ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .
 (٦) راجع فى ترجمة النجاشي الاشتقاق
 لابن دريد (نشرة الخانجي) ص ٤٠٠ والشعر
 والشعراء ٢٨٨/١ والإصابة ٢٦٣/٦ والخزانة
 ٣٦٨/٤ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح
 أن النجاشي يرميهم بأن أحباهم ثيمة خيسة .

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جمده
 من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥
 والشعر والشعراء ٦١٩/٢ والأغانى ٢٧٠/٩
 والإصابة ٢٦٨/٦ والخزانة ١٤٧/١ .

(٤) أمالى المرتضى ٢٢٦/٢ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحساس فى
 أغاني (ساسى) ٢/٢٠ وما بعدها والشعر

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجأهم بالبيت الثاني، فإن الإسلام يُجِلُّ الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. «كان ابن^(١) مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية»^(٢) ومع ذلك ندَّت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الخفيف من مثل قوله^(٣):

هل الدهرُ إلا تارتان فمئهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكذح
وكلتاها قد خُطَّ لى فى صحيفة فلا الموتُ أهوى لى ولا العيش أروح
وهو يصندر في البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن ننبئ أها) وما يروى له قوله^(٤):
الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
ومن يسلك في هؤلاء الشعراء الذى عرفوا برقة دينهم الحطية، وسرى عما قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عربياً ومشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية^(٥)، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعدُّون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير وليبد والحطية والنابعة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل في وضوح على أن هذا التأثير لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سنرى عند لبید والنابعة الجعدى.

-
- | | |
|---|--|
| (١) راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء | (٣) الحيوان للجاحظ ٤٨/٣ . |
| ١٢٤/١ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة | (٤) طبرى ٢٩/٥ . |
| ١٩٥/١ والخزانة ١١٣/١ وزهر الآداب | (٥) راجع مثلاً تاريخ الآداب العربية من |
| ١٩/١ . | الجاهلية حتى عصر بني أمية لآلينو (طبع |
| (٢) ابن سلام ص ١٢٥ . | دار المعارف) ص ٩٥ . |

حسان^(١) بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي « من سادة قومه وأشرفهم » ، وكانت أمه « الفريرة » خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله^(٢) . وهو يُسَلِّك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين أخرى ، وهي سن^٣ تقريبيه ، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين . وهو ليس خزرجياً فحسب ، بل هو أيضاً من بني النجار أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فله به صلة قرابة ورحم .

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة ، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر ؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نشبت بينهم وبين الأوس في الجاهلية ، ومن ثمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين : قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت^(٣) . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وفدَّاه عليه الأعشى ، فأثار موجدته^(٤) .

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فيدخل حسان في الإسلام ، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه ، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل : « اللهم أيدّه بروح القدس » واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال : « لهذا أشدُّ عليهم من

المغنى ص ١١٤ والخزانة ١٠٨/١ . وقد طبع ديوانه ، طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوق وفي تونس والهند وبيروت ، وسنعمد على المراجعة على طبعة ليدن .

(٢) انظرها في ابن سعد ٢٧١/٨ .

(٣) انظر أغاني (دار الكتب) ١٢/٣

والديوان ص ٥٢ وفي مواضع متفرقة .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

(١) انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) ١٣٤/٤ وما بعدها و ٢٧/١١ و ١٤٠/١٥٧ و (طبعة الساسي) ١٢/١٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٦٤/١ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٢٥/٤ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٨/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) ١١٥/٢ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد

وقع النَّبْلُ » ، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشنى واشتفى » . ومرَّ بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها ويعيّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبعى لأنهم كانوا مشركين فعلاً ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهنّجهم وجبريل معك » (١) .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وزراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثِي مِنْ لَحْمِ الْغَوَافِلِ (٢)
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قَبِلَ عَنِّي قَلْتُهُ فَلَا رَفْعَ سَوْطِي إِلَى أَنَا مِلِي

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطل أثاروه في هذا الحادث ، حتى وجد وجدّاً شديداً ، فقال :

أَمْسَى الْجَلَابِيبُ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا وَابْنُ الْفَرِيعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ (٣)
على أنه مضى في نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر في ذبّه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد ، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بميزة رفيعة ، حتى ليروى أنه كان يرفع أزواجه إلى أطعمه . حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يتقسم له في الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

(١) انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته

في كتب الصحابة والأغاني ١٣٧/٤ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار .

تزن : تهتم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تقتاد

النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استعصاراً

لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفي المثل هو أذل

من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يحلّونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عميَ بأخرة .

وبحق سُميَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصمّية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرتى حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبِرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلاً إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزُّبْرَقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً ، يقول في تضاعيفه :

إِنْ الذَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بِهَا كُلٌّ مِنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَذْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
أَهْدَى لَهُمْ وَبَاحَى قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : « تُنسب إليه أشياء لاتصح عنه » (٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاطت) قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقى » (٤) . وكان ممن حَمَلَ عليه غُثاء كثيراً ابنُ إسحق في المغازي ، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يروى عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب نلان السخبر إذا غدر .
(٢) الذوائب : الأعالي في الشرف . فهر :
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عند ابن إسحق فكانوا يُشبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردُّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتاً في رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليعلم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهل العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »^(١) ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك^(٢) ونسب ثالثة إلى عبد الله^(٣) بن الحارث السهمي ورابعة إلى معقل^(٤) بن خويلد الهذلي وخامسة إلى ربيعة بن أمية اللدلي وقيل بل هي لأبي أسامة الجشمي^(٥) . ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن^(٦) . وإذا مضينا نبحث في مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهي في رثاء نافع بن بديل^(٧) ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهي في رثاء عثمان^(٨) ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ، ونصّ الرواة على أنها لصيرمة^(٩) بن أبي أنس الأنصاري ، ونُسب له بيتان في الفخر بالأزد وهما لسعد^(١٠) بن الحصين الأنصاري ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهي لبشير^(١١) بن سعد بن الحصين . ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ، وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجاء قريش ،

(٦) السيرة النبوية ١٩٩/٤ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ١٠٨/٣ حيث تشكك المحقق في مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص ٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ١٩٨/٣ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص ٢١-٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص ٤٠ وقارن بالأغاني (طبع الساسي) ١٢٠/١٤ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢-٤٣ وقارن بالأغاني ١٢٠/١٤ .

(١) انظر ابن هشام في مقطوعة عينية ٥٦/٣ وفي قصيدة عينية ١٤٩/٣ وما بعدها وقابل بالديوان ص ٧٦ وهي في رثاء حمزة ، وانظر حائية في رثاء حمزة ١٥٩/٣ ومقطوعتين في رثاء خبيب ١٨٦/٣ وقابل بالديوان ص ٨٤ ، ٤٦ وكذلك مقطوعة يائية في ١٩٢/٣ وقابل بالديوان ص ٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية في عمرو بن ود في ٢٨١/٣ وقابل بالديوان ص ٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٣ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣٦٢/٣ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٢٠/٣ والديوان ص ٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٨١/٣ والديوان ص ٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٢٨٢/٣ والديوان ٥١ .

وأما عبد الرحمن فعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذمّاً قبيحاً^(١) . ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمِلَ عليه^(٢) . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون^(٣) ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان في صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرهم حين كان أبوسفیان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير^(٤) بن العوام وعبد الله^(٥) بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً في وضع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كثّرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ، لا لأن شعره لأن وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة^(٦) ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ولاميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بِيضُ الْوَجْهِ كَرِيْمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

أما هجائه لقريش فينبغى أن نُبْعِدَ منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ، ومن ثم كنا نرتضى ميميته (تَبَلَّكَتْ فَوَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيْدَةٌ) التي يعيّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره في يوم

عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه

أشعار في هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر

الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٣٠ .

(٦) انظر الأغاني (ساسى) ١٤ / ١٢٥ - ١٢٧ .

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان في هجاء بنى الحماس الحارثيين

قوم النجاشى ص ٨١ ، ٤٧ وكذلك انظر مقطوعة

رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٤٩٢

حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه في رثاء

بلدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النوم بالعيشاء الموم) التي يهجو فيها ابن الزبعرى ويفتخر بقومه فخر أعنيفاً ، ومن مخطهما لاميته (أهاجك بالسيداء رسم المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التي وجهها إلى أبي سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام^(١) ، ومثلها مقطوعته الدالية التي يستهلها بقوله :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم واللدك العبد^(٢)
ومقطوعته الميمية التي يقول فيها :

لعمرك إن إلك من قريش كال السقب من رأل النعام^(٣)
وأيضاً نحن ثبت له قصيدته الحمزية التي يقول فيها لأبي سفيان بن الحارث :
هجوت محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبه مشبهاً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم في الجاهلية ، وجزء نظم في الإسلام^(٤) ، وهو يمضي في الجزء الثاني متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط في هذا الجزء لمعانى الجاهلية بالمعانى الإسلامية إذ يعرض لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه : من مثل قوله :

وجبريلُ أمينُ الله فينا وروحُ القدس ليس له كفاء^(٥)
وقد تبرز المعانى الإسلامية في بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعبرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتبعه حتى الممات ونصُرُ غير محدود
مستعصمين بحبلٍ غير مُنْجدم مُستحکم من حبالِ الله ممدود^(٦)

الإل : القرابة .

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومي .

(٣) كفاء : كفء ونظير . وهي أم عبد الله وأبي طالب والزيير بن عبد المطلب .

(٤) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . (٥) منجدم : منقطع .

(٤) انظر الاستيباب ص ١٢٩ .

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجدم : منقطع .

وهو يشير في البيت الثاني إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .
وله مرث في الرسول الكريم تتضح فيها المعاني الإسلامية اتصاحاً على نحو
ما يلقانا في مرثيته التي رواها أبو زيد الأنصاري والتي يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقد
وقد مرّت بنا في الفصل السابق مرثيته البديعة لأبي بكر الصديق ، ومن
قوله في عمر حين توفّي على إثر طعنة فيروز المجوسى :

فَجَعْنَا فَيْرُوزُ لَا دَرَّ دَرُّهُ بِأَبْيَضٍ يَتْلُو الْمُحْكَمَاتِ مَنِيبٌ^(١)
وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين
الحنيف وهدية الكريم .

٣

كعب^(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبي سُلمى من فحول الشعر في الجاهلية . وهما من قبيلة
مزينة ، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أحواله
بنى مُرَّةَ الدُّبَّانِيِّينَ . وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بُجَيَّرِ
ومثل الحُطَيْثَةِ . ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه
من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى
تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء ،
فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُحيزه^(٣) تمريناً له وتدريباً على صوغ

والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٢٤٠/٤
والإصابة ٣٠٢/٥ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٢٣٠ والخزانة ٣٧٥/١ ، ١١/٤ .
وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .
(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٤١/١٥ وأمالى
المرتضى (طبع الحلبي) ٩٧/١ .

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو
عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات
الذكر الحكيم . وكفى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .
(٢) راجع في ترجمة كعب طبقات فحول
الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ٨٦/١ وأغاني (طبعة الساسي)
١٤٠/١٥ وابن هشام ١٤٤/٤ وما بعدها

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الخطيئة ، يدلُّ على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الخطيئة قال له : « قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرة وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع »^(١) ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها :

فَمَنْ لِلْقَوافي شَانِهَا مِنْ يَحْكُوهَا إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفُوزٌ جَرَوْلُ^(٢)
ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والخطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بجَيْرٍ ، وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله^(٣) :

أَلَا أَبْلَغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيهَا قُلْتُ وَيَحْكُ-هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأَسَأَ رَوِيَّةً فَأَنهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ^(٤)
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء - ويَبَ غيرك - ذَلَّكَ^(٥)
على خُلَّتِي لَمْ تُلَفِ أُمًّا وَلَا أَبًّا عليه ولم تدرك عليه أَخًا لَكَ
ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بجَيْرٍ فيما أجابه به بقوله^(٦) :

مَنْ مَبْلَغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعَزَى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلِمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَقْلُتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ
وما زال كعب على وثنيته حتى فُتِحَتْ مَكَّةُ وانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل كل من

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغاني (طبع

دار الكتب) ١٦٥/٢ .

(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول :

الخطيئة .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغاني (سأسي)

١٤٢/١٥ والسيرة ١٤٤/٤ والاستيعاب

ص ٢٢٦ .

(٤) المأْمُون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر .

النَّهْل : الشرب الأول . اللَّمل : الشرب الثاني .

(٥) وَيَبَ غيرك : هلكت هلاك غيرك ،

وويب بالنصب على إضمار فعل .

(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ١٤٥/٤ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يَقدِّم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلَّم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلِّم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام ، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فحسَّر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله ! أنا كعب بن زهير . فتجهَّمت الأنصار وغلَّظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسلم ويؤمَّنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرَّه رسول الله »^(١) ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول^(٢)

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم بُردة اشترأها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين^(٣) . وقد اكتسى بها كعب حُلَّةً مجد لا تبلى ، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يستلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتن عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده^(٤) :

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلِّقا^(٥)

وُيلح في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالحر ، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة ، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبتة لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهاً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصور خوفه وفزعه من رسول الله :

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١٠٦

والإصابة ٣٠٢/٥ .

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٣٣ .

(٥) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء

١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤ .

(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة

دار الكتب المصرية) ص ٦ . ومتبول : مغرم .

وبانت : فارقت . ومكبول : مقيد .

وقلت خلّوا طريقي - لا أبا لكم -
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
أنبئت أن رسول الله أوعدني
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذنني بأقوال الوشاة ولم
إن الرسول لنور يُستضاء به
في غضبة من قريش قال قائلهم
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
ومضى يمدح المهاجرين حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم
يعرض بالأنصار لغلظهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزَلْ
البادلين نفوسهم لنبيهم
يتطهرون - كأنه نُسك لهم -
صلعوا علياً يوم بدرِ صدمةً

ضرب إذا عرَدَ السود التنابيل^(٤)
يعرض بالأنصار لغلظهم - كانت عليه - فأنكرت قريش ما قال ،
وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يقبلوا منه ذلك حتى قال يذكر الأنصار :

في مقنّب من صالحى الأنصار^(٥)
يوم الهياج وسطوة الجبار
بدماء من علقوا من الكفار^(٦)
دانت لوقعتها جميع نزار^(٧)

عن صحيحه ومن يستغيث به .
(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن .
التنابيل : القصار .
(٥) المقنّب : جماعة الخيل والفرسان .
(٦) علقوا : قتلوا .
(٧) يريد بعل بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند
وهو خير السيوف .
(٢) زولوا : هاجروا .
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف .
الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف
في القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان .
معاذيل : جمع معزال : وهو الذى يتعزل في الحرب

ورثوا السيادة كابراً عن كابرٍ إن الكرام هم بنو الأخيار
وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدى
فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجبنى سَعَى الفتي وهو مخبوءٌ له القَدْرُ
يسعى الفتي لأُمورٍ ليس يُذكرها والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشرٌ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ
ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم
الذى يَفْضُلُ عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أعلمُ أنى متى ما يأتنى قَدَرى فليس يَخْبِسُهُ شُحٌّ ولا شَفَقُ^(١)
والمرءُ والمال يَنْمى ثم يُذْهِبُهُ مَرُّ الدهورِ ويُفْنِيهِ فَيَنْسَحِقُ
فلا نخافُ علينا الفقرَ وانتظري فَضْلَ الذى بالغنى من عنده نَشِقُ
إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا وَمَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق
وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر
الشخص منهم فى رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر .
وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر
مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأقسمتُ بالرحمن لا شيءَ غيره يمينَ امرئٍ بَرٌّ ولا أَتَحَلُّ^(٢)
لأستشعرنُ أعلى دَرِيَسَى مسلماً لوجه الذى يُحْيى الأنامَ ويقتلُ^(٣)
هو الحافظُ الوَسنانَ بالليل مَيَّتا على أنه حَيٌّ من النومِ مُثَقِّلُ^(٤)
من الأسودِ السارى وإن كان ثائرا على حَدِّ نابيه السَّامُ المُثَمِّلُ^(٥)

(٤) الوسنان : النائم .

(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير
لبلا . الثائم : الطالب بشار . المثل : المجمع

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أتحلل : لا أستنى .

(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن

حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

وهي تنمّ عن ولائه لدينه الخفيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذي يكلاً عباده و يقيهم الأذى ، ولعلّ في ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام في نفسه وفي شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره في إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً في شعره الجاهلي مفاخراً متوعداً مههدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى نراه في الهجاء نفسه يعلن ل حاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائفاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول (١) :

إن كنت لا ترهب ذمّي لما تعرف من صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذ أنا منصتُ فيك لمسموع خنا القائل
فالسامع الدائم شريك له ومطعمُ المأكول كالأكل
مقالةُ السوء إلى أهلها أسرع من مُنحدرِ سائل
ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل
ولا تهيج إن كنت ذا إربةٍ حرباً أخى التجربة العاقل (٢)
فإنّ ذا العقل إذا هجته هجّت به ذا خبلٍ خابل

فهو ينهـاء أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول . حتى لا ينجي على نفسه ما هو أفسح أثراً وأبقى وسمّاً . ويقول إن الذين يسيطون السنّهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاء أقذع وأمرّ ، هجاء بالحق وبالباطل . وهو في ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التقريع لمن يهجوّه بدلاً من الطعن في الأعراض سنّهم القديمة .

(٢) الإربة : الدهاء .

(١) الخزّانة ١٢/٤ والاستيعاب ص ٢٢٧

والحيوان ١٥/١ .

لبيد^(١)

من عشيرة ذات سيادة وشرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوهريرة وأعمامه الطُفَيْل وأبو براء ومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً . ومن ثمَّ لُقِّبَ : « ربيع المُقْتَرين » وقد قتله بنو أسد في بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأُسَنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقَّب بمعوذ الحكماء . وأم لبيد تامرة بنت زنياع العبَّسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها . وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها وفاداتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حَدَثاً ، فهم يروون أن وفدًا من قومه على رأسه عمه أبو براء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفدًا من بني عَبَّس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبَّسين وبني عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز

والمعمر بن ص ٦٠ والخزانة ١/٣٣٤ وقد طبع الخالدي جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعته في ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة ١٩٦٢ .

(١) انظر في ترجمة لبيد ابن سلام ص ١١٣ والشعر والشعراء ١/٢٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦١ وطبعة السامى ١٥/١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦/٢٠ وأسد الغابة ٤/٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأما المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٨٩ والاستيعاب ص ٢٣٥ والإصابة ٤/٤

مقدع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين . وسواء
أصح هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه
في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتبه في أول
الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَّتِ الدِّيار محلُّها فقامها » أخذ يظهره .
وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول في المدينة ورسالته
النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه ^(١) ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم
يُعلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم في دين الله . وكان ابن عمه
عامر بن الطفيل وأخوه أربد وقد ا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه
الله . ودعا عنهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله ، أما
أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء
حاراً .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار
ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خَطَّ عمر الكوفة فترها وأقام بها إلى أن توفاه
الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه
حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً ، ويصورون ذلك فيقولون إن عمر
أرسل إلى المغيرة بن شُعْبَةَ واليه على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء
مصر ما قالوا في الإسلام . فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة
في صحيفة ، ثم أتاه بها . وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ،
فكتب المغيرة بذلك إلى عمر ، فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين .
ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه ^(٢) ،
فن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتني أجـلي حتى كساني من الإسلام سرُّ بالـا

(طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦٩ وانظر الاستيعاب
ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

(١) أغاني (طبعة السامي) ١٥/١٣١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغاني

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والماءُ يُصلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً .

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضي مفاخرأ فخرأ عنيماً بآبائه وفتوته معتدأ اعتدادأ لا حدأ له بالآقربين من أسرته ، ومن ثم وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلانة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطبة الغزاري^(١) وأقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخرأ بقومه وشجاعتهم وبلاؤهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشّمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطلع الجائع المحروم . وكثيرأ ما يهجم في قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع في معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الطاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعها . وخرج من ذلك إلى تشبيهها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم بجوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه ، ويفخر بقومه وكثرة ساداتهم وما سنّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنّا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل منا لِرِازُ عَظيمةٍ جَشَّامُها^(٢)
ومقسَّمٌ يُعطى العشيرة حَقَّها ومُعَذِّرٌ لحقوقها هَضَامُها^(٣)
فَضلاً ، وذو كرمٍ يُعين على النَّدَى سَمَحٌ كسوبٌ رَغائبٍ غَنَامُها

(٣) مغذّر : لا يعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

(١) أغاني (ساسي) ٥٢/١٥ .

(٢) الرِاز : الملازم للشئ* ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

من مَعْشَرٍ سَنَتْ لَهُمُ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
فَبَنُوا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ فَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَّائِقُ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره
ووصف راحلته وتشبيهها بالأثنان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ،
وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه ،
حتى ليس قارنه شئ من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيتها .
واقراء ما لم نرّوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً فى
ألفاظ متناهية فى الإغراب ، ومن ثمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال :
إنه رحي بَزْرٍ^(١) ، يريد أنه خشن لا يحسن فى السمع ، وقال الأصمعى ، شعر
ليبد كأنه طيلسان طبرانى أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم
تهذب من لفظه وتدخل عليه غير قليل من الطلاوة ، ومن ثمّ يقول فيه ابن
سلاّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق »
ويتضح ذلك فى مراثيه المشهورة لأخيه أربد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى
معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك
والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة
قوله^(٢) :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَّى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَّى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ^(٣)
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ فِتَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا ، وَغَدَوْا بِلَاقِعُ^(٤)

(٤) بلاع : جمع بلقع وهو الأرض القفر .
وغدوا : غدا .

(١) الموشح للمزباني ص ٧١ .

(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .

(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوؤه يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطع^(١)
وما البرُّ إلا مُضمراتٌ من التَّقَى وما المال إلا عارياتٌ ودائعُ
وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ
الخوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام في ضميره . فاتجه في
أشعاره إلى ربه منيباً إليه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ،
يقول في قصيدة له^(٢) :

إنما يحفظ التَّقَى الأبرارُ وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله ترجعون وعند الله هـ ورُدُّ الأمور والإصدارُ
كلُّ شئٍ أحصى كتاباً وعِلماً ولديه تجلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُنْ ظُرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ^(٣)
عشتُ دهرًا ولا يدوم على الأيّ ام إلا يرمرمُ وتعارُ^(٤)

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس
معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحصى كل شئٍ في كتاب وأن الموت
حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره . ويمضى في
طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية خوفاً
من الموت ويوم الحساب ، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا
ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى في لاميته التى تؤمن بأنه نظمها
في الإسلام ، وفيها يقول^(٥) :

ألا كلُّ شئٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دويهيَّةٌ تصفرُّ منها الأناملُ^(٦)

(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء

٢٣٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .

(٦) يريد بالدويمية الموت .

(١) يحور : يصير .

(٢) ديوان لبید ص ٤١ والحيوان ١٦٣/٧

(٣) الإنظار : التأخير .

(٤) يرمرم وتعار : جبالن في نجد .

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلُّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّكَ ذو الجلال والإكرام) ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقة الموت) أما البيت الثالث فاستمدَّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور) . واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه^(١) وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم ، ومن ثمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرِّسِّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله^(٢) :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضلِ وله العلا وأثيْتُ كلُّ مؤثِّل^(٣)
لا يستطيع النَّاسُ مَحْوَ كتابِهِ أنَّى وليس قضاؤه بمبدِّل
وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّلَ عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) (وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورًا) (وإذا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) . ويمضي ليبد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العمالق ولقمان ونسره وأبرهه وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان . ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته^(٤) :

مَنْ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْهِ إِضْبَعًا بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ بَأَى أَوْلَعًا^(٥)
يَمْلَأُ لَهُ مِنْهُ ذُنُوبًا مُتْرَعًا وَقَدْ أَبَادَ إِرْمًا وَتُبْعًا^(٦)
والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثرت في نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسبُ إليه منها يدل على أن

(٤) الديوان ص ٣٣٧ .

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .

(٥) الإصبع : الأثر الحسن .

(٢) الديوان ص ٢٧١ .

(٦) ذنوباً مترعاً : دلواً علواً .

(٣) أثيْتُ : موطأً عظيم . مؤثِّل : مؤصل ،

ويوصف به الملك والمجد .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه ، ففضى يحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها^(١) :

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرُ نَفْلٍ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٍ^(٢)
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مِنْ هِدَاةِ سُبُلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمِنْ شَاءَ أَضَلْ
فَاكْذَبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُزْرَى بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبَنَّهَا فِي التَّقَى وَاخْزُهَا بِالْبِرِّ ، اللَّهُ الْأَجَلُ^(٣)

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربيد وبيكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغباً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الخطيئة^(٤)

اسمه جرّول ، ولُقّب بالخطيئة لقصره أولدامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضراء ، كانت لأوس بن مالك العبّسي . ونشأ في حجره مغموزاً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون ، ولم يكن فيه

والأغانى (طبع دار الكتب) ١٥٧/٢ والإصابة

٦٣/٢ والخزافة ٤٠٨/١ وحديث الأرباء

لطة حسين (طبعة الحلبي) ١٥٣/١ وما بعدها.

ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جولد تسهر

والشتنقيطى ، وكذلك نشره ندان أمين طه بمطبعة

الحلبي ، ومنعتهما نشره

(١) الشعر والشعراء ٢٣٨/١ والديوان

ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .

(٣) اخزها : سبها واقهرها .

(٤) انظر في ترجمة الخطيئة ابن سلام

ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢٨٠/١

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه في « عيس » على نحو ما صنع
عنترة من قبله . ومن ثمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب
في غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سُلمى يعلمه إحكام
صنعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الخطيئة كان يروى
شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوّه به ، حتى يدور على الألسنة
ذكره . ومعنى ذلك أن الخطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله
وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنى بالمعاني ودقها .

ويضنيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة
هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة
كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفى الرسول الكريم . ونراه
يسارع إلى الردّة ، مُعينا بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى
ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرةً ، إذا مات ، بعده فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره^(١) . وقد عاد مع المرتدين
إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي : « كان الخطيئة
جشعاً سؤولاً ملحفاً دنىء النفس . كثير البشر ، قليل الخير . بخيلاً ، قبيح المنظر ،
رثاً الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من
عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره »^(٢) . وقد يكون الأصمعي بالغ
في نعتة بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في
الجاهلية من أمثال عُبَيْسَةَ بنِ حِصْنِ الفزاري وزيد الخيل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبري ٤٧٧/٢ حيث نسب البيتين إلى أخيه (٢) أغاني (دار الكتب) ١٦٣/٢ .
الخطيب وقارته بالديوان ص ٣٢٩ والأغاني ١٥٧/٢ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل^(١) . وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعة ، فقد كان الأعشى وليبد يقفان في صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يؤم المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّته على داره حيث زوجته وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة - إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان - حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الخطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق يشتي عليهم ثناء راعياً معرضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا واقْعُدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٢)
ورَقَّعَ الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الخطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شَجَرٌ^(٣)
أَلْقَيْتَ كَامِسَهُمْ فِي قَعَرٍ مُظْلِمَةٍ ، فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
ولأن له قلب عمر ، ففعا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم^(٤) .

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزبرقان وجدناه لا يُقْنَعُ في هجائه ، إنما يمسّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفّف من حدة لسانه ، ونراه يصرّح بذلك إذ يقول^(٥) :

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .
(٢) يريد المطعوم المكسو .
(٣) ذورخ : واد بالحجاز . الأفراخ :
سفار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل :
لم يثبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ،
كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .
(٤) انظر في القصة الأغاني ٢/ ١٧٩ وما بعدها .
(٥) الديوان ص ٩٨ .

ولما أن مدحتُ القومَ قلمَ هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ
ألم أك مسلماً فيكون بنى وبينكمُ المودَّةُ والإخاءُ
ولم أشتمُ لكم حسبا ولكن حَدوثُ بحيثُ يُستَمعُ الحُداءُ

فهو يذكّر حرمة الإسلام ، ويتذمّر بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمّاً لهم وهجاء ، لمدحه خصوصهم . ونراه يولّي وجهه نحو علقمة بن عُلانة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجزل له ابنه في العطاء . ويتجه نحو العراق في عهد عثمان ، فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُمِلت عليه أبيات في ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية ، كما يمدحه في ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ - ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمظنون أنه توفّي في ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعنى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أثار عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولى المحكك » فهو ممن كان يتأذّنون في شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطعات ، ونراه في مطولاته يشبّب ويصف الصحراء وحيواناتها الوحشي والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها . وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُدُّ
أولئك قومٌ إن بنّوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدُوا شدوا

وكانوا يعمّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنبُ غيرهمُ ومن يُسوّى بأنف الناقة الذنبا

حتى أصبح القلب فخراً لهم . وتُرَوَّى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي
ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لى وجها شوه الله خلقه ففُبح من وجهه وقُبِحَ حامله
أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ،
وبقصيدته « وطاوى ثلاث »^(١) وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف ، وعياله
من حوله يتضورون جوعاً ، فهم أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عشت له أتان
وحشية ، فصاها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم
العربية .

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا في
اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره في
الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه في مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه
على ما يقدم له من برة على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ اللهُ خيراً من أخى ثقةً وَلِيَهْدِهِ بِهْدَى الخيرات هاديتها
وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله :

الحمد لله إني في جوار فتى حامى الحقيقة نفاعٍ وضرارٍ
وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت
الخطيئة^(٢) :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
ولعل في ذلك ما يدل على أنه حسن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على
ذلك قوله في وصف التقي والعمل الصالح^(٣) :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للاتقى مزيد

(٣) أغاني ١٧٥/٢ والديوان ص ٣٩٣ .

(١) الديوان ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٧٣/٢ .

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هي في الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذي لا يُنال إلا بالتقوى ، فهي السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الخطيئة ، بل أخذ يُرسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النابة^(١) الجعدى

هو عبدالله^(٢) بن قيس من بنى جَعْدَةَ العامريين ، ولد بالفَاسْج جنوبى نجد ، ولما شَبَّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّي النابة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام .

والنابة الجعدى في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسد الذين قتلوا أخاه في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبّنه فيها بقوله^(٣) :

فَتَى كَمَلْتُ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوُّ الْأَعَادِيَا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخمين في الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنة إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

(١) انظر في ترجمة النابة : الشعر والشعراء ٢٤٧/١ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١/٥ وما بعدها وأسد الغابة ٢/٥ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٢١٨/٦ وأمال المرتضى ١/٢٦٣ والممرين ص ٦٤ والخزانة ٥١٢/١ والموشع ص ٦٤ . وقد جمعت ماريّا

تالينو أشعاره ونشرتها في روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله

ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس

(٣) الشعر والشعراء ٢٥٢/١ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُودُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة : و إعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لَا يَفْقُضُ اللهَ فَاك (١) .

وَيُظَنُّ أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ، بَلْ أَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ مَهَاجِرًا ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الْفَتْوحُ خَرَجَ مَعَ الْعَرَبِ مِيَمًا نَحْوَ الشَّرْقِ وَالْقُرْسُ مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَشَّرَ الدَّعْوَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ . وَقَدْ أَخَذَ يَضِيفُ إِلَى رَائِعَتِهِ الَّتِي أَشْهَدَهَا الرَّسُولُ أَيْبَاتًا كَثِيرَةً ، تَصُورُ حَيَاتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءَهُ رِضْوَانَ اللَّهِ بِجِهَادِهِ وَتَقْوَاهُ جَمِيعًا يَقُولُ (٢) :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا (٣)
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَالَحَ ثُمْتُ غَوْرًا (٤)
أَقِمِ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِي بِفِعْلِهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَوْجَرًا (٥)

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصيفيين ، يَرَجُزُ بِمَحْصُومِهِ وَيَنْظُمُ الْأَشْعَارَ فِي مَدِيحِهِ وَهَمْجَاءِ مَعَاوِيَةَ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٦) :

قَدْ عَلِمَ الْمِصْرَانِ وَالْعِرَاقُ أَنَّ عَلِيًّا فَخْلُهَا الْعَتَاقُ (٧)
إِنَّ الْأُتَى جَارُوكَ لَا أَفَاقُوا لَهُمْ سِيَاقُ وَلَكُمُ سِيَاقُ
قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَمُ الرِّفَاقُ سَقَمْتُ إِلَى نَهْجِ الْهُدَى وَسَاقُوا
إِلَى الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرَاقُ فِي مِلَّةٍ عَادَتْهَا النُّفَاقُ (٨)

(٥) أوجر : خائف .

(٦) أغاني ٣١/٥ والديوان ص ١٣٣ .

(٧) المصران : الكوفة والبصرة . العتاق : الكريم .

(٨) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غابة .

(١) أغاني ٨/٥

(٢) أغاني ٩/٥ والديوان ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) الهجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر

ضوؤها فيرى كأنه بقعة بيضاء .

(٤) غور النجم : غاب .

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية .
وَيُرَوَّى أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ عَلَى وَتَحَوَّلَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مُرْوَانَ عَامِلِهِ عَلَى
الْمَدِينَةِ أَنْ يَأْخُذَ أَهْلَهُ وَأَمْوَالَهُ ، فَاسْتَعْطَفَهُ بِأَبْيَاتِ الْأَنْتِ قَلْبَهُ فَعَفَا عَنْهُ .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حَتَّى لَيْسَ يُضْطَرَّ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ
وَالِىَ الْبَصْرَةَ لِعَمْرٍ أَنْ يَضْرِبَهُ أَسْوَاطاً ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ
الْجَاهِلِيَّةِ . وَلَا نَشْكُ فِي أَنَّ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِيهِ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى الْإِصْطِدَامِ بِأَوْسِ
ابْنِ مَعْرَاءَ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ إِنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَيْهِ فِي الشَّعْرِ وَلَا قَرِيباً .
وَنَزَلَ مَعَ قَوْمِهِ بِأَصْهَبَانَ ، وَهَنَّاكَ نَرَاهُ يَهَاجِي مَعَ سَوَّارَ بْنِ أَوْفَى الْقَشِيرِيِّ ،
وَتَتَصَدَّى لَهُ زَوْجُهُ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةِ ، وَيَغْلِبَانُ عَلَيْهِ جَمِيعاً . وَهَمَّا أَيْضاً لَمْ يَكُونَا
إِلَيْهِ فِي الشَّعْرِ ، وَرَبَّمَا كَانَ لَتَتَمَعَّقَ الْإِسْلَامُ فِي نَفْسِهِ أَثَرٌ فِي تِلْكَ الْهَزَائِمِ ،
إِذْ كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنَ الْمَضَى فِي الْمَجَاءِ الْمَقْدَحِ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ إِنَّ الْأَخْطَلَ
هَجَاهُ بِأَخْرَةٍ . وَلَمَّا دَعَا ابْنُ الزُّبَيْرِ لِنَفْسِهِ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَدِمَ
عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ وَمَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ يَقُولُ فِيهَا (١) :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلَيْتَنَا وَعُمَانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتَاخَ مَعْدُمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَدْلِ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالُكَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ

وَأُثَابَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثَوَاباً جَزِيلاً . وَعَادَ إِلَى أَصْهَبَانَ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ
تَوَفَّى بِهَا عَنْ سِنٍ عَالِيَةٍ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِينَ . وَهُوَ بِلَا شَكٍّ مِنَ الْمَعْمَرِينَ ، غَيْرَ أَنَّ
الرِّوَاةَ بِالْغَوَا فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالُوا إِنَّهُ أَقْدَمَ مِنَ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي وَأَنَّهُ عُمَرُ مِائَةِ وَثَمَانِينَ
سَنَةً بَلْ تَزِيدُ ، مُسْتَشْهِدِينَ بِمَا أَضْيَفَ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٢) :

تَذَكَّرْتُ شَيْئاً قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ وَمِنْ عَادَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذَرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرَا
وَالْمُنْذَرُ بْنُ مُحَرَّقٍ هُوَ الْمُنْذَرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي قُتِلَ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ مَعَ
الْغَسَّاسَةِ سَنَةِ ٥٥٦ لِلْمِيلَادِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مُصْنُوعٌ عَلَيْهِ .

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آتاء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبّر في غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله^(١) :

مَنَعَ الْغَدَرَ فَلَمْ أَهْمُمْ بِهِ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هُمْ فَعَلَ
خَشْيَةُ اللَّهِ وَأَنْتَى رَجُلٌ إِنَّمَا ذِكْرِي كَنَارٍ بِقَبْلِ^(٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول^(٣) :

عُمِرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى وَقَوَارِعُ تَتَلَّى مِنَ الْقُرْآنِ
وَلَيْسَتْ مِلَّ الْإِسْلَامِ ثَوْباً وَاسِعاً مِنْ سَيْبٍ لَا حَرِمٍ وَلَا مَتَّانٍ^(٤)
وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياناً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهي تطرّد على هذا النمط^(٥) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسُهُ ظَلَمًا
الْمَوْلُجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ لِي نَهَارًا يُفَرِّجُ الظُّلُمَا
الْخَافِضُ الرَّافِعِ السَّمَاءَ عَلَى الْإِلَهِ أَرْضٍ وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعْمًا^(٦)
الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ فِي الْإِلَهِ أَرْحَامٍ مَاءٍ حَتَّى يَصِيرَ دَمًا
مِنْ نُطْفَةٍ قَدَّهَا مَقْدَرُهَا يَخْلُقُ مِنْهَا الْإِنْسَانَ وَالنَّسَاءَ
ثُمَّ عِظَامًا أَقَامَهَا عَصَبٌ ثُمَّتَ لَحْمًا كَسَاهُ فَالْتَمَأَ
ثُمَّ كَسَا الرَّأْسَ وَالْعَوَاتِقَ أَبَ شَارًا وَجَلَدًا تَخَالَه أَدَمًا^(٧)

عطاء . حرم : مناع .

(٥) الشعر والشعراء ٢٥٣/١ وانظر الديوان ص ١٠٢ .

(٦) دعم : دعائم وعمد .

(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣/٥٠٤ .

(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .

(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمالى المرتضى ١/٢٦٦ .

(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب :

وَالصُّوْتِ وَاللَّوْنِ وَالْمَعَايِشِ وَالْأَخْلَاقِ شَتَّى وَفَرَّقَ الْكَلِمَاتِ
 ثُمَّتْ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ فَائْتِمِرُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ
 فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى
 أَمْسَوْا عَيْدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُمْ كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلُمًا
 أَوْ سَبًّا الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِهِ الْعَرِمَا
 فَمُرِّقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا الـهُونَ وَذَاقُوا الْبِئْسَاءَ وَالْعَدَمَا (١)
 وَبَدَّلُوا السُّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ الـحَمْطَ وَأَضْحَى الْبُنْيَانُ مُنْهَدِمَا (٢)

والناطقة في مطلع هذه العظة يُبْنَى على الله بما هو أهله ، مقررًا لإيمانه
 بوحْدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو
 يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا
 يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث في البيت الثاني عن
 نظام الكون المنبئ عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ،
 مستعبراً من القرآن نفس لفظه في قوله جَلَّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . .
 بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل) .
 وفي البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد
 ترُونها) . وخرج في البيت الرابع من خلقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم
 مثل قوله جَلَّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في
 قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا مضغَّة فخلقنا مضغَّة عظاماً
 فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وهو
 يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

(١) رُفِعَ الخد : كناية عن الذل .

(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .

(٣) السدرو الأراك : شجرة لا ينتفع بشعره . الحمط :

نمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة هكـمـلا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ وأقرأ قوله تعالى: (لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٌ) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواءه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى استحول جوانب منها إلى مواضع خالصة ينفقون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الخفيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فانصلت خطابته ، واتسعت جنتابها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامي ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدّمته يده ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثمَّ كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو تشر من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقبل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(٢) . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني في غيرة ، ولا تجعلني مع الغافلين »^(٣) . ولا تُفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولهما سبع تكبيرات وفي ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سجع الكهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثني فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تفتد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطار بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخرأ بقومه ،

(١) انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى وسلم .

وقد نَدَب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١) .

ونمضى في عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشَّعَث الذي كاد يؤدي بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكَم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدَّمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحملونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحضُّ على الجهاد ونشر الدين الخفيف في أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخدا غيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يَفْتَحْ إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شُعْبَةَ في القادسية^(٢) ، وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣) ، وعتبة بن غزوان في فتح الأبله ، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤) :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولَّتْ حذاءً^(٥) مدبرة ، وقد آذنتُ أهلها بصُرم ، وإنما بقي منها صِباة كصباة الإناء يصطبها^(٦) صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبي بكر

(٤) البيان والتبيين ٥٧/٢ .

(٥) حذاء : سريمة الإهبار .

(٦) يصطبها : يشر بها . والصباة : بقية الماء .

(١) تاريخ الطبري ٣٧٨/٢ .

(٢) الطبري ٣٧/٣ .

(٣) الطبري ٥٩٢/٢ .

في استشارة أصحابه في كل مهم^٢ ، وكل ما يجدر من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة في العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره ، وفَسَحَ عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تَسْتَمِيع لآقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه^(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردّونها ومن يحسنون حتوٰكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يفظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة^(٢) :

«أصدق الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدّثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألّهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمَاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سبّاب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عني عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء » .

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الأشتر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولّى على بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضْطَرُّ على أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

المشهوره ، وفيها ينتصر على ^٤ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفي أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى ^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صوحان وأخوه سيحان .

وانتدب على ^٥ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود القرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفهوماً . وكان يبيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعى . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لمّ الشعث ، ويُنْقَضِى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رهوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجع كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلهأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . وَيُغْمِدُ الْقُرْآنُ فِي جَيْشٍ عَلَى سَيُوفِهِمْ ، وَيَتَّبِعُهُمُ النَّاسُ ، وَيَمَانِعُهُمْ عَلَى ، فِيهِدِدُونَهُ بِأَنْ يُصْبِحَ مُصِيرُهُ مُصِيرَ عُثْمَانَ ، وَيَنْزِلَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ ، وَيُخْتَارَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَعُمَرُ بْنُ الْعَاصِ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ . وفي أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتلوّمون عليه لأنّه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبّدٍ للتحكيم ومنفّرٍ منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه ويتزلون معسكراً خاصّاً بهم في حرّ وراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول علي^{*} وعبد الله بن العباس أن يردّ أمّ إلى سواء السبيل ، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكنّ عمادها الجدل المستمدّ من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يَعْرِف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجّر تفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبري ، وهو يجري على هذه الصورة^(١) :

« راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نقمّ من الحكمين ، وقد قال الله عزّ وجل : (إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما)^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ . فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حُكْمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حُكْم فأمضاه فليس للعباد ينظروا فيه ، حُكْم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)^(٣) . فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد والحدّ يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟ ! . وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدّل عندك ابنُ العاص وهو بالأبس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حرّبه ، وقد حَكَمَ في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حُكْمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا^(٤) . وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجل فأبوه . ثم كتبت بينكم وبينه كتاباً ، وجعلت بينكم وبينه المودعة والاستفاضة^(٥) ، وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإلّا من أقرّ بالخزبة . ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرّ على إلى حربهم ، وفنك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان . وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً ، يدفعهم إلى ذلك

قتل من التميم يحكم به ذوا عدل منكم) .

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل) .
(٥) الاستفاضة : المودعة .

(١) الطبري ٤ / ٤٧ .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتماهما :
(وإن غنم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) .
(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرّم ، وتماهما : هـ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما

خطبائهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحزرقوص بن زهير السعدى والمُسْتورد بن عُلْفَة ، ومن يرجع إلى خطيبهم يجدها تنقد حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه (١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبّار (٢) — أثره عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن من (٣) وضّر ، فإنه من يُمْنٍ ويُضّر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود فى جناته » .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آئمة من أبدى الخوارج إليه فى الظلام ، فطعن طعنة نجلاء ، ويُسلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد انضج من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذى مرتها وذلّها لكى تؤدى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمّون كل خطبة تخلو منه بـتراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاً (٤) .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٦/٢ .

(١) الطبرى ٥٤/٤ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلْقُونَهُ على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب ^(١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه فى نفوس سامعيه صَبّاً ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الأنصار ^(٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فلننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تَقْدُمُ على الخلفاء ، يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة » ^(٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ النجاة ، ويقول الجاحظ إنه « عَدَا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه » ^(٤) . وما يُروى له - إن صَحَّ - قوله ^(٥) :

« سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ سَمِعَ ، وَأَطَعَهُ بِالْخَيْرِ إِذَا طَمَعَ ، وَلَا زَالَ أَمْرُهُ فِي كُلِّ مَا سَرَّ نَفْسَهُ يَجْتَمِعُ ، رَأَى كَمْ رَبِكُمْ فَحَيّاً كُمْ ، وَمِنْ وَحْشَةٍ خَلَّاتَكُمْ ، وَيَوْمَ دِينِهِ أَنْجَاكُمْ ، فَأَحْيَاكُمْ عَلَيْنَا مِنْ صَلَوَاتٍ مَعِشَرِ أَبْرَارٍ ، لَا أَشْقِيَاءَ وَلَا فَجَارٍ ، يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ ، لِرَبِّكُمْ الْكِبَارِ ، رَبِّ الْغُيُومِ وَالْأَمْطَارِ » .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى خطابته ، وكان يَسْتَفِرُّ مِنْهُ حين يلهج به أحد محدثيه ^(٦) ، كراهيةً للتشبه بالكهّان فى سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جَلَّةِ الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبدى حين قدم عليه من غَزْوِ مَكْرَانَ الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابته : « أَرْضٌ سَهْلٌهَا جَبَلٌ ، وَمَاؤُهَا وَشَلٌ » ^(٧)

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) الطبرى ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة لعمّان | (٤) الحيوان ٨٩/٤ . |
| ابن عفان فى البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون الأخبار ٢٣٥/٢ . | (٥) الطبرى ٤٩٨/٢ . |
| (٢) زهر الآداب ٣٢/١ | (٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥ |
| (٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١ . | وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ . |
| | (٧) وشل : قليل . |

وتمرها دَقَلْ^(١)، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل إن كثُر الجند بها جاعوا، وإن قتلوا بها ضاعوا». وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أَسَجَّاعُ أَنْتَ أُمُ مَخْبَرٍ^(٢). وكان الخلفاء بعد عمر يُنْشِرون السجع على محدِّثهم. وأمامنا خطب القوم، وهى تخلوخلو تاماً من السجع إلا ما جاء عفواً في الحين البعيد بعد الحين. ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فلمهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورسانيته، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة.

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يحول فيه الخطيب ويصول، إذ يحدث الناس واعظاً، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع، تلمُّ بأطرافه وتفاصيله. وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولِّدون ويفرِّعون. ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي وسَّعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة.

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتى من اللسانِ

والبيان والتبيين ١/ ٢٨٥.

(١) دقل : ردى.

(٢) انظر في هذا الخبر الطبرى ٣/ ٢٥٧.

والفصاحة ما ملك به أزمّة القلوب، وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنّى له الأفئدة. وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة، ليسجنزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة - كما قدمنا - في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج. وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تليّم. وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبته وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة.

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه، إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرعاً، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغى رائع. ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة، وهي تمضى على هذه الشاكلة^(٢):

« الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأستهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطلع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرًا. وإن تقوى الله، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عوّنٌ صديق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

أمره في السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن* له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خائف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : (ما يُبدّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)^(١) وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفّه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم . »

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشقى على الهلاك ويحتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفّرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعّب ، فإما الجنة وشقيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة الحمديّة ، لينشروها في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير ، وهو خير تطبيع عليه اللجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط ^(١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهتد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيعن لكم ، فإنني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عاى هذا في موقعي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ^(٢) ، وإن أول ربا أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة ^(٣) والسقاية ^(٤) . والعمد قود ^(٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يش أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والتبيين ٣١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤ .
والعقد الفريد ٥٧/٤ .
(٢) موضوع : ساقط ومجرم .
(٣) السدانة : خدمة الكعبة .
(٤) السقاية : سقاية الحجاج .
(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسي)^(١) زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يَحْلُوهُ عَاماً وَيَحْرَمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فَرَدٌ . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطِئُنَّ فُرُشَكُمْ غَيْرَكُمْ ، ولا يَدْخُلْنَ أَحَدٌ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ . ولا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْصَاهُنَّ^(٢) . وَتَجْرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ^(٣) . فَإِنْ انْتَهَيْنَ وَأَطَاعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . وَإِنَّمَا النَّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ^(٤) ، لا يَمْلِكُنَّ أَنْفُسَهُنَّ شَيْئاً ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةٍ اللَّهِ . وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد : أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرئٍ مسلمٍ مالُ أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعُنَّ بعدى كَفْاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضْلُوا بَعْدَهُ : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إِنْ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ . كُلُّكُمْ لَأَدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ . أَكْرَهُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ . إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . إِبْنُ لَعْرَبٍ عَلَى عَجْمِي فَضِلْ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إِنْ اللَّهُ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْوِثَرِ ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراس وللعاهر الحجر^(٥) . من ادَّعى إلى غير أبيه أَوْتَلَى غيرُ وُوالِيه . فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(٤) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة ، أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) للفراس : أي لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو اعله يشير إلى رجما .

(١) النسي : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .

(٢) تعصاهن : تضييقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ^(١) وَلَا عَدْلٌ^(٢). وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
 وَوَضَحَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكِدْ يُلِيمُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ وَالشَّهَادَةِ
 وَالْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى حَتَّى انْقَلَّ يَمِينٌ طَائِفَةٌ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أَقَامَهَا
 الدِّينُ الْحَنِيفُ حَدُوداً بَيْنَ حَيَاةِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَحَيَاتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَدْ
 كَانُوا مَفْكَكِينَ مُتَنَافِرِينَ يَتَحَارِبُونَ دَائِماً طَلَباً لِلْأَخْذِ بِالثَّأْرِ وَنَهْياً لِلْأَمْوَالِ .
 وَجَمَعَهُمُ الْإِسْلَامُ تَحْتَ لَوَائِهِ فِي جَمَاعَةٍ كَبِيرَى مُتَأَخِيَةٍ مُتَنَاصِرَةٍ لَا يَسْبَغِي بَعْضُهَا
 عَلَى بَعْضٍ . وَلَكِي يَقْضَى عَلَى كُلِّ سَبَبٍ لِلْحَرْبِ بَيْنَهُمْ رَدٌّ دَمَ الْقَتِيلِ إِلَى الدَّوْلَةِ
 فَهِيَ الَّتِي تَعَاقِبُ عَلَيْهِ ، وَلَكِي يَسْتَأْصَلَ هَذَا الدَّاءُ دَعَا إِلَى التَّنَازُلِ عَنْ حَقِّ الْأَخْذِ
 بِالثَّأْرِ الْقَدِيمِ ، وَحَرَّمَ النَّهْبَ وَالسَّلْبَ تَحْرِيماً قَاطِعاً مُشَدِّداً فِيهِ الْعُقُوبَةُ .

وَالرَّسُولُ يَفْتَتِحُ فِي الْخُطْبَةِ أَوَامِرَ الْإِسْلَامِ وَنَوَاهِيهِ بِإِعْلَانِ أَنَّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ
 وَأَمْوَالَهُمْ حَرَامٌ ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَى صَاحِبِهَا ، وَأَنَّ عَلَى
 كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَسْرِعَ إِلَى أَخَاهُ فِي مَالِهِ ، فَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئاً إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ ثُمَّ حَرَّمَ
 الرَّبَا ، وَبَدَأَ بِعَشِيرَتِهِ وَتَاجَرَهَا الْمَوْسِرُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَأَسْقَطَ عَنْ رِقَابِ
 الْمَدِينِيِّينَ لَهُ رِبَاهُ . وَعَلَى نَحْوِ مَا أَسْقَطَ الرَّبَا أَسْقَطَ دِمَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ
 أَنْ يَثَارَ لِقَتِيلٍ لَهُ ، وَبَدَأَ بِعَشِيرَتِهِ فَأَسْقَطَ دَمَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ
 عَبْدِ الْمَطْلَبِ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَا ثَارَ الْجَاهِلِيَّةَ شَيْئاً سِوَى خَاصَةِ الْكَعْبَةِ وَسَقَايَةِ الْحَجَّاجِ ،
 وَأَوْجِبَ فِي قَتْلِ الْعَمْدِ الْقَوْدَ ، وَلَكِنِ الدَّوْلَةُ هِيَ الَّتِي تَقُومُ بِهِ ، وَبِذَلِكَ قَضَى
 الْإِسْلَامُ عَلَى حُرُوبِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ . وَقَدْ جَعَلَ فِي الْقَتْلِ شِبْهَ الْعَمْدِ مِائَةَ بَعِيرٍ .
 كُلُّ ذَلِكَ لِيَحْفَظَ لِلْجَمَاعَةِ وَحْدَتَهَا وَيَسُودَ بَيْنَ أَفْرَادِهَا السَّلَامُ وَالْوَثَامُ .

وَيَحْذَرُ الرَّسُولُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَغَوَايَاتِهِ ، مُحَرِّماً لِلتَّلَاعُبِ بِالأَشْهُرِ الْحَرَمِ ،
 وَاضِعاً تَقْوِيماً قَمَرِيّاً يَتَأَلَّفُ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ : ذُو الْقَعْدَةِ
 وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ . وَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ الْمَرْأَةِ وَمَعَانِي عِلَاقَاتِهَا بِزَوْجِهَا ،
 فَيَجْعَلُ لَهَا حَقَّوْقاً وَعَلَيْهَا وَاجِبَاتٌ ، وَفِي الطَّرْفَيْنِ جَمِيعاً يَنْخُظُ لَهَا كِرَامَتُهَا كَمَا
 يَنْخُظُ لَزَوْجِهَا نَفْسُ الْكِرَامَةِ . دَاعِياً إِلَى التَّعَاطُفِ بَيْنَهُمَا وَالتَّرَاحُمِ وَالتَّعَامُلِ بِرَفَقٍ
 وَإِحْسَانٍ .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ من نةَـضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاخر . فالتناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عندانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى ، فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرّره القرآن فى الميراث وأنصبتة ، وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرْسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخثولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيّن فى خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فلن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكون نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقي الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعةَـوه وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التعقيب ^(١) ، واستعمل المبسوط فى موضع البَسْط والمقصور فى موضع القَصْر ، وهجر الغريب الوحشى ،

(١) التعقيب : التفسير وهو للتكلم بأقصى قعر الفم .

ورغب عن المعجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُيّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغناؤه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قديم ، ولا بارت له حجة ، ولم يتقّم له خصم ، ولا أفحجه خطيب ، بل يبذل الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفسّاح^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فتحوى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم «^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذى رسمها ، وفجر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحسّ دقيق تبيينهما فيما روى عنه من قوله : « لا يقولن أحدكم خبّشت نفسى ولكن ليقل : لقيست نفسى »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الظاهر إلى نفسه الخبيث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرىء من كل ما يُستكره ، اللفظ الذى يحبب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقاته .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سرى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ .

(١) الفلج : الفوز .

(٤) الحيوان ٣٣٥/١ ولقت النفس : غشت .

(٢) فتحوى : دلالة .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه به ، وقد نوه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره اليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسنه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبي أنت وأمي طيبت حياً وطبت ميتاً . وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة ^(١) التي قال فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل شيء هالك إلا وجهه) . فتاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبيدة في سقيفة ^(٢) بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعهم ذلك وخشوا على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمده الله وأثنى عليه وقال ^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حقٍّ فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فسدِّدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٢/٤٤٤ وزهر الآداب ١/٣٠ . (٢) عيون الأخبار ٢/٢٣٤ والطبري ٢/٤٥٠ .

(٢) الطبري ٢/٤٤٥ وما بعدها .

الحق له ، وأضمتكم عند القوى حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وأخذت تتجلى مرافقه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعوني عقالاً (١) مما أعطوه النبي لجامدتهم عليه » . وجاهدتهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم . وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله في خطبة له (٢) :

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرت به ، وضرائب أدتوها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قدركوها لمن خلفهم ، فذلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (٣) . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شرَ بشرٍ بعده الجنة » .

واستنَّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا

(٣) الركز : الصوت الخفى .

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

لما كلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول ^(١) :

« أيها الناس ! قِفُوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تَغْلُوا ^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تنقروا ^(٣) ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبجوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثّلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن بلهج بسجع ، إنما كان بلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظنُّ أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله » ^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صنيّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرّ به منه ويتخذ موضع مشورته ، حتى توفّي وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتسمّ فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكألى والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضّاد من أى شدّقيه شاء ^(٥) ، فما هو إلا

(١) الطبرى ٤٦٣/٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢٦١/١ .

(٢) تغلوا : تخونوا في النفي .

(٥) البيان والتبيين ٦٢/١ .

(٣) تقمروا : تستأصلوا وتقطعوا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهذر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواعظه (١) :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرركم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها بني آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبيهم شكرها ، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلَقُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارة إلى مرضاته . »

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الخفيف في أقطار الأرض ، وهو ان ينتشر إلا بالقوة التي تُعزِّز الحق وتُعَلِّي سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن تراث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبْرِز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢) :

« أين الطُّرَّاء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله ومواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ » . ولما اجتمع الجيش أُمِر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطُّرَّاء : الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ دِيَارِهِمْ .

(١) الطبري ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبري ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصَدُّها إلا الرجل المسكين ^(١) الذي يعرف الفرصة والكف .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرْتِج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتِجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس ^(٢) :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ ^(٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّيتُمْ . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جِدُوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ومُتَّعُوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : (واضربْ لهم مثلاً الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرياح وكان الله على كل شيء مُقْتَدِرًا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) . »

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحَدِّثُوا فَتَنَ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِرم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما يقف فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلَّبون عليه أهل البصرة ومعوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

(١) المكث : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

(٢) الطبرى ٣/ ٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفيين ، ثم كانت خُدعة التحكيم . وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً منوهاً لا يُشَقُّ غُبَارُهُ ، ومن مواظبه قوله ^(١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وأذنتْ بoudاع ، وإن الآخرة قد أقبلتْ وأشرفتْ باطللاع ، وإن المضممار ^(٢) اليوم والسباق غدأ . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أملة قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يتضرره أملة ، ومن قصر في أيام أملة قبل حضور أجله خسر عمله ، وضرَّه أملة ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرَّهْبَة ، ألا وإني لم أركب الجنة نام طالها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهددهم ويخطب في أصحابه حائثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة ^(٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق :

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف ^(٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزؤهم قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عُقْرِ دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شئت عليكم الغارات ... فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلهم عن حقكم ... حتى صرتم هدفاً يُرمى وفيثاً يُستهَبُّ ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَوْنَ ولا تُغزُون .. قد ورَّيتُم ^(٥) صدرى غيظاً ، وجَرَّ عَتموني الموت أنفاساً ^(٦) ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والحِذْلان . »

(٥) ورَّيتُم : ملائم ، وأصله من ورى القيع

جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذي تضمر فيه الحيل

للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما يُنسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرت وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون^(١) ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٤) ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسّمه باسمه : نهج البلاغة^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعاً خطبة وثمانيين يتداولها الناس^(٦) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينا تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

(٤) كتاب الرجال (طبعة بومباي)

ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف

الرضي (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد)

ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤/٤٤١ .

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن

خلكان ، وراجع مرآة الجنان للياقني ٥٥/٣

وشذرات الذهب لابن الهادي ٢٥٧/٣ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو)

٢٠١/٢ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد)

٢٢٣/٤ .

تشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفَضَّلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جبريلُ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خَلَقَ الإنسان من علقٍ ، اقرأ وربك الأكرم الذى علَّمَ بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسَم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يَسْطُرُون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطُّور وكتاب مسطور فى رَقٍ منشور) . وتتردَّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لَوْح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيسَ) وقوله : (رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة ^(١) ، وقد حَثَّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزَّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما عاَمَهُ الله فليكتب وليُمَلِّل الذى عليه الحق) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفَّظوه .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحسين بن نعيم ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهمهم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقب الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدَم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع موثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها بحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورها مما لا يترقى إليه الشك . وهي تفتتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطویرها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطوَى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه . وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

يعلموها سلطان الله الذى يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التى تربط بين أفرادها ، وهو يوضح هذه العلاقات فى داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التى يُشرف عليها الله ورسوله ، وهى علاقات وثقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الدينى الجديد ، الذى يُلغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجز ثأراً بل عقاب عادل بالمثل فى القتل وغير القتل .

ونغضى فى تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التى كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتى نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالاته ، ومن دعاه النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمراءها وولاة شرق الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدة مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . . . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبى بكر وعمر التى كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم فى

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى (النشر) ص ١٣ .

والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة) . (٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول . ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قبيلَ منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقول حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمرء الأجناد ضمّته نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) : « تلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه لعمر . وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّاً وعدّلاً فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهد فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتتح كان أمرء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .

عن مراسلتهم في كل ما يهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول (١):

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسَكَّنُ كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُسْتَقْصَصُ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين . وواضح أن عمر ترسَّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نَجْرَان . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولائه في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثِر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضى في البيان والتبيين على هذا النحو (٢):

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . أسِر بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيئَة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائر بين المسلمين إلا صلحاً حراماً حلالاً أو أحلَّ حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرسلك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشياء ، وقِس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بيئَة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيئته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفي للشك

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حَمْدٍ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظَنِيناً^(١) في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودَرَأَ عنكم بالبيِّنات والأيمان. ثم إياك والقلق والضجر والتأذَّى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يُوجب الله بها الأجر، ويُحسن بها الذُّخْرَ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، ولو على نفسه يَكْفِيهِ الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْرَهُ وأبدى فعله. والسلام عليك.»

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة. وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضاائه أن يرجع فيه. وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُشير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس. ويجعل للمدعى أمداً ينتهي إليه. ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً، إلا أن تستنفي عدالته فلا تصح شهادته. ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذَّى بهم ولا يتنكر لهم. وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده تُعَدُّ دستوراً رفيعاً للحكم، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخِّدَ وَا به من الرفق.

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة. وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويدع، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه. فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقياً بعيداً لم نكن مغالين. إذ وسَّعت كل الحاجات السياسية التي جمَدَتْ،

(١) ظنينا : متبا.

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢.

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بممارسة العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاياته في الحرب والسلام . وخلفه على فكثر الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموع النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيقة . وكان الرسول عليه السلام هو الذي ذللها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غابوا عنهم من جهة أخرى، ولعمر من بينهم في ذلك القيدُحُ المعلّى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

الكتاب الثاني
في عصر بني أمية

الفصل الأول مراكز الشعر الأموي

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بني أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضر تحضراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت في هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة في عهد علي^١ ثم إلى دمشق منذ معاوية فلما ظلت تحتفظ بالتراث الديني ، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة ودمانة . وهيات لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع ومما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالعوا في تجميلها وزخرفتها^(١) ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبي الذي اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليُروى عن الزبير بن العوام مثلاً أنه خَلَّف وحده ألف عبد وأمة^(٢) . ومنذ أن دون عمر الدواوين كان يُفرض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغدقون عليهم إغداقاً^(٣) ، استرضاء لهم ، حتى يصرفهم عن التفكير في الخلافة .

كل ذلك أعدَّ لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هي الفترة التي انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

(١) انظر مروج الذهب للسمودي (طبعة باريس) ٢٥٤/٤ .
(٢) الفخري ص ١٢٧ واليعقوبي ٣٥٨/٢ والأغاني ٢٢/٧ .

(٣) نفس المصدر ٢٥٤/٤ .

الانتفاض باهظاً في موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة في سماءها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شيء ، فقد تجنّبت السياسة ، وقرأ في أخبار أهلها فتجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة^(١) ورافلين رجالا ونساء في الثياب الحريرية^(٢) وأنواع الطيب والعطور^(٣) ، وبالع النساء خاصة في اتخاذ صنوف الحلى والجواهر^(٤) .

وطبيعي أن يكثر في هذا المجتمع المتحضر المترف الشباب العاقل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل في هوا برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبي ما يريد من هذا اللهو ، إذ عنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت في أثنائها نظرية الغناء العربية التى تقرأ رُقمها في كتاب الأغاني تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هى التقييل الأول والتقييل الثانى وخفيف التقييل والرّمّل وخفيف الرمل والهزّج ، وميّزوا مسجّرى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلاً : تقييل أول بالوسطى وخفيف تقييل بالسبابة وخفيف رمل بالبسنصر .

واكتمال هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بالحن الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراس فإن كبار المغنين الأولين في المدينة يؤثّر عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسى بجانب غنائهم العربى^(٥) ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم الحان الروم^(٦) . على أنه ينبغي أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلاً عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت في صورة عربية مستقلة . وما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبي وكلدوا في بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسى . وكانت العادة أن يبدأوا

٢٧٨ .

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٨/١ ،

٣٢٢/٨ .

(٦) أغاني ٣٧٨/١ .

(١) ابن سعد (طبعة أوروبا) ١٢٦/٤ .

(٢) ابن سعد ٣٥٢/٨ والأغاني ١٣/٦

والمعارف ص ٢٧٤ والأغاني ٣١٠/١ .

(٣) أغاني ٢٦٢/٩ .

(٤) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ ،

بالغناء العربي ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدخلوا الحانة في غناء العرب . وما يدل على ما نزع من أكثر الآلات الموسيقية التي يتردد ذكرها في هذا العصر قديم مثل الصَّنَج والمِزْهَر والقضيب والدَفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرِفَت في العصر الجاهلي .

على كل حال نهضت المدينة في هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها في ذلك مكة كما سئرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدين جميعاً لم تُبْقِيا إلا قليلاً للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التي استحدثتها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالاً شديداً ، يشترك في ذلك عامتهم وخاصتهم وعُبيّادهم وزهادهم ^(١) وقضاةهم ^(٢) ، حتى لَتُوْثِرَ عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنّى بها في إمارته لهم ^(٣) . وكان من أشرافهم مَنْ جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقصّد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء ^(٤) ، وقد تخرج في هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر طُوَيْس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن ^(٥) وأول من صنع المزج والرمّل في الإسلام ^(٦) ، وسائب خاثير مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربي ^(٧) ومعبّد وهو إمامهم في الغناء غير منازع ، وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّد ويونس الكاتب ويُنسب إليه أول كتاب في الغناء والأغاني ونُسبَها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة الميلاء وجميلة وسلامة القيس وحبابة وسلامة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

(١) أغاني ٢/٢٣٨ ، ٤/٢٢٢ ، ٨/٢٢٤ . (٥) أغاني ٣/٢٩ .

(٢) أغاني ٨/٢٧٧ . (٦) أغاني ٤/٢١٩ .

(٣) أغاني ٩/٢٥٠ . (٧) أغاني ٨/٣٢١ .

(٤) المسعودي ٥/٣٨٥ .

بالمغنين والمغنيات ، ويسعدُ أبو الفرج منهم في أغانيه عشرات ^(١) ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء في المدينة من رقي وازدهار ، إذ كانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجووقات الكبيرة ^(٢) ، والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة ^(٣) . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا في المدينة فقط ، بل أيضاً في مكة ^(٤) ، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت في مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة ^(٥) .

وعلى هذا النحو عاشت المدينة في هذا العصر لفن الغناء تنميته وترقيه ، ورقيةً إنما هو رمز لما أصاب مجتمعا من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرفق والنعيم . وكان يلتقى في هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشعب ، وكان ماهراً في إضحاك معاصريه لابنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتطوّح كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته ^(٦) .

ولم في هذا المجتمع كثيرات من النساء قدّرن المرح فيه والظرف وعلمن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سَكِينَة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج في أغانيه ترجمة ^(٧) ، صور فيها جمالها وبهاءها وقارها وأخذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرِفَتْ بتصفيف لحمة شعرها كانت النساء يقلدنّها فيه ، بل كان من الرجال من يحاكيها في جُمُتها . وكانت ظريفة مزاحمة ، وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تفسّح في مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذ نلجأ بمجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كي يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) أغاني ١٨٦/٨ وما بعدها . | (٦) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة الساسي) |
| (٢) أغاني ٢١٨/٨ ، ٢٢٧/٨ . | ٨٣/١٧ . |
| (٣) أغاني ٢٢٦/٨ . | (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٥٧/١٤ |
| (٤) أغاني ١٨٨/٨ ، ٢١١/٨ . | وما بعدها . |
| (٥) أغاني ٢٠٩/٨ . | |

حزن أبي قَتَيْفَةَ الأُمَوِي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثّر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول^(١) :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَاءُ بينهما أَشْهَى إلى القلب من أبواب جَيْرُونِ
ويقول^(٢) :

أَقْطَعُ الليلَ كُلَّهُ باكتئابٍ وزَفِيرٍ فما أكاد أنامُ
إلى أشعار كثيرة^(٣) تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .
وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قریش وغيرهم وممن تعرَّب في بلدتهم من الموالى وأبنائهم تعرباً تاماً . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسريّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قریش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقهاء المشهورين عروة ابن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أُرطاة وابن هرمة . وممن ترجم لهم من الموالى موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١ ، (٢) أغاني ٢٩/١ .
والقصر الذي عناء قصر سعيد بن العاص بالمدينة ، (٣) انظر ترجمته في الأغاني ١٢/١ وما بعدها .
الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

وإذا أخذنا نقرأ في شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يتجسّر في الحب والغزل ، وهو شيء طبيعي ، دفعت إليه حياة الشباب المترف في المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقاً بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة^(١) ، ولكن هذه المعركة تنتهى بهما ، ولا تبتقى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلباً لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحرص^(٢) وموسى شموات^(٣) ، وأخيه إسماعيل بن يسار^(٤) . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفي الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغي أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما في المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذى كان يتفق وترف البيئة والذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثمّ طبع هذا الغزل بطوايع غنائية قوية ، إذ كان في حقيقته أغانيّ تُصحبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوايع في جوانب كثيرة من حيث الكمّ ومن حيث الكيف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والحزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنية يوقعها عليه^(٥) ، وكان بين الشعراء من يُحسن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذينة^(٦) ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبى سعيد مولى فائد وسلامة القسّ ، وقد ترجم لهما صاحب الأغاني .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها في كل ما وصفناه من

(١) أغاني (ساسي) ١٣/١٤٤ . (٤) أغاني ٤٠٨/٤ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ١/٢٩٧ و ٤/٢٤٨ . (٥) أغاني ٢/٢٣٨ وطبعة الساسي ٢١/١٠٧ .

(٣) أغاني ٣/٣٦٥ . (٦) أغاني (ساسي) ٢١/١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الحديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل . وكانت مثلها تغرق في ثراء واسع ورثة الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان في حجوهم من أموال التجارة في العصر الجاهلي ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس في عصرنا ، إذ كانت تنقل السِّلَع بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرض لأهلها من أعطيات ووراثت في دواوين الخلافة وما قَسَمَ فيهم الأمويون دائماً من أموال ، وكان الحج يُنقى عليهم كل سنة بما يسدُّ خِلَّة كل محتاج .

فكرة لم تكن تقلُّ في هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التي تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبَتْ « بالرُّقْط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنائين من الفرس ^(١) ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوئاً إزاء بعض قصورها الأخرى ^(٢) . ومعروف أنه اتسع فيها بناء القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقراً لخلافته ^(٣) . وقد عُنِيَ كثير من الخلفاء ومن ولاتها الذين اُثْروا في الفتوح باستنباط العيون فيها وغرَس النخيل والأشجار في ضواحيها ^(٤) من ذلك ما يروى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسري عامله عليها أن يُجْرى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة في أصل « نَسِير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قَصَب من رصاص انتهى بفؤارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم ^(٥) .

ولم تَغْرُق مكة في دور وقصور وعيون فحسب ، بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة ^(٦) ، ونفر يلبسون مقطعات الخَزَّ والسندس والديباج والحلل الموشاة

ص ١٦٤ و الأزرق ٤٤١/١ وما بعدها .

(٥) البعقوبي (طبعة أوروبا) ٣٥١/٢ .

(٦) أغاني ٦٦/٥ .

(١) أغاني ٢٨١/٣ .

(٢) أغاني ٢١١/١ .

(٣) الأزرق ٣٩٢/١ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن)

على كل لون^(١) ، والطيب وأنواع العطور تفوح منهم^(٢) . وبالغ النساء في ذلك كله وفي اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر^(٣) .

واكتظت مكة - كما اكتظت المدينة - بالرقيق الأجني الذي نهض بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن في مكة وأصحابه في المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدميهم وكبارهم في مكة ابن مسنح الذي اشتهر بأنه أول من غنّى الغناء المتغن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب » ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانتقل إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبّحه من النبرات التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعد^(٤) . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات في مكة ، ومن أنبهم وأشهرهم ابن محرز ، وهو أول من غنى الرمل^(٥) ، وابن سرينج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طويس وغيره من مغنينا^(٦) ، وكان أول من ضرب على العود الفارسي بالغناء العربي ، والغريز وكان لا يسأل حتى في الندب والنياحة ، والأبجر ، والهدلى . ومن مغنيات مكة سميّة ، وبغوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة . ومكة إن لم تُعرف بدار كبيرة كدار جميلة في المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادي الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشغّفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(٤) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٥) أغاني ٣٧٩/١ .

(٦) أغاني ٣٢١/٨ .

(١) أغاني ٦٥/٥ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ ، ٤٧/٣ .

(٣) أغاني ٢٧٣/٨ ، ٢٧٨/٨ وانظر ابن

كهد (طبعة أوروبا) ٣٤٣/٨ .

مكة جميعاً حتى فتحها وهم من مثل عطاء^(١) بن أبي رباح وابن^(٢) جريرج وقضائهم من مثل الأوْقَص^(٣) الخزومي . وتبعت ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمي ، كان خفيف الروح ، وفي كتاب الأغاني ترجمة^(٤) طريقة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريقات كان لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثُرَيَّا^(٥) بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعَقِّدُ فيه ندوات يؤمُّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلاً ، إذ كانت الثريا مولاةً للغريز ومحبية قيسل وسميعة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كل ليلة على أوتار العيذان والطناير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدَّ هذا كله شعراء مكة لأن يجري جمهور شعرهم في الغزل والحب . وربما كان أهم شاعر مكِّي تعلق بالهجاء والمديح عبید الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذهُ مصعب بن الزبير في أثناء ولايته على العراق شاعره الذي ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بني أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدّاحيه ومداحي أخيه عبد العزيز وإلى مصر ، ولكن حتى ابن قيس أكثر شعره في الغزل ، وعلى غرارهِ العَرُجِي . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبي ربيعة . ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطرب القرشي فغنّه غناء ابن سُرَيْج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرَقِّصه^(٦) » .

وكلُّ ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبُّ انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً في هذا العصر غلب عليه الطابع المادي الصريح ، بل لقد

(٥) أغاني ١/١٢٢ ، ٢٠٩/١ ومابعدها

وفي مواضع متفرقة .

(٦) أغاني ١/٢٨٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٧ .

(٤) أغاني ٣/٤٥ .

استولى عليه استيلاءً بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ذلك فنظن أن الشعراء تهادوا في صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه ، إذ كانت موجة اللهو في المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونُظائرهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة في المدينة وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشسي في مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

وما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة في بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يروى عن العسرجي الشاعر المكي من أنه كان يتزل كثيراً في أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفيند^(١) . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النيمري ويزيد بن ضبّة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين في وادي القرى كانوا يفدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر^(٢) الوادي .

٢

نجد وبوادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجداً وبوادي الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرعي وطلب الكلاء، فهي تعيش — كأسلافها في الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشطّاف .

وفي هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعي ، وظل تربص القبائل

بعضها ببعض ، وإن كان من الحق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحاد الذي كان عليه القوم في الجاهلية ، بسبب نهى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحول حقه من أيدي الأفراد إلى أيدي الدولة ، وكان ولاية بني أمية في نجد وبوادي الحجاز يقطّين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زَجّوا به في السجون . غير أن بقية من الشر والشَّجار بقيت ، وهي بقية استتبت ظهور بعض قُطّاع الطرق من أمثال طهَّمان^(١) بن عمرو الكلّابي الشاعر ، كما استتبت غير قليل من شعر الفخر والمهجاء ، على نحو ما نجد في مهاجاة^(٢) شبيب بن البرصاء الذُّبْياني لعقيل بن علفمة وأرطاة بين سُهَيْبَة ، ومهاجاة^(٣) ابن مَيْيَّادة الذُّبْياني للحكم الحُضْرِي .

ودفع شظف المعيشة في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثمَّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبتعد إذا قلنا إن شعراء شرق الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تنقّذ به رحلاته إلى خراسان .

ومرَّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرَّدَّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الدينى راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُثمَال الصدقات كان يقسوفى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثمَّ ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة^(٤) .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبوادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التي سَعَّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبية ، وحقاً هو لم يُمت ذلك نهائياً ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة من هاجر وا في الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره في أخبار اللصوص للسرى ١٠٠ . (٢) أغاني ٢/٢٩٨ . (٣) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة وما بعدها .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧١/١٢ . (٥) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٠٥ .

برُمَّتْها . على أن هذا أحدث حزناً في نفوس كثيرين سبق أن وصفناه في عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن في هذه البيئة البدوية ، ولكنه إذا كان ضعفاً في مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة في مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بنى عُدْرَةَ وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوَةَ بن حزام وقيس ابن ذَرِيح ، ووقف طويلاً عند مجنون ليلى وشكَّ في حقيقته ، وهو يصوِّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيّاً ، وكأنَّ عرب نجد وبادى الحجاز أفرغوا فيه وفي أفرادهِ صور البطولة التي فقدوها في حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربى ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسبهُ الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُدْرَةَ ، لكثرة ما أنتجت فيه ، فيقولون غزل عُدْرَى وهو غزل يسمح عليه الإسلام وما أحاط به المرأة من جلال ووقار وما حرَّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذى وصفناه في غير هذا الموضع والذى كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائريهم وأهلبيهم ، ودائماً يُصنِّق الحزن النفس وينقيها ويعدُّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجَى حقّاً وأن تؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبادى الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تترج إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها الجينية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلى واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية في الرعى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها الجينية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعياً أن تقف قيس في الصفوف المعادية حين تواتبها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سنّحت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حطَّبت قيس في حبَّله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس في الشام وزُفر بن الحارث الكلابي في قرقيسيا بالجزيرة . وتوالى الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامه ابن بَحْدَل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارَت قيسُ الشام ، وأوقعتُ بها كلب وقبائل قضاة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة في مَرَج رَاهِط ، قُتِل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان في الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرة ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْسِر بن الحُباب السُّلَمي ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل : يوم الغَوِير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان ^(١) . ووالَت قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير في غير موقعة ، وخاصة يوم ماكسين ^(٢) وكان بين مَن أسرتَه قيس فيه القطامي ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامي ينوه بمأثرته عليه طويلاً ^(٣) ، ونمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ في إحدى غاراته عليها بالحشاك إلى جانب نهير الثرثار . ويثار له زفر في موقعة مَرَج الكُحَيْسِل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك في هذه الأثناء يده عن قيس الجزيرة رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفي ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبد الملك أن ينتظر رجاء أن يُفنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح في جذب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمناً اقتحم بجيشه العراق وقتل مصعباً سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة ففُضى عليه . وبذلك أنقذت تغلب من محالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السُّلَمي فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذي أقول فيه :

ألا سائلِ الجحافَ هل هو نائِرٌ بقتلى أوصيت من سُلَيْمٍ وعامرٍ ^(٤)

(٣) أغاني ١٢٨/٢٠ .

(١) انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٢١/٢٠

(٤) يريد الأخطل اليوم الذي قتلت فيه بنو

تغلب عمير بن الحباب السلمي .

(٢) أغاني ١٢٧/٢٠ .

وكان الجَحَافُ ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الحُباب . وقد ظل
يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سوف نبكيهم بكل مَهْنَدٍ ونبكي عُمَيْرًا بالرماح الخواطر^(١)

ومضى الجَحَافُ ، فأغار بقومه بني سُلَيْمٍ سنة ٧٣ على تغلب عند موضع
يسمى البِشْرُ ، فنكّل بها تنكيلاً فظيعاً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَرَ بطون
حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل : أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير
أنه مَوَّه على بني سُلَيْمٍ حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقه وهم لا يعرفونه .
ولما رأى الجَحَافُ أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم
خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمّنه ،
غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْرِ فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألّاه
الجَحَافُ بعد ذلك ونَسَسَكَ^(٢) .

ولمّا سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جَمْدَعة بين
قيس من جهة وكتب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح
فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع في كل مكان النار ولا العار ، واشتطوا
في القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت في قوة لعودة أشعار الفخر
والهجاء ، ففي كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالويل والثبور ،
ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري بأشعارهم ، ونجد
من ذلك آثاراً في الطبري يُنشدُها مع الأحداث في موقعة مرج راهط^(٣) وغيرها ،
وآثاراً أخرى كثيرة في كتاب الأغاني^(٤) ، فقد تراص شعراء كلب من أمثال جِوَّاس
ابن القسْعَطَل وعمر بن الحُخْلَة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ،
كما تراص شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحُباب وجَهْمُ

(١) خطر الرمح : اختز في يد فارسه . (٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢ / ١٩٨

(٢) أغاني ١٢ / ١٩٨ وما بعدها . وما بعدها و (طبعة الساسي) ١٧ / ١١١

(٣) الطبري ٤ / ٤١٨ . وما بعدها ، ٢٠ / ١٢١ وما بعدها .

القشيري وابن الصنفار المحاربي ، وأخذ كل فريق يَريش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب المعجاء والفخر التهابا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بني شيبان ونابعهم . وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يُبَسِّئَ لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطِّطَت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شَرْقيَّها والعدنانية في غربيها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سُبُغ لكتانة وحلفائها وجديلة ، وخطة أو سبع لقضاة وغَسَّان وبَجيلة وخَشْعَم وكِنْدَة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمذحج وحمير وهَمْدان وحلفائهم ، وخطة أو سبع لتيَم وسائر الرِّباب وهوازن ، وخطة أو سبع لَأَسَد وخطفان ومحارب والنَّمِر وضبيعة وتَغْلِب ، وخطة أو سبع لإياد وعكّ وعبد القيس وأهل هَجَر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع ^(١)

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون في كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طي^١ ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هي الأخرى ذكراً في الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدخل القبائل بعضها في بعض .

وكان يَكْنُف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان في ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخَوَرْتَن والسَّدير والغَرِيَّان ومنتزهات ودِيَرَة كثيرة^(١) ، وبمجرد أن نزلها العرب نزلها معهم بقايا الحيوش الساسانية التي انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيهم يسمى دِيَّاسَم ، فَنُسِبوا إليه ، وُسِّمُوا حمراء ديلم^(٢) ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التي خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبي طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير في البصرة ، ووقعت بين البلدين موقعة الجمل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة في طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ في صدورهم لإحتن لأهل الكوفة . ويخرج على بجيوشه إلى لقاء معاوية في صِفِّين ، وتخدم المعركة بينهما ويشند أوارها كما يشند أوار الشعر بين الفتيين المتحاربين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولّي على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُستورد ابن عُدْلَة الخارجي حين ثار عليه ، فأنبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته^(٣) به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلقه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضيق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطّرّ حجير وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، ف وقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

(١) انظر مادة كوفة في معجم البلدان لياقوت .

المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .

(٢) طبري ١٤٣/٤ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة المطبعة

ارتفع فيها صوت الشعر^(١) ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله في نفر منهم إلى معاوية ، فقتله في سنة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس في الكوفة ضد الحكم الأموي ، واعتبر الشيعة حُجْرًا وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم^(٢) . وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضةً شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة الشيع لعلّ وبنيه . ويتوفى زياد في سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحّاك بن قيس الفهري ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي ثم النعمان بن بشير ، ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمها إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة . ويأبى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بآبن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم في الطريق أن ابن عمه اضطرّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلّوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبني هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضي إلى غايته فيُقتل وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكربلاء على مهر الفرات في العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفى يزيد بن معاوية ويضطرّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تفصيرهم في حق الحسين ونفورهم عن نُصْرته، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربٌ من قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُمّوا التّوابين ، وولّوا أمرهم سليمان ابن صُرْد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا في عَمَينَ الوردية (رأس العين) في وسط الجزيرة بجيش أموي على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان في المعركة ، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعي إلى الكوفة ، وانتَهز المختار الثقفي الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من وإلى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همام السّلولي^(١) :

دَعَا يَا لثارات الحسين فَأَقْبَلْتُ كَتَائِبُ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيعٍ^(٢)
وَأَبَ الْهُدَى حَقًّا إِلَى مُسْتَقَرِّهِ بِخَيْرِ إِيَابِ آبِهِ وَرَجُوعِ
إِلَى الْهَاشِمِيِّ الْمُهْتَدِي الْمُهْتَدَى بِهِ فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعِ
وَلَمَّا اسْتَجْمَعَ الْأَمْرُ لِلْمَخْتَارِ أَعَدَّ جَيْشًا بِقِيَادَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ لِحَرْبِ أَهْلِ
الشَّامِ ، فَالْتَقَى فِي سَنَةِ ٦٦ بِجَيْشٍ عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فِي «خَازَر» بَيْنَ الْمَوْصِلِ
وَالرَّابِلِ ، وَدَارَتْ الدَّوَائِرُ عَلَى جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَقَطَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَيَوْلَى ابْنَ
الزُّبَيْرِ عَلَى الْبَصْرَةِ أَخَاهُ مُصْعَبًا سَنَةَ ٦٧ وَتَنَشَّبَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخْتَارِ ،
وَتَعْلُو كُفَّةَ مُصْعَبٍ ، فَيُقْتَتَلُ الْمُخْتَارُ وَتَدْخُلُ الْكُوفَةُ فِي طَاعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ .

ونمضى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك في ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج
وهي ليست ثورة شيعية ، وإنما هي ثورة أهل السيادة والشرف في الكوفة على
بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية^(٣) . وكان سادة هذه
البيوتات وأشرافها يتمتعون من ظلم ولاية بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة
وخاصة الحجاج ، وأُتيحت الظروف لواحد منهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة
على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه
كثير من الموالي والقُرّاء . ونازله الحجاج في وقائع كثيرة أهمها وقعة دبر الجماجم
وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل في هروبه ، حتى وصل
إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتِلَ أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين
وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن علي بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة
منشئاً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هي نظرية الزيدية . وما زال به شيعته
يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج في سنة ١٢١ وما كاد

زُرارة بن عدس التميمي وبيت الأشعث بن قيس

الكندي وبيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت

ذي الحدين الشيباني .

(١) طبري ٥١٠/٤ .

(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .

(٣) من بيوت الشرف العريقة في الكوفة بيت

القتال يستحضرُ بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قُتِلوا عن آخرهم ، وقُتِل زيد ، وصُلِب بسوق الكُنَاسة في الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى في سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل في كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة في هذا العصر وأن ساداتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يَكُونُون بغضاً لبني أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور في الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطَّرمَّاح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان يجوارهم من يُقبَلون على اللهو والخمر ، أمثال الأقيشر الأسدي ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إلياس وحلبته .

ولم تتورط الكوفة في العصبيات القبلية ، ولذلك كان حظها في شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر المهجائين في العصر هو الحكم بن عُبَيدل . وقد مضى كثير من شعرائها يُعَسِّى بمدح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبني أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدي .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة في الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روى فيها كما روى في الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعت القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولأهل هجر بخطة عبد القيس ، ولأذن ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق المَرَبْد ، وقد تجولت في هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقته .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسي الذى جلبوه من السُور ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل في حلف تميم ، ودخل أيضاً في حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزط والسيابجة والاندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصهبانيين وأخرى من الحبش^(١) . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيباً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيباً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هي الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهرات الكثيرة التي اشتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهري الأبلّة ومعدل .

وأخذ نزلتها من العرب المجاهدين في سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشخّنون بقيادة الأحنف بن قيس التيمي لعهد عمر بن الخطاب في أرض فارس وتغلغلاوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان^(٢) . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان^(٣) . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم^(٤) ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلي ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفين ، وظلت موالية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة في العصر الأموي ، ونراها تُدْعَى لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ في اجترار العصبية القبلية القديمة ، وكان مماهياً لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزدي وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها في حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزد عُثْمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغل هذه العصبية في توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض . ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشْغَلْ بخصومة شيعية على نحو ما شُغِلت الكوفة ،

(٢) طبرى ٣/ ١٨٩ - ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبرى ٣/ ٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبرى ٣/ ٥١٠ - ٥١١ .

(١) انظر في تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح

البلدان للإلاذرى ص ٣٤١ وما بعدها والطبرى

٤/ ٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٥٥٩ ونقائض جرير

والفرزدق ٧٣٧ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقاً هو الحصومة القبلية وما طوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بآسَرِهِمْ إلى غزو خراسان^(١) ، حتى يتخلص من عناصر الشعب فى البلدين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْبِ القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويباع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضطَرُّ عبيد الله أن يرحلها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أَرْزِهِ قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد و تميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُسْنِ كَيْفِهِ أَنْ يعيد السلام بين القبيلتين نظير ديه كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتَتَبَّعُ البصرة ابن الزبير ، ويولّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً ، ويحارب الأزارقة ، ويوجه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهِزُ عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تَعْلَى بالعصبيات القبلية . ووكيلها الحاجج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده عملاً شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعياً أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يَعْزِلُ أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

ابن مسلم الباهلي . ونراه يولّى على الجيوش الغازية في الهند محمد بن القاسم الثقفي . ومعروف أنه كان يُنِيب عنه في حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفي . وولّى على أصبهان ختنه مالك بن أسماء الفزارى . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها في البصرة لعهد الحجاج . ويتوفى سنة ٩٥ . ويتوفى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه سليمان أخوه ، فيولّى على العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب . فيعظم شأن قبيلة الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة في البصرة حين يتولاها شخص منها ، وكان ذلك يزيد في تنافس قبائلها واشتعال العصبية بينها ، لما يستتبع من المغنم السياسية في تولي الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولّى عليها عدى بن أرطاة الفزارى ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ، فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعه بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلول جيشه هلال بن أحوز المازني التميمي فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولّى يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولّى عليه عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُشر عليه الأزد وربيعه وحدهما ، فقد أثار عليه أيضاً تميمًا وشاعرها الفرزدق . ويكلى الخلافة هشام ابن عبد الملك ، فيعزل ابن هبيرة ، ويولّى خالد القسري لنحو خمسة عشر عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطّر الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وبذلك رفعت قيس رأسها ، وعادت إلى سابق مكانتها . ومن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولايتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسى .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبية القبلية ، ومن ثم كانت المحور الذي دار عليه شعرها ، إذ تحول كل شاعر يفخر بقبيلته مصوباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحليّفين اللذين تحدّثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربّعة ومن انضمّ إليهما من القبائل البينية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكونّ من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا وفا شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنمَّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد بمدحهم وبأخذون جوائزهم . ولنا أنفأ إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حِطّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضتهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير . ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، ومن اشتهروا منهم يزيد بن مفرغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمير مثل حارثة بن بدر الغداني التيمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جنّدت البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان ، فكان طبيعياً أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبية القديمة . وكان مما زادها

ضراوة في نفوسهم أن قواد الجيوش المحاربة كانوا يكافأون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التي يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسند إليه ولاية يخص قبيلته بالغنم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهي موجدة أدت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلو فيها القبيلة كما كان يعلو النار على كل شيء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان في نفس الموقف الذي كان عليه أسلافهم في الجاهلية ، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقاً كانوا يُشغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلاً عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهي حرب عادت فيها العصبية جندة .

وقد بدأت هذه العصبية تستتعر هناك في نفس الوقت الذي بدأ استعمارها فيه بالبصرة . أي بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزدي وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعماء عبد الله ابن خازم السلمي القيسي . واستطاع أن يجمع السلطان في يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يندخل في طاعته على أن يُطعمه خراسان سبع سنين ، وأبى ابن خازم ، غير أن نائبه في مرو : بكير بن وشاح التميمي ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية في طاعة بني أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي . وضمّها إلى الحجاج ، فولّى عليها في سنة ٧٨ المهلب الأزدي بعد قضائه على الأزارقة . فقدّمها يصحبه شاعره كعب الأشقر الذي طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حبيب التميمي ونهار بن تَوْسعة اليشكري البكري وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفى المهلب سنة ٨٢ ، فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً . وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه في فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويعزله الحجاج لعصبية الشديدة للأزدي

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل ، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً ، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلى فى سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً ، فضى يفتح فى طخارستان وأرض السَّغْد وخوارزم وسمرقند ، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو فى أوج مجده . وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وَلّى الخلافة بعد أخيه الوليد ، وكان حانقاً على الحجاج وعَمَّاله ، وخشى قتيبة على مصيره ، فثار عليه ، وسرعان ما انفصت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعهم تميم ، لأنه كان قَتَلَ منها نفرأ من آل الأَهم ، وأساء معاملته بطلها وكيع بن أبى سُود . وتزعَّم وكيع حربته ، وانضمت إليه الأزد . وكانت مغیظة منذ عَزَلَ المهالبة وانضمت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حَيَّان النبطى ، وأخيراً خذَلته قيس إلا نفرأ من عشيرته باهلة ، فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبى سُود ، فأخذ الناس بالعنف . فعزله . وزلّى يزيد بن المهلب ، جامعاً له بين خراسان والعراق . وقد مضى يتَّبَع سياسة قبلية جاحمة ، إذ رفع من شأن الأزد . وملاأ بها الوظائف . وجعل لها القسط الأكبر فى الغنائم . وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره فى أداء الفِىء ، وكان قد بالغ لسليمان فى بعض كتبه . فقال إن الفِىء فى بعض حروبه كان قناطير من الذهب ، وزعم أن خُمُسَه بعد أن أخذ كل محارب حَقَّه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفى رواية ستة آلاف ألف ، فلما طلب منه عمر ذلك ، ولم يستطع أدائه حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة ، ولم يكتف بعزله وحده ، فقد عزل كل ولاته الأزدیین ، وبذلك سَقَط أو هوى نَجْمُ الأزد ، وقد ولى عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى . ودخلت فى عصر يزيد بن عبد الملك ، وتولاها غير قيسى ، ولا يلبث أن يُطْلَعُها عهد هشام بن عبد الملك ، وفيه تصبح تابعة لخالد القسرى والى العراق ، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن ، فارتفع شأن الأزد . ونراه يَنِيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه فى سياسته ، فالتهمت العصبيات القبلية التهاباً ، وامتشتت الحسام الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى وقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وعُزلت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُلَامي القيسي ، وخلفه عليها الجنيد بن عبد الرحمن المُرسي سنة ١١٢ وعُزل عنها في سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي. وفي عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمى هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذا انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يحاهدهم ، حتى عُزل في سنة ١١٧ وولى مكانه أسد القَسَري للمرة الثانية فضيَّقَ الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد في العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفي ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفي عهده اشتدت العصبية اشتداداً مروّعاً واشتد معها الشجار والقتال في كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراساني . وعشنا يصيح نصر بن سيار بمجنوده أن يتداركوا الأمر^(١) وتكون نهاية بنى أمية .

ويفيض تاريخ الطبري بأشعار الشعراء في هذه العصبية التي احتدمت هناك وفي وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط في خراسان نشاطاً عظيماً ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية . وحيثما وجدت المضربين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فأُخِمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن معبدان الأشقري ونهار بن توسعة وثابت قُطْنَة والمغيرة بن حَبَشَاء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مَن هُولاَ الشعراء مَن كان فارساً مقدماً مثل ثابت قُطْنَة وكعب بن معبدان ، وكان من هولاَ الشعراء الفرسان من يقع في حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ، فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبي جليدة اليشكري^(٢) ، وأعشى همدان^(٣) . وكان بين المحاربين كثيرون يحنّون إلى ديار

(١) خبرى ٣٦/٦ وما بعدها والأخبار الطوال (٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٥، ٣١٩/١١

للدنوري ص ٣٦٠ . (٣) أغاني ٣٤/٦ وما بعدها .

قومهم في الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الرب في مرضه مشهورة^(١). وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية في حبسهم ، فيرحلوا إلى الثغور ، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليأس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضّة على نحو ما نجد عند الصمّة القشيري^(٢) الذي مات غازياً بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر في الشام لهذا العصر إلى ما انبثّ منه في خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت في جمهورها قبائل يمنية ، وهي لا تبلغ في الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبثته بيئة الشام في هذا العصر هو عدى بن الرقاع العاملي ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح ، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء في موقعة مَرَج رَاهِط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعه طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

وما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعر الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين بمدحهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابن قيس الرقيّات ونصيب والأحوص وكثير وإسماعيل

(١) أغاني (ساسي) ١٦٢/١٩ وقيل الأمال (٢) أغاني (دار الكتب) ٢/٦ .

ابن يسار النسائي وطُريّج الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَير السَّلُولى وأرطاة بن سُهَيْبَة وعقيل بن عُلْفَة وابن ميسادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبير الأسدى وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلمَتون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهلهم يُجَرِّ الحقائق . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفرأ من المضريين شاركوا فيها ، فعجى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهذلى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم^(١) واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً^(٢) .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلف عن العناصر المضرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تتقدم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار . فكان طبيعياً أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسة الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارة للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لاريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تنفس فى جوالثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ماظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقاً نجد فيها أشعاراً كانت تُنظم من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبنوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى ززمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ - ٨٥ هـ) وأشعاره المنسوبة إليه لا ترقى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافتد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بحراً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوب أمثال كثير وابن قيس الرقيات ونُصِيب وجميل وأيمن بن خُزَيم وعبد الله بن الحجاج الثعلبي . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فصر لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسي ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها
وال على شاكلة عبد العزيز بن مروان ، يترحل إليه الشعراء ويمدحونه . وكذلك
الشأن في الأندلس المفتوحة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحها قبائل
يمنية ، ومن ثم لم يزهو الشعر بها ، بل ظل ذاوياً ذابلاً إلى نهاية العصر .

وطبيعي أن يكون النشاط الشعري في اليمن خامداً ، لأنها لم تُجَلِّ فيه من
قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبية والثورات التي تدلّع ألسنة الشعراء على نحو
ما مرّ بنا في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء
لمديح ولاتها على شاكلة أبي دَهْبل الجهمي الذي اشتهر بمدح ابن الأزد
المخزومي وإلى ابن الزبير^(١) . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر
هذا العصر أخذ الشعر يجري على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر
هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدي الذي ترجم له ياقوت
في معجمه^(٢) .

الفصل الثاني

مؤثرات عامة في الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك في اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة في أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة في جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها في الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه في العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التي لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعد اللسان العربي خاصاً بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع في شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيأ لتعربها نظام الولاء الذي أخذ به العرب أنفسهم في فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب في ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كي يدخلوا في هذا الولاء ويتنسبوا فيمن يؤثر من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى في المدن التي اختطها الفاتحون لمسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ، فإن العرب اختلطوا فيها وفي غيرها من المدن بالأجانب الذين قد ملأهم خدماتهم في الحرف والزراعة والتجارة ، وغصت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم في حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسراى والحوارى . وظهر أثر ذلك في أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأسماء أجنبية ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالي زواجاً وولاء لم يكن تأثر الموالي به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا في التعرّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة في المغرب والأندلس اللاتينية وفي مصر والشام اليونانية والسريانية وفي العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من السنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشِيَّة وضُحَاها ، فقد أخذ التعرّب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفي أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن تُحييت إلى حد كبير — بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية — فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هي اللغة العامة التي يتخاطب بها العرب مضربين ويمنيين في كل مكان ، وإن ظلت من الماضي آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالي تطور ثان في لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسّطة ، حتى يفهم عنهم الموالي ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفي أثناء ذلك كانوا يستعرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة في الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويَعْرِض علينا الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التي جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك»، وكانوا يسمون السوق «ازار» والقِشَاء «خياراً» والمجدوم «وَيَذَى»^(١) وكانت الفارسية شائعة في البصرة ويتضح ذلك في دخول مقطع «آن» الفارسي على كثير من أسماء القطائع مثل «عمران»^(٢) «لعمربن عبيد الله بن معمر و«سُوَيْدَان» لسويد بن منجوف السَّدُوسِي و«خالدان» لخالد بن أسيد و«مهلَبان» لآل الملهب. وما يدل على شيوع الفارسية في البصرة ما يَرُوى من أن يزيد بن مفرغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد في ولايته عليها سقاها نبيذاً وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المُرزية، فتجمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية أين جيس؟ أى ما هذا، فكان يجيبهم بلسانهم^(٣) :

آبَ ائْتُ نَيْدُ ائْتُ عَصَارَاتِ زَبَبَ ائْتُ
سُمِيَّةَ رُوسِيَّ ائْتُ

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسُمِيَّة : أم زياد . وروسِي : الخنزيرة . أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسُمِيَّة الخنزيرة ، ويريد البَغْي . ويلاحظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة في المدينة مع من نزلها من الفرس، ولذلك سمو البطيخ «الخِرْبَز» والسِمِيط «الرزق»، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل «المزور» والشطرنج «الإشترنج» وغير ذلك من الأسماء^(٤).

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية ، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجريير اللذين عاشا في البصرة ، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة «البِذْق والبياذق» المعروفة في لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْسَنْق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً^(٥) :

(١) البيان والتبيين ١٩/١ وما بعدها . (٤) البيان والتبيين ١٩/١ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٣ وما بعدها . (٥) نقائض جريير والفرزدق (طبعة بيغن)
ص ٧٨٧ . (٣) البيان والتبيين ١٤٣/١ .

ونحن إذا عَدَّتْ تَمِيمٌ قَدِيمَهَا مَكَانُ النَّوَاصِي مِنْ وَجْهِ السَّوَابِقِ
 مَنَعْتُكَ مِيرَاثَ الْمَلُوكِ وَتَاجِهِمْ وَأَنْتَ لِدَرْعِي بَيِّذُكَ فِي الْبِيَاذِ
 فهو يجعله بيذاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم في إحدى أهاجيه
 للفرزدق كلمة « الرُّوْذِقُ » الفارسية بمعنى الحَمَلِ المتتوِّفِ وبَره بعد سَلَقِه ،
 ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول في
 جِعْتَنَ أَخْتَ الْفَرَزْدَقِ (١) :

لَا خَيْرَ فِي غَضَبِ الْفَرَزْدَقِ بَعْدَمَا سَلَخُوا عَجَانِكَ سَلَخَ جِلْدِ الرُّوْذِقِ
 سَبْعُونَ وَالْوُصْفَاءَ مَهْرَ بَنَاتِنَا إِذْ مَهْرُ جِعْتَنَ مِثْلُ حُرِّ الْبَيِّذِ

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا
 كان ابن مفرغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه
 شعراء من الزنج مثل رباح (٢) ومن الهند مثل أبي عطاء السندی .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكْنَاتِ هؤلاء الموالى ، فإن
 كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً في نطق بعض حروف العربية التي لا توجد
 في لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ في البيان والتبيين صوراً مما كان يجري على
 ألسنة عامتهم من هذه اللُكْنَاتِ ، حتى لتُفْسِدَ العبارة العربية لإفساداً ، فن
 ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْدِ السُّلْطَانِ ؟ فأجابه :
 « شر يكاننا في هوازا وشر يكاننا في مداينها ، وكما تجيء تكون . » ولم يفهم
 الحجاج ما يقول فقال له وبلك ما تَعْنِي ؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع
 الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا
 بالأهواز وبالمداين يبعثون إلينا بهذه الدواب » ، فنحن نبيعها على وجوهها (٣) ،
 ومن ذلك أن أم ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرْدَانُ فِي عِجَانِ أُمِّكُمْ »

رياح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان

ذلك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٦١ .

(١) التقائض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضاء

لجاحظ وأمال ابن الشجري . (طبعة كرنكو)

١٩٤/١ وقد اختلف في اسمه هل هو رباح أو

فأبدلت الذال من الجرّ ذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء
في أم ولد له يذكر لُكْنَتَها :

أَوَّلُ ما أسمع منها في السُّحَرِ تذكيرُها الأُنثى وتأنيث الذكر
والسوءة السوءاء في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر^(١) . وكانت آثار من هذه اللكنات تجرّى على
اللسنة فصحاء الموالي ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي ، حتى
أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلُصّ ، نذكر من
بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنَةَ فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين
همزة والطاء تاء والسين شيئاً^(٢) ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتَى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةً إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليل
فقال : « زاده الشلتان^(٣) » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً
ينشد شعره^(٤) . وكان أبو عطاء السندی وهو ممن عاشوا في العصرين :
الأموي والعباسي يبذل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب
مدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره^(٥)

ولم تجر هذه اللكنات على ألسنة الموالي وحدهم ، فقد تسربت منها بعض
الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ،
على نحو ما يحدثنا الرواة عن عبید الله بن زياد وإلى العراق ، إذ استبقاه
أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبذل الحاء هاء
والقاف كافاً ، فإذا قال : أَحَرَرَوْرِيَّ أنت ؟ قال : أهروري أنت ؟ وإذا قال
قلت لك قال : كلت لك^(٦) . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلُوا
سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجو بقوله^(٧) :

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ٧٣/١ . | (٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٩/١٣ . |
| (٢) البيان والتبيين ٧١/١ والأغاني (طبعة السامي) ٩٩/١٤ . | (٥) الشعر والشعراء ٢/٢٠٧ وراجع الأغاني (طبعة السامي) ٧٩/١٦ . |
| (٣) البيان والتبيين ٧١/١ والكامل للبرد | (٦) البيان والتبيين ٢/١ . |
| (طبعة رايت) ص ٢٦٦ . | (٧) البيان والتبيين ٢/٢١٠ . |

ويوم فتحت سيفك من بعيدٍ أضعت وكلُّ أمرك للضياع
ويُرَوَّى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكنته:
« إن ابنك كما وصفت ولكن قَوْمٌ من لسانه »^(١)

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك في مراكز الشعر
الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث في العراق من هذه
اللكنات كان يحدث في المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقرن بهذه اللكنات
لحنٌ كثيرٌ بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غادٍ ولا رائجُ

وكان القياس أن يقول : « ليس غادياً ولا رائحاً »^(٢) . ويظهر أن اللحن شاع
على السنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عني خلفاء بني أمية بتأديب أولادهم
ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، ومما
يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لص » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين
قُتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبي فديك » وقال مرة :
« يا غلام رُدَّ الفرسان الصادَّان عن الميدان »^(٣) .

واتسع هذا اللحن في الكوفة والبصرة حتى لئرى الحجاج المعروف بفصاحته
ولسَّنه ونشأته في البداية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يعمر : أسمعني
الحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس ، فقال الحجاج : عزمتُ عليك أسمعني
الحن ؟ قال : حرفاً ، فقال الحجاج : أين ؟ قال : في القرآن ، فقال : ذلك
أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب .
وكأنه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع
لى لحناً أبداً^(٤) . وكان خالد القسري مع ما اشتهر به من فصاحته لحناناً ، ويُرَوَّى

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبِيُّونَ فإننا رمضانِيُّونَ » . وفيه يقول يحيى بن نوفل ^(١) :

وَاللَّحْنُ النَّاسِ كُلُّ النَّاسِ قَاطِبَةٌ وَكَانَ يُوَلِّعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطْبِ

وَيَرْوَى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبي بُرْدَةَ وإلى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه ، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقِّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلُ به واقصد لحجتك ^(٢) ، ومن عُرِفَ في خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم ^(٣) ، وكان سليمان بن عبد الملك في دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخّم اللحن كما يفخّم نافع بن جبير الإعراب ^(٤) .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرّد جماعة من العلماء وخاصة في البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحوياً ، حتى لو اضطرتهم إلى ذلك القافية ، واشتهر في هذا الجانب عبد الله بن أبي إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحدّثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجع حتى قال فيه بيته المأثور :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ هَجَوْتُهُ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلىَ مَوَالِيَا

فتعرض له ابن أبي إسحق قائلاً : كان يحسن أن تقول : مولى موال ^(٥) . على أن الفرزدق لم يُعرَفَ بضعف في الحسّ اللغوى لأنه نشأ في البادية ، إنما الذى عُرِفَ بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا في المدن مثل الطّرمّاح والكُمَيْت . ويسجّل الرواة على الطرمّاح أنه كان يَسْتخدم الألفاظ البدوية الغريبة في شعره استخدماً غير دقيق ^(٦) ، وأنه كان يَتَكَلّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين في شعره ^(٧) . ولم

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .

(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢١٧ .

(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .

(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغاني (طبعة دار

الكتب) ٣٦ / ١٢ .

(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك في أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يشترك الطرماح في ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية ^(١) ، ويرَوَى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره ، وسأله رأيَه فيه ، فقال له : « إنك لتقول قولاً ما يتقدّر إنسان أن يقول لك فيه أضبتَ أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، إنما يصف شيئاً وُصف له ^(٢) ، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح في اللغة ^(٣) :

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم في الحضر ولم يتعدّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسي حتى يضع اللغويون خطأً فاصلاً بين الشعر القديم الجاهلي والإسلامي والشعر العباسي الحديث الذي سموه شعر المولّدين وهو خط فَنَصَلُوا به فصلاً تاماً بين الشعر الفصيح الذي يمكن الاستشهاد به في اللغة والشعر الذي لا يُعْتَدّ به في هذا الاستشهاد . وقد اعتدّوا بشعر الجاهليين والحضرّيين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نقرأ من العرب أمثال الطرمّاح والكميت متخذين النشأة في الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفى والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره في موضوعات الشعر

طبيعي أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عسير وعظهم ونُسكهم ، سواء في المساجد الجامعة أو في مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) (٢) أغانى (سالى) ١٢٠/١٥ .

(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد في متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادي الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة ، مما هيأ لظهور الغزل العذرى بل لشيوعه ، وكأنما أضفى الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الخلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا في احتياط ، بل إذا هو يرى دنوها صعباً أى صعب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشف عن ألمه وعذابه في حبه ، وهى شكوى يضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جميل^(١) :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبها ولا بد من شكوى حبيب يروغ
ألا تتقين الله فيمن قتلته فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع
فيارب حبيبي إليها وأعطني الـ مودة منها أنت تعطى وتمنع
ونرى الغزلين جميعاً عذريين وغير عذريين يستلهمون في غزلهم بعض
الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران ، يقول عمر بن أبى ربيعة^(٢) :

فديتكَ أطلقي حبلِي وجودي فإن الله ذو عفوٍ غفورٍ
وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم في القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ،
ونرى الفرزدق يفصل هذه الفكرة تفصيلاً في إحدى مقطوعاته ، فيقول^(٣) :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةٍ إننى أخشى عليك بنى إن طلبوا دى
فإذا حلفتِ هناك أنك من دى لبريئة فتحللى لا تأثمى^(٤)
فلئن سفكت دما بغير جريرة لتخلدن مع العذاب الألام

بيت هـ .

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار

(٣) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ٧٧٨/٢ .

ص ١١٧ .

(٤) تتحلل من الإثم : تستثنى .

(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠

ولئن حملتِ دمي عليك لتَحْمِلُنْ ثِقْلًا يكون عليك مثل يَلْمَلِمُ^(١)

وإذا كان الفرزدق توسّع في فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل في غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمين يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخّص في اللَّمَمِ ، يقول^(٢) :

إذا قلتُ يوماً نَوَّلَني تَبَسَّمتُ وقالتْ معاذَ الله من فعل ما حَرُمُ
فما نَوَّلْتُ حتى تَضَرَّعتُ عندها وأعلمتُها مارحُصَ الله في اللَّمَمِ
وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذي كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تمتزج بمعاني الحب والفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح ، وثبّت هذا التصوير في مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عنهما ، فضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية في الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بني أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار ديني لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثلاً حقاً للحاكم الأموي التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يُطِيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيِّر^(٣) :

وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِياً كُلُّ مُسْلِمٍ
وَقَدْ لَبِسْتَ لِبَسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ
وَتَوَمَّضَ أَحْيَاناً بَعِينٍ مَرِيضَةٍ وَتَبَسَّمُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ

(١) يللم : جبل على مرحلتين من مكة . (٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ١٢٣/٢ .

(٢) أغاني ٣٢٨/٦ .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَدُوفًا مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَمَ^(١)
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُونِقًا وَآثَرْتَ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مَصْمَمٍ
 وَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلدِّيْ أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٍ
 وَهُوَ لَا يَصُورُ فِي عَمْرِ التَّقْوَى فَحَسْبُ ، بَلْ يَصُورُ فِيهِ أَيْضًا الزُّهْدُ
 وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِهَا وَمَتَاعِهَا الزَّائِلُ الَّذِي يَغُرُّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ . وَتَتَسَعُ
 هَذِهِ الصُّورَةُ فِي مَدِيحِ الشَّيْعَةِ لِأَتَمَّتْهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا نَجَدُ فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُتُبِ
 وَفِي شَعْرِ أَيْمَنَ بْنِ خُرَيْمٍ إِذْ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ^(٢) :

نَهَارَكُمْ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلَيْلَكُمْ صَلَاةً . وَاقْتِرَاءُ
 وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكِّي فَاسْرِعْ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ

وَعَلَى نَحْوِ مَا تَأَثَّرَ الْمَدِيحُ بِالْإِسْلَامِ وَمِثَالِيَّتُهُ الرُّوحِيَّةُ تَأَثَّرَ الْهَجَاءُ ، إِذْ أَخَذَ
 الشُّعْرَاءُ يَهْجُونَ خُصُومَهُمْ بِانْحِرَافِهِمْ عَنِ الدِّينِ ، فَأَطَالُوا فِي وَصْفِهِمْ بِالْفُسُوقِ
 وَالبَغْيِ وَالطَّغْيَانِ كَقَوْلِ جَرِيرٍ فِي آلِ الْمُهَلْبِ^(٣) :

آلُ الْمُهَلْبِ فَرَطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَعَوْا كَمَا فَعَلْتَ ثُمُودُ فَبَارُوا
 وَدَائِمًا يَرَى شُعْرَاءُ الشَّيْعَةِ الْأُمَوِيِّينَ بِالظُّلْمِ وَانْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ وَتَعْطِيلِ أَحْكَامِ
 الدِّينِ وَابْتِدَاعِ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُمَيْتِ^(٤) :

لَهُمْ كُلٌّ عَامٍ بَدْعَةٌ يَحْدِثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
 كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِءْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
 تَحِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

وَاشْتَدَّ لُحْبُ الْهَجَاءِ — كَمَا قَدِمْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ — بِتَأْثِيرِ الْعَصَبِيَّاتِ ،
 وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَجِبُ مِنْهُ خَلِيفَةُ وَلَا وَاوِلٌ وَلَا شَرِيفٌ ، بَلْ حَتَّى الْقُرَّاءُ كَانَ يَتَرَضُّ لَهُمْ
 الشُّعْرَاءُ ، وَخَاصَّةً إِذَا رَأَوْهُمْ يَدَاجُونَ أَوَّلَى الْأَمْرِ . فَكَانُوا يَرْمُونَهُمْ بِالنِّفَاقِ وَأَنَّهُمْ

(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢١٩ .

(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

(١) مدوفًا : مزيجًا .

(٢) أغاني (ساسي) ٦/٢١ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة
ساخراً من إحدى طوائفهم (١) :

أما النبذ فلا يذَعْرَكَ شاربُهُ واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يُؤارُونَ عما في صدورهم حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء
مشرّين إلى أنصاف سُوقهم هم اللصوص وهم يُدْعَوْنَ قراء

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى في تأثيره بالإسلام من
شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنظَّمُ أكثره في الجهاد ، ومعروف أنه كان
دائماً في صفوف المحاربين قُصَّاصٌ ووعاظ يُحْثُونهم على الاستشهاد في سبيل
الله ، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التي نُظمت
في خراسان إلى مواظ خالصة ، كقول نصر بن سيار (٢) :

دَع عَنْكَ دُنْيَا وَأَهْلًا أَنْتَ تَارِكُهُم ما خَيْرُ دُنْيَا وَأَهْلٍ لا يدومونا
وَأَكْثَرُ تُقَى اللَّهِ فِي الْأَسْرَارِ مَجْتَهِدًا إن التَّقَى خَيْرُهُ ما كان مكنونا
واعلم بِأَنَّكَ بِالْأَعْمَالِ مُرْتَهَنٌ فكنْ لَذاكَ كَثِيرُ الْهَمِّ مَحْزُونًا
وامتَحْ جِهَادَكَ مِنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةً وَكنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لا يصلُّونا
فاقتلهمْ غَضَبًا اللَّهُ مُنْتَصِرًا منهم به ، ودعِ المِرْتَابَ مَفْتُونًا

وواضح أن نصرًا يزهد في الدنيا وتاعها القاني بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو
إلى التقوى في السر والخفاء مذكرًا باليوم الآخر وما ينبغي أن يُستخذ له من ذخِر
الجهاد والذب عن دين الله ، وبيع النفس في محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على
الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغي جهادهم حتى
يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم
ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغْنِمُ سُسُ غمساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) (٢) طبرى ٤٣٣/٥ .

في العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفي سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجي أن يُقْتَلَ حتى يُكْتَبَ في سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربهم يسيل بالدعوة للاستبسال في الحرب وجهاد هذه الفرقة التي زاغت في رأيهم عن طريق الهدى ، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقر في ملحمة الطويلة التي وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم^(١) :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَدُوا بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا
جاروا عن الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّذُرُ
وكان كثير من يُقْتَلُونَ في هذه الحروب ، فكان الشعراء يندبونهم ندباً حاراً ،
مازجين ندبهم بما ينتظرون من نعيم الخلد ، كقول الضحاك بن قيس يرثي بهلولاً
الصفري الذي خرج لعهد هشام بن عبد الملك وقُتِلَ^(٢) :

يَا عَيْنُ أَذْرَى دُمُوعاً مِنْكَ تَهْتَانَا وَابْكِي لَنَا صُحْبَةً بَانَا وَإِخْوَانَا
خَلُّوا لَنَا ظَاهِرَ الدُّنْيَا وَبَاطِنَهَا وَأَصْبِحُوا فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ جِيرَانَا
وتعمُّ هذه الروح الدينية في مرثي من قُتِلوا من العلويين منذ علي بن أبي طالب ، وقد تحوّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح في مرثيهم ، كقول جرير في عمر بن عبد العزيز^(٣) :

حُمِّلْتَ أَمراً عَظِماً فَاصْطَبَرْتَ لَهُ وَقَمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عَمْرَا
بل لقد طُبع الرثاء عادة بطوايع هذه الروح وما يُطَوَّى فيها من التسليم لله والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حَسَمٌ في رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرّعوا إزاده بالصبر الجميل .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذى الرمة أحسنا أن قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثر به الإسلام في الشعر الأدوى ، فإنه فجّر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على السنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر ، ونقصد ينبوع الزهد وما يُطَوَّى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا الينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرجيم^(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جاره الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدءون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمشون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثر أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكّرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرّم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصوّرين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والخيانة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والحدود والأمانة .

٣

السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر . وبذلك فَرَضَ الإسلام على كل مسلم أن يشترك في الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسي ، وهو نشاط ينبغي أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا - في غير هذا الموضع - كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فتَوَلَّى عَلَى ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صفين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتِل ، فتحوّلت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموي وأصبحت وراثية في هذا البيت . وكان الأمويون في نظر كثيرين لا يمثلون الحكماء الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عَادُوا الإسلام في أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعَدُّون مغتصبين للخلافة . وزاد في الحُنُوق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عُصَمَاءهم ظلموا الناس . ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرَّاء أهل التقوى والورع ، غير أن هذا الجمهور لم يكون حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط في الناس ، واشترك منه نفر في بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقيم بثورة منظمة . على أنه ينبغي أن نشير إلى ثورة المرجئة في خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج ، وسنعرض لها في حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التي نشأت فيها المعارضة لبني أمية . وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذ البيعة على ذلك من أهل الأمصار ، فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولي الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشد دعوى هؤلاء الثلاثة في أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رخصة ، فبايع عبد الله بن عمر ، وفَرََّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته . فخرج وقتل بكر بلاء على حرد العراق . أما ابن الزبير فعاد بالبلد الحرام الذي لا يحل فيه القتل وسفك الدم ، ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً ، فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبير على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلَح هذا الجيش في مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفي هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرافها ، ولما مَلَّوْا بين يديه أكرمهم وأعظم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قلعنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطناير وتَضْرِبُ عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفُتَيان ^(١) » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي ونشبت بين الفريقين معركة الحَرَّة المشهورة التي استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، وقد بكأها من الشعراء كثيرون ^(٢) . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفَّى مسلم في طريقه ، فخلفه الحصين بن نُعمير السَّكُونِي ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءت بوفاته يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيَّا ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير ، فإن الأمصار اضطربت على ولاية بنى أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولائها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت في طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفي دعا لابن الحنفية (أحد أبناء علي من سيدة من بنى حنيفة) في الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذي انتقم منه بحبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُبَاع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفي وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول في طاعة ابن الزبير . وتلقانا في هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة في الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس في موقعة مَرَج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

(١) طبرى ٢٦٨/٤ . معجم البلدان لياقوت .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ . وراجع كلمة حرة في

عبد الملك . فترث في القدوم على مصعب بجيوشه . حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفي . ويُسْعَلُ مصعب بعد المختار بالخوارج ، ويقدم عبد الملك فيقتضى عليه ، ويرسل الحجاج إلى ابن الزبير بمكة ، فيهمزه ويقتله في سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فضالة بن شريك هجاء مرأ^(١) . أما مصعب فكان جواداً ممدحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر^(٢) :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير في مكة دخل الحجاز في طاعة بني أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة في البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة في الكوفة ، وكان فيه كثير من أشرف العرب الذين كانوا يعدون بني أمية غاصبين للخلافة . ومراً بنا في غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب . وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة في عهد المغيرة بن شعبه وإلى الكوفة^(٣) ، ومرة ثانية في عهد مصعب ، ومرة ثالثة في عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجل ذلك بعض الشعراء في أشعارهم^(٤) .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس في شيء إلى ثورات الخوارج التي امتدَّ لها إلى أركان كثيرة في العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين علي ومعاوية وما كان من رضا علي به ، فقد تنادى فريق من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلاً هاجروا إلى حرّ وراء القرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية . وسمّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لئلهم هم الذين سمّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

(١) أغاني ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها . (٣) البقوي ٢/٢٦٢ .

(٢) انظر الأغاني ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ . (٤) طبري ٥/٣٣٨ وما بعدها .

والطبري ٤/٥٩٢ ، ٩/٥ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وَتَمَوَّأُوا أَنْفُسَهُم الشَّرَافَةَ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَ : (ومن الناس من يَشْتَرِي نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذي أثارهم أنهم رأوا علياً ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً في سبيل الله وسبيل دينه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا علياً ، ولكنه نكّل بهم في موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجَمُ المرادي أن قتله لينال رضا امرأة منهم ^(١) . وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فأرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغي أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهي ليست حقاً لقريش ، إنما هي حق لله وينبغي أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشياً . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التي ارتضت الأمويين وما ثبته من نظام الوراثة للخلافة في بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السحّر في كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . ونراهم يُغْصِمُونَ سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج في الكوفة بقيادة المستورد بن علفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقْضَى عليهم . وتبدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبَيَّان وينتظروهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور في الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان في البصرة ، وهي لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطروا معه إلى الاستتار . وخلقه ابنه عبيد الله فضى في سياسته ، وعسف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أُدَيَّةَ ومن نسائهم البساجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج في أربعين رجلاً إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمي عبيداده ألقان ، غير أن الجيش هُزِمَ هزيمة نكراء عند « أسك » فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة ^(٢) :

أَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَرَكْنَ الْخَوَارِجُ مُؤْمِنُونَ
هُمْ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُّونَا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعَةَ بن أسلم العامري ، فلم يكن
حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة
فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقاتله
فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبي بلال في خروجه
شعراً^(١) وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سَيْسِيَّسِيَّ لابن الزبير
في مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدَّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام .
وتوفى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضَّ الخوارج من حول ابن الزبير ،
إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفي مقدمتهم نَجْدَةُ بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق
وعبد الله بن الصَّفَّار وعبد الله بن إياض ، وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يَدْعُونَ
لحاربة السلطان ، وساعدتهم في شغبيهم فرار عبدة الله بن زياد عقب وفاة يزيد
إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزدي ومن آزرها . وانهز نافع بن الأزرق
الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمَّال ابن زياد ،
وتخلَّف عنه نَجْدَةُ بن عامر وابن الصَّفَّار وابن إياض ، إذ رأوه يغلو في آرائه ،
وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب
تحريم دُبابِهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نساءهم وأطفالهم ،
وسلَّك ابنُ الأزرق معهم القَعْدَةَ من الخوارج . وخالفه في كل ذلك الثلاثة
الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لِمَسْكِهِم بالتوحيد
والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثمَّ يحلُّ التزوج منهم كما يحلُّ التوارث
بينهم وبين الخوارج ، وحقاً يجب جهادهم ولكن لا يصحُّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التي استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير ^(١) .

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وُعمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة في عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه في اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أباً فُدِيك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم في سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُفْرية في الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعّاظهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم في سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتِل في إحدى الوقائع ، فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غزالة وأمه جتهيزة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسة قواد أرسلهم إليه واحداً بعد واحد . ودخل في بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج في الكوفة ، فهُرِعَ إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جعله بالعار . وفي إحدى حروبه نفرّ به فرسه فغرق في نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكره بقيت خالدة في ذاكرة الحوارج . وظل صُفْرية الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم في عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة شوذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده في عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسري ، وكان آخر ثوّارهم الضحّاك بن قيس الذي استولى على العراق في سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلياً خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي ^(٢) :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصلّت قريش خلف بكر بن وائل

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ - ٧٠٣ . في مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك

(٢) البيان والبيان ١/٣٤٣ وانظر في الأحداث الطبري الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباح المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتى ظهر من أتباعه في سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق في حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهز جيشاً بقيادة أبي حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أمويّاً لقيه في وادي القرى وهزمه هزيمة ماحقة فترّ على إثرها إلى مكة ، وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش ففضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بنى أمية جهراً وسراً ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويضطّرّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا في غير هذا الموضع حتى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقبل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقتل في كربلاء ، ويتحوّل قتله في نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلاً وحرّاً لا ذعة^(١) . ثم تكون حركة التوابين بزعامه سليمان بن صرد ، ويُقتضى عليها ، ويبكيهم أعشى همدان في قصيدة طويلة كانت من المكتّمات في أيام بنى أمية^(٢) .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صرد قيادة الشيعة في الكوفة . فيخرج عنها وإلى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية . وهو — كما أسلفنا — ابن لعل بن أبي طالب من امرأة من بنى حنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كيسان . وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية في الأسس التي قام عليها التشيع ، وهي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعل ، فهي ليست مفوّضة للأمة ، بل هي تنتقل بالوصية في على وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً طريقته النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ . وكان

(١) انظر الطبري في حوادث سنة ٦٠ ومقاتل . ص ١٢٦ .

(٢) طبري ٤/٧٢ . الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (طبع الخبائي)

ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزباني

يغلو في تصور على ، حتى اتقد زعم أن به قبساً إلهياً ورثه عن الرسول . وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر . وبذلك أشاع فكرتي الحلول والتناسخ ، وأيضاً فتد زعم أن علياً سيعود فيملاً الأرض عدلاً وعلماً ونوراً ، وبذلك وضع أسس فكرة الرجعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلت إلى الكيسانية^(١) وزاد المختار عليها شعوذات^(٢) كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبداء على الله أى أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدث شيء ، فإن حدث جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بدأ لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر الذي يختص العالم من شروبه ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياحه كرسياً غشاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهو منكم بمنزلة التابوت في بنى إسرائيل . وكان يكثر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء . وفي ذلك يقول سرافة^(٣) البارقي وقد فتر عنه^(٤) :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دهماً مصمتات^(٥)

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً على قتالكم حتى الممات

الطوال للدينورى ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه في القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٥٢٧/٤ وأغانى ١٣/٩ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمتات : لا يتخالط دهماً لون آخر .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) انظر في ترجمة سرافة الطبرى ٥٢٦/٤ وما بعدها والأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦٩/٦ والأخبار

ويقول أعشى همدان^(١) .

شهدتُ عليكم أنكم سَبَّيْتُهُ وَأَنى بكم يا شُرْطَةَ الكُفْرِ عارفُ
وأقسم ما كَرِسِيَّتُكم بسَكِينَةٍ وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللِّفائِفُ^(٢)
وإن لُبَسَ الثَّابُوتُ فُتْنًا وإن سَمْتُ حَمَامٌ حَوَالِيهِ وفِيكُمْ زَخَارِفُ^(٣)

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هي فرقة الزيدية أتباع زيد بن علي الذي ثار في الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتِلَ كما مرَّ في غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته في الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص في الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوز لإمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جَوَّزَ لإمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، وذهب إلى أن كل فاطمي عالم زاهد سخي شجاع قادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية — في نشأتها — من أكثر فرق الشيعة اعتدالاً^(٤) ، وشاعرها الأول الذي عاش يردُّ نظريتها الكُفُوسِيَّت . وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتِلَ سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تتقدم من خراسان ، وتكون نهاية بني أمية .

ومن اختلف أن هذه الانقسامات العنيفة في صفوف الأمة العربية لعصر بني أمية وما جَسَّرتْ إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بنفن وحروب داخلية لو لم تُشْغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيَّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر في سبيل

(١) الحيوان ٢/٢٧١ .

ربكم) .

(٢) فتن : جمع فتن وهو الغشاء .

(٣) انظر في الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل

ص ١١٥ .

(٢) يشير إلى الآية الكرمة التي كان يقصدها

الخنار في اتخاذ كرسيه : (وقال لم نبيهم إن

أن آية ملكه أن يأتيكم الثابوت فيه سَكِينَةٌ من

الحكم ومطامعهم ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقُّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمي أو من البيت الأموي أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حمالاً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير فى المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون فى الخلافة ومن أحقُّ بها من سواد ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسَفَّسُك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهم وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تروى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، وانخذله الأمويون وخصوصهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صَبَّ فيهما من أموان ورقيق أجنبي وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصر والأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون وتأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلئ بأموال الفسيء وغنائم الحرب وما رُسِمَ لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما تُسْرِفُوا ، إذ ابتنوا التصور . وطَعِمُوا فى أوانى الذهب والنفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة . وتعطروا بالمسك وعبره من أنواع الطيب . وكان الموالى من ورائهم يهيمون بهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف ، إذ اكتظت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة . فتدحكى أنه قدَّم لهم المرقق فكانوا يحسبونهم رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجبتهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مِهْنَتِهِمْ وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المَهْرَةَ في أمثال ذلك والْقَوْمَةَ عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرُتِي^(١) فأتوا من ذلك وراء الغاية^(٢) .

وقد ورث العرب في الشام المدن هناك ولم يَمَصِّروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا في نفس المدن والدور والقصور التي كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً في سرعة تحضرهم ، إلا من أثر منهم العيش في البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التي أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قُطْر ، ثم توزَّعها في الناس من أهل الشام أولاً ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنَّ لهم ذلك معاوية الذي كان يَرِدُ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْب^(٣) ، ويؤثر عنه أنه كان يقول إننا نتمرغنا في نعيم الدنيا تمرغاً^(٤) . ويظهر إثم هذا النعيم في ابنه يزيد الذي عُرِف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويعزف بالطناير وتَضْرِب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناءؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أهبة الملك لا في قصورهم التي كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها النُسيْمُساء وصفائح الذهب وتراعى في أفنيئها النافورات فحسب ، بل أيضاً في بيوت الله . وعناية عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبته التي تُعَمِّد إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموي في دمشق وزخرفته بالرخام والنُسيْمُساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها^(٥) ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام في مكة ، فأحاله تحفة رائعة^(٦) . وما يُذَكِّرُ له من مآثر أنه عَمَّ بعطائه الخِجْدَين وقال لهم : لا تسألوا

(١) الخُرُتِي : أثاث البيت .

(٤) طبرى ٤/٢٤٧

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية (٥) الحيوان للجاحظ ١/٥٦ .

(٦) اليعتوبى ١/٣٤٠ .

بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٤/٢٩٨ .

الناس، وأعطى كل مُتَمَعِّدٍ خادماً وكل ضريح قائداً^(١). وتفنن الناس لعهدِه في بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثَّره الناس لعهدِه تأثراً واسعاً^(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى ، فقال : إنه « يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمَتْ بألف دينار... حَبَابَة عن يمينه وسَلَامَة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قَدَّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال : ألا أظير»^(٣) . وقد أرسل في طلب مغنى الحجاز ، فجاءه منهم كثيرون .

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق ، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر والآلىء كما يحدثنا الجهشيارى^(٤) ، ويروى الطبرى أن يوسف بن عمر حَمَلَ إلى هشام بن عبد الملك لآلىء حَبَّهَا أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف ، قُوِّمَ بثلاثة وسبعين ألف دينار^(٥). وقد بلغ الترف أقصاه في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء ، حتى تحوَّل قصر الخلافة في عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو ، ويقولون إنه « كان يلبس حول عنقه قلانداً ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ، ويغيرها في اليوم مراراً كما يغيَّر الثياب شغفاً»^(٦) .

ومن المؤكد أن أفراد العرب في الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه في هذا الترف الآثم ، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُنْزِلُوا ، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية . وبالمثل تحضَّر من نزلوا في النمسطاط والقيسروان والأندلس ، وكانت كثرتهم من عرب الشام ، الذين أصابوا حظاً من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً في تلك البيئة المتحضرة .

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرّون تحضرّاً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبيّاتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحولت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب^(١) ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذري في فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة نهوله كثرة القطائع التي تملّكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفير وز حصين وحسان النبطي . وكانت الحمامات تدرّ في البصرة لهذا العصر أموالاً كثيرة ، حتى ليُروى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يملكها العرب وحدهم ، بل كان يملكها أيضاً الموالى . وما يذكره البلاذري من حماماتهم حمام أعين مولى سعد بن أبي وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسواري .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة في بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذري منها قصر زربى مولى عبد الله بن عامر وقصر أبي نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر وقصر ابن الأصمهيان وقصر شيرويه الأسواري الذي سُمّي «هزارد» لأنه اتخذ فيه ألف باب . وما يدلُّ على مبلغ الثائق في بناء هذه القصور ما يُروى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعينه في بناء داره بأثني عشر ألف جِذْع^(٢) ، وكذلك ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التي سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات^(٣) ، وفي نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين^(٤) .

وتبع ذلك كله الرّفق والترف في المطعم والملبس ، حتى لنرى نفرّاً من الأثقياء يلبس الديباج والقلانس^(٥) ، ونراهم يَكْنُون عن هذا التحول في حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .
 (٢) طبري ٢٤٦/٤ .
 (٣) راجع ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة البيضاء وانظر الطبري ٤٠٢/٤ .
 (٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان والتبيين ٨٢/٢ .
 (٥) ابن سعد ١٣٩/٦ ، ٢٠٢/٦ ، ٧ ق ١٥٣/١ .

طعموا الجَرْدُق ولبسوا النَّمْرُق^(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَل إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُروى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خلَّار^(٢)» ، من النَّحْل الأَبْكار ، من الدَّسْتَفْشار^(٣) ، الذى لم تَمْسَ النار^(٤)». وما يصور هذا الرفه في العيش والتنعيم ما يُروى من أن عبيد الله بن زياد هياً لأبيه حين توفى ستين ثوباً ليكفنه فيها^(٥) ، فلم يعا الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكنى الكفن الواحد .

وطبعي أن يُعَسَّوْا في ثنایا هذه الحياة الرَّغْدَة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل^(٦) والصيد^(٧) والقَنَّص ولعبى^(٨) الشطرنج والزدوسرى أن كثير من تورطوا في لثم الخمر. وقد أخذت الكوفة تُعْنَى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُسنين^(٩) الحيرى وأحمد^(١٠) النَّصْبى ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار^(١١) ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى ، إذ نجد في القسقاط ابن أبجر^(١٢) مغنى المدينة .

ونَعِمَ العرب في خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفَتِيء الغنائم ، وفي كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ في أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إني قد رت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ في كل يوم ألف درهم^(١٣) ، ويُروى أن مصعب بن الزبير في ولايته على العراق جاءه من هناك نخلة مصنوعة من الذهب ، عتاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

-
- | | |
|--|--|
| (١) طبرى ٢٨٠/٥ . والنمرق : مفرد نمارق | (٧) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ والشعر والشمراء ٥٨٨/٢ . |
| وهي الطنافس | |
| (٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل . | (٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٨٧ . |
| (٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد . | (٩) أغاني (دار الكتب) ٣٤١/٢ . |
| (٤) البيان والتبيين ١٠٣/٢ . | (١٠) أغاني ٣٣/٦ . |
| (٥) طبرى ٤١٥/٤ . | (١١) أغاني (دار الكتب) ٦٠/١٥ . |
| (٦) البيان والتبيين ٢٥٧/٣ . | (١٢) أغاني ٣٤٦/٣ . |
| | (١٣) الجهمشيارى ص ٢٩ . |

وأخضر ، وقد قومت بألف دينار^(١) . ويُروى أن الإصهبذ في طبرستان صالح يزيد بن المهلب في بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتي ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرنس ، وعلى البرنس طيلسان ولحام من فضة وسرقة (شُقّة) من حرير^(٢) . ويُقال إن الجراح الحكيم واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقراً بملؤها ذهباً وفضة ويوزّعها على من يدخل عليه من أصحابه^(٣) . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاية خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قومت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسري بألف ألف ، وكانت قصرين : قصرأ من فضة وقصرأ من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة^(٤) . وكان الولاة يبدّونهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُروى أن نصر بن سيار أعدّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارغة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الطباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب^(٥) .

ووسط هذه الأمواج من الأموال تحضر العرب في خراسان ، بل أُتُرفوا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاة يقول إن فيسيء خراسان لا يني بمطبخي^(٦) ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطعم عليها الناس^(٧) . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلانس القصيرة والطويلة^(٨) ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير^(٩) ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضطّر بعض الولاة لتفشيهِ في الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل^(١٠) .

وفي كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفي كتاب الأغاني تراجم كثيرة لمن كانوا يُسُرفون على أنفسهم في شراب الخمر لا في خراسان فقط ، بل أيضاً

(١) الجهشيارى ص ٤٤ .

(٧) طبرى ٢٨٨/٥ .

(٢) طبرى ٢٩٥/٥ .

(٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ،

(٣) بلاذرى ص ٤١٥ .

فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن

(٤) طبرى ٤٦٥/٥ .

سعد ٢٥٥/٦ ، ٢٠٢/٦ ، ٣٩٢/٥ ، ١٣٩/٥ .

(٥) طبرى ٥٣٣/٥ .

(٩) طبرى ٤٣٧/٥ .

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٨١/١٤

(١٠) طبرى ٢٨٣/٥ .

وطبرى ١٣٢/٥ .

في العراق وفي الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت في المدينة طائفة من الخنثيين ، كانوا يتشبهون بالنساء في ثيابهن وعاداتهن من مثل تصفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحناء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنزل بهم عقاباً صارماً^(١).

وطبىعي أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزارحمنهن في قلوب الرجال ، فتفتنن في زينهن تفتناً واسعاً ، على نحو ما حكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين. ويروى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حبّبات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة: لقد كان النوم أحبَّ إليَّ^(٢). ويروى الأغاني أن عائكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته في الحج فقال لها : ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحجُّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا : هذه ماشطها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سنّسنيها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهواذج ، فقالت عائكة : ما عند الله خير وأبقى^(٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية في هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلي وجدول إسلامي وجدول أجنبي . فأما الجدول الجاهلي فيبدو في الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٧١/٤ وما بعدها . (٣) أغاني ١٨٨/١١ .

(٢) أغاني ١٨٢/١١ .

أقبل العرب يعبثون من هذا الجدول عباء ، وكأنما صُنِّفُوا عليه صفوفًا ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةَ راوية الأخبار النجنية ، ودَعْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّسَّابَةِ والنَّخَّارِ بْنِ أَوْسِ الْعُدْرِيِّ وزيد بن الكَيْسِ التَّمَرِيِّ وشهاب بن مذعور وبنو الكَوَّاء وغيرهم كثيرون . وفي أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمي ^(١) :

وَحَكْمٌ دَعْفَلًا وَارْحَلٌ إِلَيْهِ	وَلَا تَرِحَ الْمَطِيُّ مِنَ الْكَلَالِ
تَعَالَى إِلَى بَنِي الْكَوَّاءِ يَقْضُوا	بِعِلْمِهِمُ بِأَنْسَابِ الرِّجَالِ
هَلُمَّ إِلَى ابْنِ مَذْعُورٍ شِهَابٍ	يُنَبِّئُ بِالسَّوْفَلِ وَالْعَوَالِ
وَعِنْدَ الْكَيْسِ النَّيِّرِيِّ عِلْمٌ	وَلَوْ أَضْحَى بِمُنْخَرَقِ الشَّمَالِ

وأما الجدول الإسلامي فيبدو في القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم في الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب على خصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعْنَى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير في اهتمامهما بمغازي الرسول ، وكان هناك من عُنُوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه . وشعبة دينية تُعْنَى بقراءات القرآن وبالحديث النبوي وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد أَلَّفَ أصحاب هذه الشعبة في كل بلد إسلامي مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أَدِيْسَةَ والزُّهْرِيُّ وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعْبِيُّ وسعيد بن جبَّير وشُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْقَاضِي وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصري وقتادة وإيَّاس بن معاوية ومالك بن دينار ونجراسان الضمحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعي وبمصر الصَّابِغِيّ ويزيد بن عبد الله البرقي .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى اخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العاملين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما ، وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة^(١) من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبد الصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتابيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلّمين بالطائف. ومن هؤلاء المعلمين الكُسمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة ، وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحّاك بن مزاحم وفى الرّى الطرمّاح ، وفيه يقول بعض من شاهده هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء^(٢) » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبي جاء العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرفوا على تخطيط المدن وعمارة المباني وطريقة استغلال الأرض وشق التّرع والقنوات ، كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ، ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأوليين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك : إذ عُرِبَت تلك الدواوين . وقد دفعتهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقية النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية : وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تعنى بهذه الثقافة مدرسة جُسُدَيسابور فى إيران ومدارس أخرى فى الرُّها ونِصيين وأنطاكية وقنّسرين وحرّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

من معلى الكتابيب : البيان والتبيين ٢٥١/١ (٢) البيان والتبيين ٣٢٣/٢ .

في هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، ومن اشتهر منهم في هذا العصر «سويرس سيبوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوي وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعَمَّنُونَ بالمنطق الأرسططاليسي والفلسفة اليونانية^(١).

وطبيعى أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقي الذي كان يشرف على الشؤون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثر من جداله ، وله مصنفات مختلفة، منها محاوراة مع بعض المسلمين في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة^(٢). وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعند القوم من وجوه الاستدلال المنطقي ، حتى يستعينوا على دحض الشبهة ، ويدعوا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغي أن نلاحظ أن كثيرين من حَمَلَةِ هذه الثقافة الهيلينية المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلاً هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُترجم ، فقد كان أهلها يعربون تعريباً تاماً ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يُروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومى يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء^(٣) ، كما استعان بأصطفى القديم ، ويقول الجاحظ : « هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء^(٤) » ويذكر ابن النديم بعض كتبه في ذلك^(٥). وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب للقس أهرن بن أعين^(٦) ، وقد ذكر الحكم بن

-
- (١) انظر مقالة مايرهوف « من الإسكندرية إلى بغداد » في التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ص ٥٣ وما بعدها .
 (٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٣١٤/٢ .
 (٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان)
 (٤) ٢٤٦/١ .
 (٥) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .
 (٦) ابن أبى أصيبعة ١٦٣/١ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليزج ص ٣٢٤ وانظر نقولاً عن ماسرجويه في الحيوان ٣/٢٧٥ ، ٣٦٤/٥ .

عبدل الكوفي أهرن وطبّه في بعض شعره^(١). ويُرَوَى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس^(٢). كما يُرَوَى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية^(٣).

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة في عصر بني أمية إنما هي رمز للحقيقة الكبيرة ، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يوناني ومعارف مختلفة ، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسي كى يتم ، أو كى تم دورته ، فقد كان كل شيء في هذا العصر الأموي يدفع إلى تمامه ، لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية .

ومعنى هذا كله أن العقل العربي دُعم في هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة ، وهو دَعَم نجد آثاره في ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة : علوم الفقه والتفسير والحديث ، كما نجد هذه الآثار في كثرة المناظرات التي نشبت بين الآراء المختلفة في السياسة والدين وغير السياسة والدين . وارجع إلى أخبار الخوارج^٤ فستجدهم يثيرون الجدل في كل مكان ، وجداهم مع علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس مشهور ، ويُرَوَى أن عبد الملك بن مروان أتي برجل منهم ، فجعل يبسط له من قوهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلسق وألفاظ بينة ومعان قريبة ، حتى قال عبد الملك : لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله على من الحجة وقرّر في قلبي من الحق^(٥). وهذا رجل من عامتهم فما بالنّا بزعمائهم ، ويُسّيد المبرد في كتابه «الكامل» بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين^(٥) ، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢ . ص ٨١ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ . (٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣ .

(٣) راجع صفحات عن إيران لصاّدق نشأت (٥) الكامل ص ٥٦١ .

ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو المصرية)

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْدِيَّة وصُفْرِيَّة وإِباضِيَّة، وشكازيد بن جُنْدَب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال (١) :

كُنَّا أَنَاساً عَلَى دِينٍ فَمَرَّقْنَا طُولُ الْجِدَالِ وَخَلَطُ الْجِدِّ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالاً ضَلَّ سَعْيُهُمْ عَنْ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، ومن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن علي بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعي ، وقد تحول شاعره الكميّ بأشعاره الملقّبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة في المذهب الزيدي تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلاً في مسائلهم الفقهية بين أيدي الخلفاء وفي مجالسهم العامة والخاصة ، ويُروى من ذلك مناظرة (٢) بين قتادة والزُّهري في مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى (٣) بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويُروى أن الشَّعْبِيَّ الكوفي كان يجلس في مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه (٤) . وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أي اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّخْتِيَّاني يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (٥) » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل في آرائهم والتدقيق في مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُوا أهل الرأي لغلبة القياس على فقههم (٦) .

وقد تجادلوا طويلاً في مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام في الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجبرية والمُرْجِئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التي أثّرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار في أفعاله أو هو

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٤٣ .

(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٣٢٢ .

(٥) البيان والتبيين ٢/ ٩٨ .

(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجِبِّرٌ مَسِيرٌ ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصري يدافعون عن الرأي الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيراً بتضاء لازم وقدّر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعَدُ الله ووَعِيدُهُ .

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر . وكان هذا المذهب يُرضى الأمويين ، لأنه يتصرف الناس عن التفكير . في ولايتهم وتديبرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثم نرى شعراءهم يردّدون هذه الفكرة طويلاً على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان^(١) :

الله طَوْقُكَ الْخَلَافَةَ وَالْهُدَى والله ليس لما قَضَى تَبْدِيلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجِئَة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ، إذ المعوّل في الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جلّ جلاله ، ومن ثم رأوا إرجاء الحكم في أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو ربيعة سنة ١٠٢ في نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب في ثورته على الأمويين^(٢) . وفي أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم في الكوفة من أمثال عَوْن بن عبد الله بن عتبة الهُدَلِيّ ، وناظرهم في آرائهم^(٣) . ونرى عَوْناً يرجع من عنده : فيراً منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك في أبيات تُنسب إليه تجرى على هذا النقط^(٤) :

وَأَوَّلَ مَا نَفَارَقُ غَيْرَ شَكٍّ نَفَارَقُ مَا يَقُولُ الْمُرْجِئُونَ
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ جَوْرِ وليس المؤمنون بجائرينا
وَقَالُوا مُؤْمِنٌ دَمُهُ حَلَالٌ وقد حرّمت دماء المسلمينا

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٤٧٤ . (٢) ابن سعد ٢١٨/٦ .

(٣) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

(٤) طبري ٣٤٠/٥ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلّون دماء المسلمين مما كان سبباً في تعقب الأمويين لهم ، وقتلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لعتيلان^(١) الدمشقي.

ولم يُعرَف هذا المذهب في العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار في خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنَة وهو من مُرجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول في تضاعيفها^(٢) :

المسلمون على الإسلام كلُّهم والمشركون أَشْتَوْا دينهم قِدَاداً^(٣)
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً مِ النَّاسِ شِرْكَاً إذا ما وُحِّدُوا الصِّمَاداً
وما قضى الله من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضِ من شيءٍ يَكُنْ رَشْدَاً
كلُّ الخوارج مُخْطِئٌ في مقالته ولو تعبدَ فيما قال واجتهداً
أما على وعثمانُ فإنهما عبدان لم يُشْرِكَا بالله مُدَّعِبَاً
ويتوفى ثابت ، ويظهر هناك جهنم بن صفوان أحد رؤوس الإرجاء^(٤) ويضع يده في يد الحارث بن سُريج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقَضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التي انبثق عنها هذا المذهب هي مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصري ومن تابعوه من القدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالاً عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسن عمرو بن عبَّيد ليجادله فيه . فأقنعه واصل برأيه^(٥) ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيَا هما ومن

(٢) أغاني ٢٧٠/١٤ .

(٣) أَشْتَوْا : فروقا . قَدَاداً : طرائق وفروقا .

(٤) انظر الملل والنحل ص ٦٠ حيث يوضح كيف أصبح رئيساً للفرقة تسمى الجمعية مبيناً بعض أصول مقالاتها .

(٥) انظر في ذلك أمالي المرتضى ١/١٦٥ .

(١) انظر في ترجمته لسان الميزان ٤/٢٤٤ .

والمعارف ص ٢٤٤ وفي هذين الكتابين أنه كان قدريا ولكن في الفهرست ص ١٧١ والملل والنحل (طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم فعداده في مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ،
تَسْنِدُهُمَا فِي ذَلِكَ دراسة مستفيضة لآي القرآن الكريم وعقل دُعْمَاهُ بالمنطق وأدلته
الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر
الاعتزال وأصبح في العصر العباسي الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

ولمّا أُطلِنَا فِي هَذَا الْجَانِبِ لِنَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ فِي عَصْرِ بَنِي أُمِيَّةٍ أَمْدٌ تَهْرُوْفِدُ
كثيرة ، دَعَمَتْهُ دَعْمًا ، مِمَّا كَانَ لَهُ آثَارٌ بَعِيدَةٌ فِي أَشْعَارِ الشُّعْرَاءِ ، إِذْ كَانُوا مِنْ دَجَائِنِ
فِي الْفِرْقِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَقِيدِيَّةِ وَمَا نَشَبَ بَيْنَهَا مِنْ مَجَادَلَاتٍ ، وَيَسُوقُ الرِّوَاةَ مِنْ ذَلِكَ
مَجَادَلَةُ بَيْنِ ذِي الرُّمَّةِ وَرُوْبَةُ فِي الْقَدْرِ ، وَكَانَ أَوَّلُهُمَا قَدْرِيًّا وَثَانِيَهُمَا جَبْرِيًّا ^(١) . وَبِتَأْثِيرِ
هَذِهِ الْمَجَادَلَاتِ تَحَوَّلَ جَرِيرٌ وَالْفَرَزْدَقُ يَتَجَادَلَانِ جَدًّا لَا عُنْفًا فِي عَشِيرَتَيْهِمَا
مِنْ جِهَةٍ وَفِي قَيْسٍ وَتَيْمٍ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي نَقَائِصِهِمَا ،
وَكَأَنَّهُمَا يَتَحَوَّلَانِ بِشَعْرِ الْمَجَاءِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْقَدِيمِ إِلَى مَا يَشْبَهُ مَقَالَاتِ أَهْلِ
النَّحْلِ . وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ هَذَا التَّطَوُّرِ الَّذِي أَصَابَ الْعَقْلَ الْعَرَبِيَّ ، وَالَّذِي
جَعَلَهُ يَنْدَفِعُ فِي الْبَحْثِ وَالْمُنَازَعَةِ وَالتَّدْرِبِ عَلَى جَسَعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدْلَةِ فِي أَى
مَوْضُوعٍ يَعْضُرُ لَهُ .

وَكَانَ مِنْ ثَمَارِ هَذَا التَّطَوُّرِ أَيْضًا أَنْ رَأَيْنَا بَعْضَ الشُّعْرَاءِ يَسْعَى بِشَعْرِهِ إِلَى غَايَةِ
تَعْلِيمِيَّةٍ ، إِذْ أَخَذَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ الْمُعَلِّمِينَ مِنْ أَمْثَالِ الْكُمَيْتِ وَالطَّرِمَّاحِ يَحْشِدُونَ
فِي أَشْعَارِهِمْ أَوَابِدَ اللُّغَةِ وَشَوَارِدَهَا ، لِيَعِينُوا النَّاشِئَةَ عَلَى مَعْرِفَتِهَا . وَلَمْ يَلْبَثِ الرَّجَّازُ
وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْعِجَّاجُ وَرُوْبَةُ أَنْ قَدَّمُوا مِنْ ذَلِكَ مَادَّةَ وَفِيرَةٍ لِلنَّاشِئَةِ وَلِعُلَمَاءِ اللُّغَةِ .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ لِلْمَوْثِرَاتِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ أَثْرًا كَبِيرًا فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، وَبِالتَّالِي
فِي كُلِّ مَا يَنْتُجُ مِنْ أَعْمَالٍ وَآثَارٍ . وَإِذْ أَخَذْنَا نَنْظُرَ فِي حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ لِهَذَا الْعَصْرِ
وَجَدْنَا لِلْاِقْتِسَادِ أَثْرَهُ الْعَمِيقَ فِي اتِّجَاهَاتِهِمْ ، وَهَلْ نَسْتَطِيعُ تَفْسِيرَ شَيْعِ الْغَزْلِ

المادى الصريح فى مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف فى نجد وبيئات
البوادرى إلا برد ذلك إلى نعومة العيش وما كان يتسعم به سكان تلك المدن من ثراء
عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادرى من شطف العيش وخشونته . ولا
ننكر أثر الإسلام فى نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة
الاقتصادى ومدى عمله فى النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع
المديح فى العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا برد ذلك إلى ظهور
طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاقاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة
فى الحجاج وغير الحجاج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم
جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدم لهم من
مديح ، يقول ذو الرمة (١) :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مائتم
ولكن عطاء الله من كل رخصة إلى كل محبوب السراقد خضرم (٢)

وقد مضى كثير من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو
إليه نفوسهم من صور الترف مما أدنى ، وخاصة فى أواخر العصر ، إلى ذبوع
شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتمتع النزاع السياسى الحاد الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه
فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأينا يعود فى كثير من جوانبه إلى بواعث
اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة
ينثرونها على أنصارهم ومن يلودون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب
الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق
إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل الجنية التى جعل لها الأمويون
معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق
إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن
أن تتحقق إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أولياءه الصالحين ، ومضوا يجاهدون
الأمويين جهاداً عنيفاً .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاية بني أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين في ذلك إلاّ ولا ذمة ، فالمهلب مثلاً حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجّن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم^(١) ، بينما احتجّن ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم^(٢) ، ويقال إن راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفي لنفسه — بوسائل غير مشروعة — ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرج منه ومن موظفيه يوسف الثقفى حين وليّ بعده العراق سبعين ألف ألف^(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة بن بدر الغداني التميمي حين ولي على سُرْق إحدى كور الأهواز^(٤) :

أحارِ بنَ بَذْرِ قد وليتَ إمارةً فكن جُرْداً فيها تخون وتُسرَقُ
وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوّر ذلك شكوى الراعى التى وجهه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجذبة أصابت قومه بنى نُمَيْر . ومع ذلك ففرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبَّوا عليهم السَّيَاط وأرهقوهم من أمرهم عُسْراً ، ون قوله في تلك الشكوى المريرة^(٥) :

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشرُ حنَفَاءٍ نسجدُ بكراً وأصيلاً
إن السَّعَاةَ عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولاً
فأذفع مظالمَ عيَلتْ أبنائنا عنا وأنقذ شِلُونَا المأكولاً^(٦)

(٤) الحيوان ١١٦/٣ والشعر والشعراء ٧١٥/٢ .

(٥) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي

(طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .

(٦) عيَلتْ : أفقرت . الشلو : العضو .

(١) طبرى ١٣٥/٥ .

(٢) طبرى ٣٠٣/٥ وانظر ٣١٢/٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوروبا)

٢٨٨ ، ٥٥٠/٢ .

وإذا كان هذا يحدث في نجد والبادي فما كان يحدث في العراق وخراسان أدهى وأمر ، فقد مضى الولاة وجباة الخراج يعترضون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقاً والنفوس سخطاً ووجعاً ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة في الحكم لا في عهد بني أمية فحسب ، بل أيضاً في عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همام السلولي وجه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عُثمّاله في العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بنَ الزُّبير أميرَ المؤمنين أَلَمْ يبلِّغَكَ ما فعل العُمّال بالعمل
باعوا التُّجّارَ طعامَ الأرضِ واقتسموا ضُلبَ الخراجِ شِحا حاقِسمَةَ النُّفْلِ (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لخيا نهم في الحكم ومطالباً بحسابتهم على ما استخاصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحسّلين من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وليّ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطّ الجزية عن أسلموا من الموالى . وبعث على العراق وخراسان عُثمّالاً جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثتَ في أَقطارها نَبذوا كتابَكَ واستَحِلَّ المَحْرَمُ
طُلُسَ الثيابِ على منابر أرضنا كُلُّ يَجورُ وكلُّهم يَتَظَلَّمُ (٤)
ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يَليكَ فإنما عُمّالُ أرضِكَ بالبلاد ذنابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له حتّى تجلّد بالسيوف رقابُ

(١) أنساب الأشراف ١٩١/٥ وما بعدها .

(٢) النفل : غنائم الحروب .

(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .

(٤) طلس : غبر ، وهو يكتى بغبرة الثياب

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم

حقه : يظلمه إياه .

(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

وَيُتَوَفَّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم . ويشور الحارث ابن سُريْنَج بخراسان في العقد الثاني من القرن الثاني مطالباً برفع الجزية عن أسلموا من الموالي ، ويتولَّى هناك نصر بن سيار في العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالي مثبتاً للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالي ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يترعون لهم أخوتهم في الإسلام . ويسوق المستشرقون دليلاً قوياً على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث في أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالي السَّوَاد في العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردُّهم إلى قراهم ونَقَشَ أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها ^(١) وظاهر الحادث عنف شديد في الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضْطُرَّ إلى ذلك لتعطل الزراعة في السواد وبالتالي تعطل الخراج الذي كان يُستفَق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التي كانت مفروضة على مسلمي الموالي ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرَّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح في إنكارها إلحاحاً حتى رُفِعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلاً في العقد الفريد ، صور فيه العرب يسيئون في المعاملة إلى الموالي لعصر بني أمية إساءة بالغة ^(٢) . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطْهِدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق في الكوفة والبصرة نَبَّهَ شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف ^(٣) . أما ما يلاحظه قلهوزن من أنهم كانوا يحاربون في جيش المختار رجالة لا فُرْسَاناً ^(٤) فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد في خراسان مثل حُرَيْث بن قَتَيْبَة وأخيه ثابت وحيَّان النبطي وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

(١) طبري ١٨٢/٥ وتاريخ الدولة العربية (٣) المجلد ص ٣٤٠ .
 لقلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .
 (٢) العقد الفريد ٤٠٣/٣ وما بعدها .
 (٤) تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا في حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُسْتَتَعَلُّ في البصرة . فهم لم يكونوا في مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله^(١) بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة^(٢) ابن سنان مولى بني مسمع وكثير^(٣) بن سيار مولى بني سعد ومسلم^(٤) بن المسيب مولى بني بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده في إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قضاة كما يفتخر بالمولى ذا كراً أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول^(٥) :

أنا ابنُ الثّرى أدعو قضاة ناصرى وآل نزارٍ ما أعزّ وأكثرا^(٦)
وأبناء إسحاق الليث إذا ارتدوا محامل موتٍ لابسين السُّنُورِ^(٧)
فيوما سراييل الحديد عليهم ويوما ترى خزا وعصبا مُنيرا^(٨)
إذا افتخروا عدّوا الصّهبذ منهم وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا^(٩)
ويصرّح بأن الموالى أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحق يجمع بيننا أبٌ كان مهدياً نبياً مُطهراً

ولا تهمنا صحة الأسطورة التي ردّها جرير في هذه الأبيات ، والتي تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالى شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى)

عدد الثرى .

ص ٢ .

(٧) السُّنُور : السلاح . وهو يصف بذلك

الفرس .

(٢) الديوان ص ١٠٦ .

(٣) الديوان ص ٢٨٧ .

(٤) الديوان ص ٨٨٧ .

(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوى)

ص ٢٤٢ .

(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من

الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله

أهداب ووشى .

(٩) الصهبذ : لقب أمراء إيران .

(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً في نفس القصيدة ينوء بمولى من البربر يسمى وضاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعلماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بَرَبَرَا
والحق أن العرب اندمجوا في الموالى منذ الأيام الأولى في الفتوح ، فقد
ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعربوهم عن طريق نظام الولاء الذي شرعه الإسلام ،
إذ أدخلوهم في عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلغوا جنسياتهم إلغاء ،
فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك في عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظْمَ
الشعر وجدناهم يقفون في صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح
أبنائها الأصليين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس
فقد عاش لقبائته يحامى عنها ويصول^(١) ، ومثله هرون^(٢) مولى الأزد وثروان^(٣)
مولى بني عُذْرَة وشُقْران^(٤) مولى بني سَلَامان . وكانت القبائل تبادلهن نفس
التعصب ، فإذا جنى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به في السجن لم يقرقرار لقبيلته
حتى تُردَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من ابن مفرغ
حين زُجَّ به عَبَّاد بن زياد في سجن سجستان ، فلما ما زالت تتشفع فيه عند
الخليفة وتتوسل حتى أمر بإطلاق سراحه^(٥) .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ،
أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائي شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس^(٦)
فإنه يعد شذوذاً في العصر ، وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التي
كان يفتخر فيها كل عربي بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولاً الغضب من القبائل
التي تعادىها ، وكأن ذلك نبه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسي ، وقد لقي
جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه
يفخر بأصله الفارسي .

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٨٩/١٣ ،
٣٨٠/١٥ وما بعدها .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبي) ٧٥/٧ .
(٣) البيان والتبيين ٣٠٩/٣ .
(٤) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغاني (دار
الكتب) ٣٠٨/٢ .
(٥) الشعر والشعراء ٣٢٢/١ .
(٦) انظر ترجمته في أغاني دار الكتب
٤١١/٤ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم في هذا العصر .
وكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعبوية في
عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر في هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً
عنيفاً^(١) . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم
الأعجميات مثل ابن ميادة^(٢) ، ومثل أبى نُخَيْلَةَ الذى يقول^(٣) :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجَمُ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعمِّ
ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض
المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض في هذا
العصر^(٤) ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه
كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً
مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولائها من العرب ، ولكنها
فسحت للموالى في شئون الخراج وفي الدواوين حتى بعد أن تُرجمت وعُربت ،
على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله
عبد الحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى في "عصر" أنها كانت
تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها
من وعظ وإمامة للمسلمين في المساجد ، فلننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم
لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل لأنهم يبرزونهم ، حتى
لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله
أن الموالى شاركوا في الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا
يُعدُّون فعلاً عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجر وآدابهم
المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة
القرآن الكريم التى ملكت أئمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

(١) أغاني ١٣٩/٣ والديوان ٣١٦/١ ، (٣) البيان والتبيين ٢٢٥/٣ والشعر والشعراء
٥٨٣/٢ .

(٢) أغاني ٢٦١/٢ . (٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفي مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والمهجاء

١

شعراء المديح

تعود العرب منذ العصر الجاهلي أن ينوِّها في أشعارهم بأشرفهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملاً إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السُنَّة في الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودُّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغاني والطبرى لترى مصداق ذلك واضحاً ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين في الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم من لم يتعلق الشعراء بمدحهم ونسب ورود الثناء في طريقه .

وأول من يلقانا من الولاة البارزين في العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة^(١) بن بدر الغداني التميمي ومسكين^(٢) الدارمي ، وقد شُغِف عبد الله بن الزبير الأسدي بمدح ابنه عبيد الله^(٣) . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولئى عليه أخاه مصعباً ، وكان جواداً سمحاً ، فالتفَّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى^(٤) همدان ودكَيْن الفُقَيْسِي^(٥) . ويدخل العراق في طاعة عبد الملك بن مروان فيولئى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين^(٦) ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشراً « وكان من فتیان قریش سخاء ونجدة ، وكان ممدَّحاً » مدحه جبرير^(٧) والفرزدق والأخطل

-
- (١) أغاني (ساسى) ١٩/٢١ وطبرى ٤/١٦٨ (٤) أغاني ٣٣/٦ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .
 والمبرد ص ١٧٩ .
 (٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٦/١١ .
 (٦) الحير لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ .
 (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٢٧/١٤ ، ٢٣٥ . حيث يذكر أنه وزع على الناس في يوم واحد ألف .

وكثير وأعشى بنى شيبان^(١) ، كما مدحه نصيب^(٢) والأقيسر^(٣) الأسدي وأيمن^(٤) بن خريم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفي ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابهِ من مثل جرير والفرزدق وأعشى^(٥) بنى شيبان وحُمَيد^(٦) الأرقط وليلى^(٧) الأخيلية ، وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون في يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العدّيل بن الفرخ العجلى فيه^(٨) :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفهُ لكلِّ إمامٍ مُصْطَفَى وخبيلُ
بَنَى قُبَّةَ الإسلامِ حتى كأنما هدى الناسَ من بعد الضلال رسولُ
ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النخعي الثقفي^(٩) يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلاً كثيراً يملأه مودة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلاً بمذائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور في عهد يزيد بن عبد الملك ويقضي على ثورته أخوه مسلمة ويوليهِ العراق لفترة محدودة . ومن مدّاحه أبو نُخَيْلَة^(١٠) وأعشى^(١١) تغلب . ويخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزاري ، وللفرزدق

-
- (١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
 (٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ .
 (٣) أغاني ٢٧٠/١١ .
 (٤) انظر ترجمة أيمن في الشعر والشعراء
 ١/٥٢٦ والأغاني (طبع ساسي) ٢١/٢٥
 والإصابة ١/٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧
 والمؤشج ص ٢٢١ .
 (٥) أغاني (ساسى) ١٦/١٥٦ .
 (٦) طبرى ٥/١٩٠ وانظر ترجمته في معجم
 الأدباء ١١/١٣ .
 (٧) أغاني (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٩١ وانظر ترجمته
 في الأغاني (ساسى) ٢٠/١١ والاشقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة
 ٢/٣٦٧ .
 (٩) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب)
 ٦/١٩٠ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي)
 ص ٣٤٢ .
 (١٠) انظر الأغاني (ساسى) ١٨/١٤٠ .
 (١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر في
 ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٠
 وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١١/١٣٢ ومجلة
 المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح^(١) ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائح في خالده القسري الذي ولي بعده^(٢) ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . ومن مدحوا خالدا القسري جرير^(٣) ، وأبو الشَّغْب وفيه يقول حين عُزل وسجن :^(٤)

فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

وكان الذي وليّ العراق بعده يوسف الثقفي . ونرى الكميّ بمدحه تقية وخوفاً من بطشه^(٥) . وآخر ولاية هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جواداً مِعْطَاءً ، وهو ممدوح أبي عطاء^(٦) السُّنْدِي وبشار^(٧) بن بُرْد وخلف^(٨) بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء في العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نوابهم وأصحاب شُرطتهم وعملهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفي نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق^(٩) وجرير^(١٠) ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالده القسري ، ومن مدّأحه الفرزدق^(١١) ، ومثل بلال بن أبي بردة ، نائب القسري على البصرة ، وهو ممدوح ذى الرمة^(١٢) والفرزدق^(١٣) وحمة^(١٤) بن بيض ، وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوليد البجلي صاحب الخراج في عهد القسري ، ومن مدّأحه الفرزدق^(١٥) ، ومثل قطّان بن مدركة الكلابي وإلى البحرين ، وقد خصه الفرزدق

-
- (١) الديوان (طبعة الصاوي) ص ٢٨٠ ، ٥٧٩ .
 (٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .
 (٣) الديوان (طبعة الصاوي) ص ١٧٤ .
 (٤) البيان والتبيين ٢/٢٣٦ .
 (٥) أغاني (سأسي) ١٥/١١٦ .
 (٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ .
 (٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ .
 (٨) انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ .
 (٩) الديوان ص ٢٣ .
 (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨/١٣ وما بعدها .
 (١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ .
 (١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغاني (سأسي) ١٦/٣٨ والمبرد ص ٢٥٩ .
 (١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٩٤ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
 (١٤) انظر في ترجمته الأغاني (طبعة السأسي) ١٥/١٤ وما بعدها ومعجم الأديباء ١٠/٢٨٠ .
 (١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائن^(١) ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً ممدّحاً ، ومن مدّاحه جرير^(٢) وأبو نَحَيْسَلَة^(٣) وذو الرمة^(٤) . ومن ولاية فارس الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مسعمر ، وله أحاديث كثيرة في جوده^(٥) وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم^(٦) وأبو حُرْابة^(٧) ومن ولاية الرّئي الممدّح حين خالد بن عتّاب بن ورقاء ممدوح أعشى همدان^(٨) .

ولذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يتكلمون الأموال والعطايا للشعراء كينلا ، وهم بدورهم ينثرون عليهم رياحين مديحهم نثراً . ولعل أسرة لم تحفظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي قضى على الأزارقة في فارس ، ثم ولى للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظل بها إلى أن توفى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البرزوغ . إذ ولى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق . ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه في أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ، غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أحنوز المازني .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم في عصر بني أمية مقام أسرة البرامكة في عصر بني العباس ، إذ كان أفرادها بجورا فياضة ، فنوّه بهم الشعراء طويلاً في خراسان والعراق جميعاً ، ويؤثّر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بمعرفه »^(٩) ، ونرى الشعراء مصطفين

(١) الأغاني (دار الكتب) ٣٨٥، ٣٧٩/١٥ .

(٢) انظر ترجمته في الأغاني (طبعة ساسي) ١٥٢/١٩ .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ٥٦/٦ .

(٤) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ .

(٥) الديوان ص ٧٠٠ .

(٦) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .

(٧) الأغاني (ساسى) ١٤٥/١٨ وما بعدها .

(٨) انظر فهرس ديوانه .

(٩) المصبر ص ١٥١ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفي مقدمتهم كعب^(١) الأشقرى وزباد^(٢) الأعجم
وحمزة^(٣) بن بيض والمغيرة^(٤) بن حبشاة التميمي ونهار^(٥) بن توسعة ، وله يرثيه حين
توفى بمرو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقربَ للغنى ومات الندى والحزم بعد المهلب
أقاما بمرو الروذ رهنَ ضريحه وقد غيبا عن كل شرقٍ ومغرب
وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونوالاً غمراً ، وتوفى قبله بقليل ، فبكاه
الشعراء طويلاً على شاكلة قول زياد الأعجم في مرثية بديعة له^(٦) :

إن السباحة والمروءة ضُمَّنا قَبْرًا بمَرَوَ على الطريق الواضح
ولا يكاد يوجد شاعر في العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا ملحه ونوه
به تنويهاً بعيداً ، ومن مُدَّاحه الفرزدق^(٧) ونهار^(٨) بن توسعة وحمزة^(٩) بن
بيض وحاجب^(١٠) الفيل والعديّل بن الفرخ العجلي وفيه يقول^(١١) :

يداه يَدُ بالعرف تنهب ماحوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ
وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنَة لا يفارقان مجلسه^(١٢) ، وفيه يقول ثابت
حين خذله أهل العراق في ثورته على بنى أمية وفرّ واعنه ، فقتل قَعَصاً بالرماح^(١٣) :

إن يقتلوك فإن قَتَلَك لم يكن عاراً عليك وبعضُ قَتَل عارُ

- | | |
|--|---|
| (١) طبرى ٥/٢٢ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى | (١٦) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ . |
| (٢) دار الكتب ١٨٧/١٤ وما بعدها . | (١٧) الشعر والشعراء ١/٥٢٢ . |
| (٣) أغانى (دار الكتب) ٣٨٣/١٥ . | (١٨) أغانى (ساسى) ١٨/١٥ . |
| وما بعدها . | (١٩) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٤ وما |
| (٤) أغانى (ساسى) ٢٤/١٥ . | بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ |
| (٥) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ | وفهارس الطبرى والبيان والتبيين والحيان وأمالى |
| وأغانى (دار الكتب) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ | المرتضى (طبعة الحلبي) ١٥٥/٢ . |
| وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ | (١١) أغانى (ساسى) ١٣/٢٠ . |
| والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث | (١٢) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ . |
| يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر | (١٣) أغانى ١٤/٢٧٩ |
| تميم في عصره | |
| (٥) انظر في ترجمة نهار بن توسعة وأخباره | |
| الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى | |

وكان أخوه المفضل ممدّحاً ومن أشادوا به كعب^(١) الأشقرى وثابت^(٢) قطنه ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة^(٣) بن بيض والكميت^(٤) . وفي المهالبة وكرمهم الفياض يقول^(٥) :
بُكَيْرَ بْنَ الْأَخْنَسِ :

نزلتُ على آلِ المهلب شاتيا فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محل^(٦)
فما زال بي إلطافهم وافتقادهم ولم كرامتهم حتى حسبتهم أهلي^(٧)

ومن ولاية خراسان الممدّحين قتيبة بن مسلم الذي ولّيا للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبني أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند . وقد تغنّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة^(٨) بن حَبِشَاء وكعب^(٩) الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول^(١٠) :

وما كان مذكُّنا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابنِ مسلمٍ
أعمُّ لأهلِ الشُّرك قَتلاً بسيفه وأكثرُ فينا مَغْناً بعد مغنم

وولّيا لعهد عمر بن عبد العزيز الجراحُ بن عبد الله الحكمي ممدوح الفرزدق^(١١) . ومن الأجواد الممدّحين الذين ولّوها لخاله القسري الجُحَيْشِد بن عبد الرحمن المرّي ممدوح جرير^(١٢) ، وأسد القسري وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

(١) طبري ١٩٤/٥ . عن كثرة سؤالم عنه واهتمامهم بأمره .

(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغاني

(٨) طبري ٢٤٠/٥ .

(٩) طبري ٢٤٧/٥ وأغاني (دار الكتب)

٢٩٩/١٤ .

(٣) أغاني (سأى) ١٩/١٥ .

(١٠) أمالي القالي ٢٠٢/٢ والشعر والشعراء

(٤) نفس المصدر ١٠٨/١٥ ، ١٢٢ .

٥٢٢/١ .

(٥) البيان والتبيين ٢/٢٣٣ .

(١١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٦) محل : مجدية .

(١٢) الديوان ص ٥١ .

(٧) الافتقار : طلب الشيء عند غيبته كناية

به الفرزدق طويلاً^(١) . ولولها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغواراً وغيثاً مدبراً ، وهو آخر ولايتها للأمويين ، ومن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق^(٢) وثابت^(٣) قُطْنَة ومن مدَّاحه في ولايته أبو عطاء^(٤) السُّنْدِي . ومن قُودَاد الحيوش في خراسان هلال بن أَحْوز المازني الذي أبلى في حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جِثَم بن صفوان متكلم المرجئة في ثورتهم بخراسان ، ومن أشادوا به طويلاً الفرزدق^(٥) وجريبر^(٦) .
ويلقانا في سجستان من الممدَّحين عبد الله بن الحشَّرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم^(٧) :

إِنَّ السَّاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشَّارِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزَاعِي الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة في عصره غير مدافع ، ومن مدحوه أبو حُزَابَة^(٨) وعُويْف^(٩) القوافي والمغيرة^(١٠) بن حَبِشَاء ، ونُوّه به ابن قيس الرقيات طويلاً حتى إذا توفى رثاه بقصيدة بديعة^(١١) ومنهم عبيد الله بن أبي بكرة ممدوح الفرزدق^(١٢) وابن مفرغ^(١٣) ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبي جليدة اليشكري ، وفيه يقول حين وافته الموت^(١٤) :

كُنْتُ الشَّهَابَ الَّذِي يُرْمَى الْعَدُوَّ بِهِ وَالْبَحَرَ مِنْهُ سِجَالُ الْجُودِ نَعْتَرُفُ

ومن ولاية الحجاز الممدَّحين سعيد بن العاص والي معاوية على المدينة ، وكان ينسحر

-
- | | |
|---------------------------------|--|
| (١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، | (٨) أغاني (سأى) ١٥٣/١٩ . |
| ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ . | (٩) انظر في ترجمة عوف أغاني (سأى) |
| (٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ . | ١٠٥/١٧ والخزاعة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ . |
| (٣) طبري ٣٩٩/٥ . | (١٠) أغاني (دار الكتب) ٨٥/١٣ . |
| (٤) أغاني (سأى) ٨١/١٦ . | (١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد |
| (٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، | يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ . |
| ٥٧٤ ، ٥٤٨ ، ٥٠٧ . | (١٢) الديوان ص ٥٧ . |
| (٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ . | (١٣) أغاني (سأى) ٧٠/١٦ وما بعدها . |
| (٧) أغاني (دار الكتب) ٢٣/١٢ . | (١٤) أغاني (دار الكتب) ٣١٣/١١ . |

في كل يوم جزوراً يطعمه الناس^(١)، ومن نوهوا به الخطيئة^(٢) والفرزدق^(٣). وكان ابن الأزرق المخزومي وإلى ابن الزبير على اليمن جواداً معطاءً، وهو ممدوح أبي دَهْبل^(٤) الحمصي. ولعل والياً لم يُمدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان في ولايته على مصر، وكان بحراً سيالاً من بحور العرب، ومن مدّأحه نُصَيْب^(٥) وابن قيس^(٦) الرقيات وكثير^(٧) وعبد الله^(٨) بن الحجاج والأحوص^(٩) وأيمن^(١٠) بن خُرَيْم وأمية^(١١) بن أبي عائذ. ومن ولاها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الحزّين^(١٢) الكناني.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفي مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عبيد^(١٣)، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامي^(١٤)، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عوف^(١٥) القوافي ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير^(١٦)، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامي^(١٧) وأعشى شيبان^(١٨)، وعكرمة بن ربيع الفياض ممدوح الأنحط^(١٩) والعُدَيْل^(٢٠) بن الفرخ العجلي، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق^(٢١) وأبي الأسود^(٢٢) الدؤلي، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر^(٢٣) الأسدي. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل^(٢٤)، وكانت قبائل ربيعة في البصرة تجتمع عليه

- | | |
|--|-------------------------------|
| (١) الحبر لابن حبيب ص ١١٥ | (١٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٣/١٥ |
| (٢) ابن سلام ص ١٠٠ ، وأغاني (سأسي) ٣٨/١٦ | (١٣) أغاني ٤٢٥/٢ |
| (٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥ | (١٤) أغاني (سأسي) ١١٩/٢٠ |
| (٤) الحبر ص ١٥٢ | (١٥) أغاني (سأسي) ١١٧/١٧ |
| (٥) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/١ وما بعدها | (١٦) الديوان ص ١٥٢ ، ١٨٢ |
| (٦) أغاني ٨٧/٥ | (١٧) ابن سلام ص ٤٥٥ |
| (٧) البيان والتبيين ١٢/٣ وأغاني (دار الكتب) ٣٣/٩ | (١٨) أغاني (سأسي) ١٥٧/١٦ |
| (٨) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) ١٥٨/١٣ والبيان والتبيين ٣٩٠/١ | (١٩) ابن سلام ص ٤١٧ |
| (٩) ابن سلام ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ | (٢٠) أغاني (سأسي) ١٨/٢٠ |
| (١٠) أغاني (سأسي) ٧/٢١ | (٢١) الديوان ص ٢٢٠ |
| (١١) أغاني (سأسي) ١١٥/٢٠ | (٢٢) أغاني (دار الكتب) ٣٣١/١٢ |
| | (٢٣) أغاني ٢٥٥/١١ |
| | (٢٤) أغاني (سأسي) ١٧/٢٠ ، ١٩ |

في الإسلام اجتماعها على كُليب في الجاهلية . ومن كان لا يبارى في جوده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وله في كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدَّاحه ابن^(١) قيس الرقيات . وكان يجري على مثاله في الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح لإسماعيل^(٢) بن يسار النسائي ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى^(٣) شهوات ، وفيه يقول^(٤) :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثَّنا ويرى في بَيْعه أن قد غَبَنَ
وهو إن أعطى عطاءً فاضلاً ذا إخاء لم يكدره بِمَنٍ
وظلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ممدوح الحزين^(٥)
الكناني . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح
لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامي من الجزيرة وكعباً
الأشقرى وزيارداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب^(٦)

شاعر حجازي نوبي الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك محتجاً للونه
كثيراً على شاكلة قوله في بعض شعره :
فإن يك من لوزي السَّوادُ فإنني لكالمسك لا يروى من المسك ذائقة
وكان مُستَرْقِفاً لرجل من كنانة من أهل ودّان بالقرب من مكة ، وتيقظت
فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاه ، وفرغ إلى عبد العزيز بن مروان
بمصر ، فردَّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه . فدبَّج فيه مدائح
رائعة من مثل قوله :

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .
(٢) أغاني ٤٠٨/٤ .
(٣) انظر ترجمة موسى شهوات في الأغاني
(طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء
٥٥٨/٢ والخزاعة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء المرزباني
ص ٢٨٦ .
(٤) أغاني ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ .
(٥) المعبر ص ١٥٢ .
(٦) انظر في ترجمة نصيب أغاني (دار الكتب)
٣٢٤/١ . وراجع فهرسه والشعر والشعراء
٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن
دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩
وشواهد الغين ١/٣٧٧ والموشح ص ١٨٩ .

فبَشِّرْ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أَتَاهُمْ مع النَّيْلِ الذِي فِي مِصْرَ نَيْلُ
يَقُولُ فَيَحْسِنُ الْقَوْلَ ابْنُ لَيْلَى ويفعل فوق أحسن ما يقول^(١)
وقوله :

لَعَبْدَ الْعَزِيزِ عَلَى قُصُومِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ غَامِرِهِ
فَبَابِكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ وَدَارِكَ مَأْهُولُهُ عَامِرِهِ
وَكَفُّكَ حَبْنِ تَرَى السَّائِلَ بَيْنَ أُنْدَى مِنَ اللَّيْلَةِ الْمَاطِرَةِ
وما زال مع عبد العزيز حتى توفي سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حاراً ،
وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قِفُوا خَبْرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لَمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طَالِبُ
فَعَاجِبُوا فَاتَّبِعُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَثْنَتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ^(٢)
وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى
أوائل القرن الثاني ، وله مدائح في بعض ولاية الحجاز من مثل لإبراهيم بن هشام
الخزومي وإلى مكة وعبد الواحد النصري وإلى المدينة ، وبعض ولاية العراق وقواده
مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بشيابه وطيبه ،
وكان كبير النفس ، فلم يتورط في هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقي
طاهر ، وهو لذلك يُسَلِّكُ في الغدريين .

القطامي^(٣)

لقب غَلَمَبَ عَلَى تَحْمِيصِ بْنِ شَيْبَةَ التَّغْلَبِي ، وهو من بني القَدَدِ ومُكْسَ عَشِيرَةِ
الْأَخْطَلِ ، ومن تَمَّ نَشَأَ نَصْرَانِيَا ، غير أنه فيما يظهر دخل في الإسلام . وقد
اشترك في الحروب التي نشبت بين قبيلته تغلب وقيس في أثناء فتنة ابن الزبير ،

٧٠١/٢ والخزاة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩
ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٧ ومعها
التنخيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد
نشر ديوانه في ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار
الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

(١) ليل : أم عبد العزيز بن مروان وهي
بنت زيان بن الأصم الكلبية .

(٢) عاجوا : وقفوا .

(٣) راجع في ترجمة القطامي أغاني (ساسي)

١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء

وأُسْرَهُ أحدَ القيسيين في يوم ماكسين ، غير أن زُفَرَ بن الحارث حين عرفه
افتكته من الأسر ، ورتّ عليه ما سُلِبَ منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله
يذوّه به ويصنّيعه معه طويلاً ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثوىً فقد أحسنت . يا زُفَرُ ، المتاعا (١)
أأَكْفُرُ بعد رَدِّ الموت عني وبعد عَطَائِكَ المائة الرّتاعا (٢)
ولم أر مُنْعَمِينَ أَقْلَ مَنّا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا (٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ أبْت أَخلاقهم إلا اتساعا (٤)

وفي هذه القصيدة يَتَأَسَّى للحروب الناشئة بين تغلب وقيس على ما بينهما من
صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح وروّف هذه الحروب المهيّرة التي
لا تتوقف رَحَاحها حيناً إلا لتعود أشدّ التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنك أن حبال قيسٍ وتغلب قد تباينت انقطاعا
وكنّا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمُورُ لو تدبّرها حلیمٌ إذَنْ لَنَهَى وهيبٌ ما استطاعا

ووفد على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له
إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد (٥) بن سليمان سيبرك إن مدحته ،
فمدحه ، وأضفى عليه كثيراً من بیره ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :
إنا محبوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل (٦)

-
- (١) استلام : أقر ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .
(٢) أريد بالكفر كفر النعمة وجعلها .
الرتاع : جمع راتعة .
(٣) المُن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمتنون بما يصنعون .
(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بني عامر ابن صمصمة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره .
من الشيم الفاضلة .
(٥) انظر في تحقيق نسب هذا المدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكيم بن أبي العاص الحزاة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القضاة في الأغاني وبالقصيدة الأولى في الديوان .
(٦) الطيل هنا : الأزمة .

ونراه يضمنها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائح كما نرى في مثل قوله :

والعيش لا عيش إلا ما تَقَرُّ بِهِ عَيْنٌ ، ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يَلْقَى خيراً قائلون له ما يَشْتَهَى ولأُمِّ المخطيء الهبلُ
قد يُدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

وشُيِّد في القصيدة بقرش ونُصِرَتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتبئتها لدعائم
الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمَّ عليه نعمة الإسلام ، يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتُوا الإسلامَ وامتنعوا قومُ الرسول الذي ما بعده رسلُ
ومن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خازجة الفزارى ، وله فيه أمداح رائعة
على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خازجة بن حِصْنٍ فلا هطلتْ على الأرض السماءُ
ولا رجع البريدُ بغُفْمٍ خَيْرٍ ولا حملتْ على الطُّهرِ النساءُ
ومن أهم ما يميزه في شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعدوبة أنغامه
ويمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفى في أوائل القرن الثاني للهجرة .

كعب^(١) بن معدان الأشقرى الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار
في حروب المهلب للأزارقة في فارس ولترك في خراسان . وله في المهلب ووصف
حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون
ملحمة ، وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً . وروى منها الطبرى ثلاثة وثمانين بيتاً^(٢)
وهو في شعره يحسن حَوَك اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب
وأبنائه :

وراجع الجزء الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .
(٢) طبرى ٥ / ١٢٢ .

(١) انظر في ترجمة كعب الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢٨٣ / ١٤ وما بعدها والشعر والشعراء
٣٩٧ / ١ وما بعدها ومعجم المرزبان ص ٢٣٦

بَرَكَ اللهُ حينَ بَرَكَ بَحْرًا وفَجَّرَ مِنْكَ أَنهَارًا غِزَارًا^(١)
 بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْعَالِي إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْخِطَارًا^(٢)
 كَانَهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَذَرٍ دَرَارِيٌّ تَكْمَلُ فَاسْتَدَارًا^(٣)
 مَلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ ذَفَرٍ إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارًا^(٤)
 رِزَانٌ فِي الْأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِم مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلَ وَالنَّجَارًا^(٥)
 نَجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا أَخُو الظُّلَمَاءِ فِي الْغِمَرَاتِ جَارًا
 وَتَوَفَّى الْمَهْلَبُ ، فَلَزِمَ ابْنَهُ يَزِيدَ يَمْدَحُهُ وَيَصِفُ حُرُوبَهُ مَعَ التُّرْكِ وَبِرَّهُ
 وَنَائِلَهُ الْجَزَلَ ، وَمِنْ بَدِيعِ مَا قَالَهُ فِيهِ :

يَدَاكَ لِاحِدَاهُمَا تَسْقِي الْعَدُوَّ بِهَا سَمًّا وَأُخْرَى نَدَاهَا لَمْ يَزَلْ دِيمَا
 وَلَمَّا عَزَلَ يَزِيدُ عَنْ خِرَاسَانَ لِعَهْدِ الْحِجَااجِ وَوَلِيَهَا قَتِيبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيَّ وَانْتَصَرَ
 عَلَى التُّرْكِ انْتِصَارَاتِهِ الرَّائِعَةَ مَضَى يُشِيدُ بِهِ وَيَانتَصِرَاتِهِ بِمَثَلِ قَوْلِهِ^(٦) :
 دَوَّخَ السُّغْدَ بِالْكَتَائِبِ حَتَّى تَرَكَ الْمُسْغَدَ بِالْعَرَاءِ قَعُودًا
 فَوَلِيدٌ يَبْكِي لِفَقْدِ أَبِيهِ وَأَبٌ مُوجِعٌ يَبْكِي الْوَلِيدَا
 وَجَرَّهُ ذَلِكَ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ لِقَبِيلَتِهِ وَصَاحِبِهَا يَزِيدُ بْنُ الْمَهْلَبِ ،
 وَيُقَالُ إِنَّهُ نَالَ مِنْهُ وَثْلَهُ . وَكَانَ قَبْلَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ يَسْتَشْعِرُ عَجْصِيَّةَ حَادَّةٍ
 لِلْأَزْدِ ، وَهِيَ عَجْصِيَّةٌ جَعَلَتْهُ يَتَهَاجَى هِجَاءً مُرِيرًا مَعَ شُعْرَاءِ قَبِيلَةِ عَبْدِ الْقَيْسِ
 وَعَلَى رَأْسِهِمْ زِيَادُ الْأَعْجَمِ ، كَمَا تَهَاجَى مَعَ شُعْرَاءِ رُبَيْعَةٍ . وَكَانَ مَوْقِفُهُ مَعَ قَتِيبَةَ
 سَبَبًا فِي غَضَبِ يَزِيدُ بْنُ الْمَهْلَبِ عَلَيْهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، فَلَمَّا وَلِيَ الْعِرَاقَ وَخِرَاسَانَ
 لِعَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ طَلَبَهُ ، فَهَرَبَ إِلَى عُثْمَانَ ، وَظَلَّ بِهَا إِلَى أَنْ ثَارَ يَزِيدُ
 عَلَى الْأُمَوِيِّينَ سَنَةَ ١٠٢ فَأَتْبَعَهُ مِنْ قَتْلِهِ .

(٥) رِزَانُ : جَمْعُ رَزِينٍ . وَيُرِيدُ بِالشَّيْخِ

الْمَهْلَبِ . الشَّمَائِلُ : الطَّبَاعُ . النَّجَارُ : الْأَصْلُ

وَالْحَسْبُ .

(٦) طَبَرِي ٢٥٥/٥ وَالسُّغْدُ : جَنْسٌ مِنَ

التُّرْكِ .

(١) بَرَكَ : خَلَقَكَ .

(٢) الْخِطَارُ : الْمَرَاهَنَةُ .

(٣) نَجُومٌ دَرَارِيٌّ : مَضِيئَةٌ .

(٤) الْهَامُ : الرُّعُوسُ ، يَوْمَ الرُّوعِ : يَوْمُ

الْحَرْبِ وَالْخَوْفِ .

زياد^(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ، ومولده ومنشؤه بأصهبان ، وكانت فيه
لغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحَسِّن فَنَّ المديح إحساناً رائعاً ،
ومن ظلَّ يمدحهم طويلاً عمر بن عبيد الله بن معمر وإلى فارس . وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فَمَا تَأَبَّى وأعطى فوق مُنْيَتِنَا وزادا

وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنَا فأحسنَ ثم عُدْتُ له فعادا

أخُ لك لا تراه الدهرَ إلا على العِلَّاتِ بساماً جوادا

ويُروى أن ابن مَعْمَرٍ عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت
ألفاً . وما زال يلزمه حتى توفَّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن
الغُصَّجِ والى سجستان ، وتوفَّى فرثاه رثاء حاراً ، تمثلنا فيما سلف بيت منه ،
وحبَّذ أن مدح المهلب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبَّاء ، فأمر
لهم بجوائز ، وفضل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنَتَهُ في قوله :

فَتَنَى زاده السُّلطان في الخير رفعةً إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلٍ

إذ نطق السلطان « الثُّلثان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له
غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغازط صنيع المهلب بزياد المغيرة بن حَبَّاء وكعباً ،
وانتدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلاً . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق
عليه في عدة قصائد يقول في إحداها هاجياً قبيلته :

قُبَيْلَةٌ خَيْرُهَا شَرُّهَا وأصدقها الكاذبُ الآثِمُ

وضيفهم وَسَطُ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائِثُ

وهاجى قتادة بن مغرب اليَشْكُرى : وفي قبيلته هو الآخر يقول :

ويشكر لا تستطيع الوفاء وتعجز يشكر أن تغدرا

ص ٣٣٣ وراجع أغاني (دار الكتب)
٨٩/١٣ وما بعدها وذيّل الأمانى ص ١٠ والجزء
الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

(١) انظر فى ترجمة زياد أغاني (دار
الكتب) ٣٨٠/١٥ وابن سلام ص ٥٥٧
والشر والشراء ٣٩٥/١ ومعجم الأدياب
٢٢١/١١ والخزاة ١٩٣/٤ والاشتقاق

وكان مُعْتَرِى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنسّاك، ويقال إن الفرزدق هم بهجائه حين رآه يُكثّر من هجاء المغيرة بن حَبَسَاء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لى إن هجوته مصحاً أراه فى أديم الفرزدق
وإننا وما تُهدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَى فى البحر يَغْرِق

فتوصل الفرزدق إليه أن يكفّ عنه . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومريثته للمغيرة بن المهلب من رواثعه . وقد توفى فى حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء فى هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبية القبلية التى اشتعلت — كما مرّ بنا — نيرانها فى كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبية وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلاً أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الرّدّة وأشرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يروى عن أبى شجرة السلمي وانتصاره للمرتدين من قبيلته سَلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قریش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرماً على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين عليّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من الجمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان فى قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان فى موقعة صفّين ضد معاوية . ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه فى الحرب . والتفت بهذه الأصوات أصوات مُفسّريّة كثيرة . وحدث هذا نفسه فى صفوف خصومه ، مما نجد آثاره فى الطبرى فى

وقعة صِفَيْنِ لنصر بن مزاحم . وعيثاً حاول على^٤ أن يُعَلِّي كلمة الإسلام الذي حاول أن يحوّل الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبية ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة في جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت في تولى^٥ قريش تدبير الأمور في الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشبهت سيوفها في وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة

وما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية في الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحسّ قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التي كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهي التي تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد في استشعار العصبية في صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنتاً بنت القرافيصة . وتزوج معاوية من ميسون بنت بحدل ، وهي أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلي بنت زبّان بن الأصبع الكلبي ، وهي ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية في حربه على ذلك ، لأن الصُّهر عند العرب كالنسب ، وسعّ استغلاله ، إذ ضمّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية . تسرى في أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفّي يزيد وجدنا العصبية تستعر بين القبائل في الشام والجزيرة وفي البصرة وخراسان . أما في الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها في أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفي ثانيتهما بتغلب الرّبيعة . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيس^٦ ابن الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروان بن الحكم ، وصل الطرفان سيوفهما في معارك حامية تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آبائهم في الجاهلية ويهجون .

وفي نفس الوقت نجد الحلفين الكبيرين في البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة والتميمة من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومرّ بنا في غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمر الأحنف بن قيس فرّ تقّ الفتق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغلّي طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلي حتى لنجد أبا نُخَيْلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخرأ بانتصارهم على شاكلة قوله ^(١) :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المراق
ضرباً يُقيم صعر الأعناق بغير أطماع ولا أرزاق ^(٢)
إلا بقايا كرم الأعراق

ولم تحتدم العصبيات القبلية في البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبعي ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُند البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبعياً أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الولى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلاً قدّموا رجال الأزد وربيعة والتميم وانتكست قيس وتمد ، وإذا تولّى قتيبة بن مسلم الباهلي مثلاً رفعت قيس وتمد رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل في الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً في اكتنازها ، وأقرأ في أى شاعر ممن عاشوا هناك وترجم له صاحب الأغاني فستره دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من موالها ، على نحو ما مرّ بنا من استعارة الهجاء بين زياد الأعجم ومولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية

عن الكبر والظفرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوياً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدي ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبَسَاء التميمي وقتادة بن مغرب الشكري وابن عمه أبا جِلْدَةَ^(١) . وقد يرتفع صوت في أثناء هذا الضجيج باعترال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسَعَة^(٢) :

أبى الإسلام لا أبَ لى سواه إذا هتفوا ببكر أو تميم
ولكن مثل هذا الصوت كان يضج في غمار هذه العصبيات التي استعلت سلطانها في العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة في جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بشيعةا وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميث بن زيد الأسدي يثير معركة حامية مع حَكِيم^(٣) بن عياش الكلبي ومروان^(٤) مولى الأزدي ، وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت في خراسان والبصرة . وإذا ولّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموي هجاء مبرراً^(٥) ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبّب باختهملة تشبهاً أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الانتصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف^(٦) .

ويلقانا في نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرّار بن منقذ الأسدي ومُساوِر بن هند العبسي . ومن طريف ما للمرار قوله^(٧) :

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٣٢١/١١ .
(٢) الشعر والشعراء ٥٢١/١ .
(٣) أغاني (سأسي) ١٧٠/١٠ .
(٤) الخيران ٧٥/٧ .
(٥) أغاني (سأسي) ٤١/١٣ والمبرد .
(٦) أغاني (دار الكتب) ٣١٨/١٠ .
(٧) انظر في ترجمة النعمان بن بشير أغاني (سأسي) ١٤٧/١٣ ، ١٤٤/١٤ وما بعدها .
والشعر والشعراء ٤٥٦/١ . وقد طبع له ديوان على الحجر في دها . ويشره كرتكو مع ديوان أبي بكر بن العريز .
س ١٨٩ .

شَقِيتُ بَنُو عَبَسَ بِشَعْرِ مَسَاوِرِ إِنْ الشَّقَى بِكُلِّ حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومر بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البرصاء الذبباني وابني عمه عقيل بن
هَلْفَةَ وأرطاة بن سُهَيْبَةَ ومهاجاة ابن مِيَّادَةَ والحكم الحضري ، وكان في ابن
مِيَّادَةَ (١) شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير
وعقال بن هاشم الغني وشُقْران مولى بني سلامان .

وعملت بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران
الهجاء ، فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل في تهاجيه مع زميل آخر ،
حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير في تهاجيه مع
الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصب
عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الرلاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء
فيزيد شاعراً في جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضل ، ويسقط بغضبه
على من فضله كما مر بنا في تهاجى المغيرة بن حبيشة ، وزياد الأعجم . وقد
يبطئ المدح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا
أخو زين الكناني عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله (٢) :

مَوَاعِيدُ عَمْرُو تُرْمَتُ بِرِيحِهِ عَلَى كُلِّ مَا قَدْ قُلْتُ فَيْسَهُ دَلِيلُ
جَبَانُ وَفَحَّاشُ لَيْثٌ مَذْمُومٌ وَأَكْذَبُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ يَقُولُ

وقد يحرم ممدوح مادح له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان
من عكرمة بن ربیعى مع المتوكل (٣) الألبى ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح في

ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب)

١٥٩/١٢ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب

البيت المشهور :

لأنه من خلق وتأوه مشله

عار عليك إذا قلت عظيم

(١) انظر في ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء

٧٤٧/٢ والمؤلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار

الكتب) ٢٦١/٢ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧

والخزانة ٧٦/١ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ٣٣٨/١٥

(٣) انظر في ترجمة المتوكل ابن سلام

رأى المادح بما قَدَّم له من مديحه . فبهجوه ويسرف في هجوه على نحو ما صنع
الشَّمْرَدَل بهلال^(١) بن أحوز المازني فارس تميم في عصره غير مدافع . وقد
يحجب المدح مادحه فلا يأذن له بلفائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو
ما روى الرواة عن حَجَّاب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبي جِلْدَةَ اليشكري ،
فقد تولَّى بهجوه بمثل قوله^(٢) :

قَرَى ضَيْفَهُ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ ابْنَ مِسْمَعٍ وَكَانَ لَثِيماً جَارُهُ يَتَذَلُّ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ
ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ،
وكان على شرطة القُبَاع والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازور عنه
فهجاه وهجا عشيرته الحَبِطَات طويلاً ، وفيها يقول^(٣) :

رَأَيْتَ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبِطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم
والذين طالما مدحهم الشعراء يُهَنِّجُونَ كثيراً أو قليلاً ، فزياد وبنو زياد بهجومهم
ابن مفرغ ، والحجاج بهجوه العُدَيْل^(٤) بن الفرخ العجلي ومالك^(٥) بن الربيع
القيمي ، وفيه يقول^(٦) :

وَلَوْلَا بَنُو مِرْوَانَ كَانَ ابْنُ يَوْسُفٍ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادٍ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمَقْرُّ بِذُلِّهِ يِرَاحُ صَبِيَانُ الْقُرَى وَيَغَادِي

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمال عصبيةً لقييلته تميم

-
- (١) أغاني (دار الكتب) ٣٥٨/١٣ .
(٢) أغاني ٣٣١/١١ .
(٣) البيان والتبيين ٣٧/٤ والخزانة ٢٨٠/٤ .
(٤) أغاني (سأى) ١٣/٢٠ .
(٥) انظر في ترجمة مالك الشعر والشعراء ٣١٢/١ وأغاني (سأى) ١٦٣/١٩ والخزانة ٣١٧/١ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، ومن أكثر من هجائهم عمر^(١) بن هبيرة الفزاري وخالد القسري^(٢) ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار^(٣) :

بكتِ المنابرُ من فزارة شَجْوَهَا فالآن من قَسْرِ تَضَجُّ وتَجزع
وكان المهالبة ممدَّحِين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء
وعلى رأسهم الفرزدق^(٤) . ومن ولاية الشرق الذين مباحهم غير شاعر قتيبة بن
مسلم الباهلي والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله
العبيشي مهجوة أبي حزابة^(٥) . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتاب بن
ورقاء والى الرى وأصبهان حين جفاه بمثل قوله^(٦) :

ويركب رأسه في كلِّ وَحْلٍ ويَعْتُرُّ في الطريقِ المستقيمِ
ويهجو أبو نُخَيْلَةَ المهاجر بن^(٧) عبد الله والى اليمامة . وفي الحجاز نجد
الأحوص مشغوقاً بهجاء ابن^(٨) حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد
العرجي مشغوقاً بهجاء محمد بن هشام المخزومي والى مكة لهشام بن عبد الملك .
ونحن نقف قليلا عند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرغ البصري والحكم بن عبيد
الكوفي وثابت قُطْنَةُ الخراساني .

ابن^(٩) مفرغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان
حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسْتَرْقاً للضحاك الهلالي فأعتقه . وكان يتقن
الفارسية كما أسلفنا في غير هذا الموضع ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه
يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميري فلعل منشأه أنه كان من حنقذة
الفرس الذي نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبع .

- | | |
|-------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ . | (٧) أغاني (ساسي) ١٨/١٤٥ . |
| (٢) أغاني (ساسي) ١٩/٢٣ . | (٨) أغاني (دار الكتب) ٤/٢٣٧ . |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ١١/٣٧٩ . | (٩) انظر في ترجمة ابن مفرغ ابن سلام |
| (٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ . | ص ٥٥٤ وانشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغاني |
| (٥) ٢٦٢ ، ٤١٢ . | (ساسي) ١٧/٥١ والطبري ٤/٢٣٥ والاشتقاق |
| (٦) أغاني (ساسي) ١٩/١٥٢ . | ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة |
| (٧) البيان والتبيين ٤/٥٠ . | ٢/٢١٢ ، ٥١٤ |

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة : وطبعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله : غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صباً على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذي دلح لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فأثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان . وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ يسير معه في موكبه ، فهبت ريح ، فنفتحت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى كَانَتْ حَشِيشًا فَتَعْلَفُهَا دَوَابُّ الْمُسْلِمِينَ
وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتكبر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صُحْبَتِهِ وتركه لسعيد بن عثمان ، وفي ذلك يقول :

إِنْ تَرَكْنِي نَدَى سَعِيدِ بْنِ عَثْمَا نَ فَتَى الْجُودِ نَاصِرِي وَعَدِيدِي
وَاتَّبَاعِي أَخَا الْوَضَاعَةِ وَالذُّؤْمِ لَنَقْصُ وَفَوْتُ شَأْوٍ بَعِيدِ
وكان علي ابن مفرغ دين ، فاستعدى عليه دائنوه عَبَّاداً ، فأمر ببيع ماله في دينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْدٌ وجارية تسمى أَرَاكَةَ ، فبكاهما طويلاً بمثل قوله :

وَشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً (١)
يَا هَامَةً تَدْعُو صَدَى بَيْنَ الْمُشَقَّرِ فَالِيَامَةِ (٢)
الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ (٣)

وأخذ يهجو عَبَّاداً وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زياداً هجاء مقذعاً ، وكان مما وقف عنده طويلاً استلحاق معاوية لزياد : معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أي أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعث .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصنى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين وفجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً في الغمامة .

أَبْلَغُ معاويةَ بنِ حَرْبٍ مُبْغِلَةً عن الرجل اليماني
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ أَبوكَ عَفٌّ وترضى أَنْ يُقَالَ أَبوكَ زَانِي
وَأَشْهَدُ أَنَّ إِلَكَ مِنْ زِيَادٍ كَالْإِلِّ الْفِيلِ مِنْ وَلَدِ الْأَثْنَانِ^(١)
وكان أهل البصرة يتغنون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله،
فطلبه وألحَّ في طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها في وفادة
على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمندربن الجارود ، وكان عبيد
الله مُصْهَرًّا إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرَعْ جوار المندر ، وأخذ ابن
مفرغ وسجنه . ورأى أن ينكئ به ، فأمر — كما مر بنا في غير هذا الموضع —
أن يُسْتَقَى نبذاً ويَحْمَلَ على بعير مقروناً إلى هِرَّةٍ وخنزير ويُسْطَافُ به في أزقة
البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله في طوافه يخاطبونه بالفارسية
ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجياً عبيد الله وجدته مُسمِّية هجاء مقدعاً .
ورُدَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً
ألياً ، فألقى به في غيابات السجون . وشفعت فيه اليمنية عند يزيد بن معاوية ،
وألحت في شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عباداً وأخاه عبيد الله،
وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن
معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقُطُ عليه بهجاء مريز . ، وقد توفى سنة تسع وستين .

الحكم^(٢) بن عبدل

من بني أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بني أمية ،
فلما دخل العراق في طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك
وحظيَّ عنده ، وله في تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته
أشعار كثيرة من مثل قوله :

يَالَيْتَ شعري وليتُ ربما نفعتُ هل أبصرنُ بني العَوَامِ قد شُمِلُوا
بالذلِّ والأَسْرِ والتشريدِ إِيَّاهُمْ على البرية حَتَفٌ حيناً نزلوا

الأديب ٢٢٨/١٠ وما بعدها وفهرس البيان
والتبيين والحيوان .

(١) الإل : القرابة .
(٢) انظر في ترجمة الحكم بن عبدل أغاني
(دار الكتب) ٤٠٤/٢ وما بعدها ومعجم

ولما دخلت العراق في طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته ، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك في بعض مدائحهم ، إذ نراه يصف لمدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجردان^(١) . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا في العصر العباسي ، وكانوا سبباً في نشوء فن المقامات عند بدیع الزمان ثم الحريري . وكان هجاء خبيث اللسان ، ومن هجاهم طويلاً محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلّمه في شخص ليضع عنه ثلاثين درهماً من خراجهِ فردّه ردّاً قبيحاً جعله يَسْلُ لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رَأَيْتَ مُحَمَّدًا شَرِّهَا ظُلُومًا وَكُنْتُ أَرَاهُ ذَا وَرَعٍ وَقَصْدٍ
يَقُولُ : أَمَاتَنِي رَبِّي خِدَاعًا أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ
وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين ، حتى كان المُكَارِي يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدَّ ، أَمَاتَ اللَّهُ حَسَّانَ بْنَ سَعْدٍ . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخطبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وَمَا كَانَ حَسَّانُ بْنُ سَعْدٍ وَلَا ابْنُهُ أَبُو الْمَسْكَ مِنْ أَكْفَاءِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ^(٢)
نَحْدَى دِيَّةً مِنْهُ تَكُنْ لَكَ عُدَّةٌ وَجِئْتُ إِلَى بَابِ الْأَمِيرِ فَخَاصِمِي
وكان ذلك سبباً في تقض هذا الصُّهْر ، إذ أنفت للفتاة عشيرتها وردت ابن حسان ردّاً قبيحاً . ومن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدي صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جِئْنَا وَبَيْنَ يَدَيْهِ التَّمَرُ فِي طَبَقٍ فَمَا دَعَانَا أَبُو حَفْصٍ وَلَا كَادَا
وَوَلَّى إِمَارَةَ الْكُوفَةِ لِمُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي وِلَايَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ عَبْدُ الْحَمِيدِ
ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شرطته مثله أعرج ، فدخل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده في أبيات :

(١) انظر الحيوان ٢٩٧/٥ وفي مواضع متفرقة . (٢) يكنى ابن عبدل بأبي المسك عن ذن ابن حسان .

أَلْتِي الْعَصَا وَدَعِ التَّخَامُغَ وَالتَّمَشُّسَ عملاً فهذى دولة العُرْجَانُ^(١)

فأعطاه عبد الحميد مائتي درهم وسأله أن يكف عنه ، ويقول الجاحظ :
« لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من
الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم
أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ،
ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قَدَّرُوا وفر
مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل^(٢) :

عَصَا حَكَمٍ فِي الدَّارِ أَوَّلُ دَاخِلٍ وَنَحْنُ عَلَى الْأَبْوَابِ نُقَصِّى وَنُحْجِبُ^(٣)

وللحكم هجاء فكه في زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها
متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفي في مطلع القرن
الثاني للهجرة .

ثابت^(٤) قُطْنَةُ

هو ثابت بن كعب من بني العتبيك الأزدية ، وقيل بل هو مولى لهم ،
ولقب قُطْنَةُ لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه في بعض حروب الترك ، فذهب
بها ، فكان يجعل عليها قُطْنَةَ . وهو من فرسان المهلب المبرزين وقد علا نجمه في
ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يوليّه أعمالاً في الثغور ،
فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون
فقال إلى قومهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته في الإرجاء في تضاعيف
حديثنا عن الثقافة .

غير قاضي الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٧٤/٣ .

(٤) راجع في ترجمة ثابت الشعر والشعراء

٦١٢/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٦٣/١٤

والخزانة ١٨٤/٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

(١) التخمع : العرج .

(٢) انظر في ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء

٧١٧/٢ وأغانى (دار الكتب) ٢٧/٤ والطبرى

٤٥٧/٥ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد .

وكان مولعاً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن

وبلثتم في ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب في حروب الأزارقة ، ويتعرض بعض بني الكوآء اليشكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبهى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدُّهم واليشكُريُّون منهم ألامَّ العربِ
ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً في سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له ودُّه ، فكان يمدحه ، وكلمها شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد في البصرة كما قدمنا تعيينها وتشدُّ من أزرها لا في البصرة فقط ، بل أيضاً في خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيد في بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تنزُّو في الفساد وفي الوغى إذا راعها رَوْعُ جماميحٍ برّوقٍ^(١)
وأنتم على الأدنى أسودٌ خفيّةٌ وأنتم على الأعداء خزانٌ سملقٍ^(٢)

وحين ولي قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُ عنه امتعاضاً لابن المهلب ، ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت في بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافت تميمٌ في الطعان وعردتُ بهيئةً لما عاينتُ معشراً غلباً^(٣)
تسامون كعباً في العلأ وكلاها وهيها أن تلقوا كلاباً ولا كعباً

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازنى التميمي ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

(١) تنزُّو : تشب . النزوع : الفرع .
الجماميح : ما ثبت على رؤوس القصب ما إذا دق تطاير . برّوق : ثبت ضعيف .
(٢) خفيّة : أجمة في سواد الكوفة . خزان : جمع خُزُر وهو ذكر الأرناب وهي معروفة بالجن .
والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .
(٣) عردت : فرت . بهيئة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله انهجاء ، ولقبه في هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسماه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول في بعض أهاجيه :

أحاجبُ ! لولا أن أصلك زَيْفٌ وأنتك مطبوعٌ على اللؤم والكفر
وَأنى لو أكثرْتُ فيك مقصراً رَميتُك رمياً لا يَبِيدُ يدَ الدهر

وله أشعار كثيرة في مدح المهالبة وراثهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل في معاركه مع بني أمية طويلاً ، وهو في مدحهم وراثه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قوياً . وأكبر الظن أنه توفي قبل نهاية العقد الأول من القرن الثاني .

٣

شعراء النقائض

هياً استعار العصبية في البصرة وخراسان لاشتعال انهجاء طوال هذا العصر ، كما هياً لنمو فن النقائض نمواً واسعاً ، وقد أعدت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فردّها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من الملامى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلاً نهضت - كما رأينا في غير هذا الموضع - دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملامى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقبّلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلها من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران انهجاء تشتعل فيها اشتعالاً شديداً . حينئذ انبرى انهجاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيمهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأجنادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بتقصيدة على وزن قصيدته ورؤيتها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمع الناس من حولهما يصفقون ويهتفون ويصيحون^(١) . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سد حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهي .

وتدخلت في صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردّها إلى نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثّقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً دليلاً ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحاطون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان^(٢) . وكان أولهما من عشيرة كلّيب اليربوعية ، والثاني من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً في عشيرتهما من جهة وفي قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفًا كثيرة جعلت جريراً يقف في صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرع بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشع الزبير بن العوام حين لحاً بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن بلحات السّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجو^(٣) .

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٢/١٠ أجزاء ضخمة . ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق

الصاوي سنة ١٩٣٥ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها

(٣) شرح أبو عبيدة نقائض الشعراء ،

وحقق الشرح ونشره بيثن سنة ١٩٠٥ في ثلاثة

ونحن لا نصل إلى حكم القُبَاع وإلى ابن الزبير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين في تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجد في نقيضتين لهما يُعلنان تكبيرهما على هذا الوالي ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل ^(١) . ويقول الرواة إن سبب التجمعهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالسبعيث ^(٢) المُجاشعي ، فأغاثه بمثل قوله في جرير وعشيرته :

أترجو كُليبٌ أن يعجى حديثها بخير وقد أعيا كليباً قديمها
فانصب جرير عليه وعلى مجاشع شواط نار . وأفحش بنسائهم إفحاشاً
شديداً جعلهن يستغن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه في الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فققيم التميميين معروفة ، ووجدته عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة : فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نساءك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريراً ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزل في متحيزاً للفرزدق على جرير ، فكان يشوى وجوههم ووجوه عشائهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الراعى ^(٣) ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبيّ دنا الرّواحُ فسيروا غلب الفرزدقُ في الهجاء جريراً
وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعدها « حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

عساكر ١٢٢/٥ ومعجم الأدباء ٥٢/١١ .
(٣) انظر في ترجمة الراعي ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٣٧٧/١ وأغانى (سأسى) ١٦٨/٢٠ وفي ترجمة جرير ، وفي الخزانة ٥٠٢/١ والموشح ص ١٤٧

(١) شرح النفاث لأبي عبيدة (طبعة بيشن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذري ٢٧٨/٥ .

(٢) انظر في ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٤٧٢/١ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن

بالمربد . وكان له مجلس ، وللفردق مجلس ، فدعا بدهن^(١) (طيب) فادهن وكف^(٢) رأسه . وكان حسن الشعر . ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفردق والراعي ، فتوجه للراعي يقول له : أبعتك نيسوتك تكسبهن المال بالعراق . أما والذي نفس جريز بيده لترجعن إليهن يميم^(٣) يسوءهن ولا يسرن^(٤) . ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعي بيته المشهور .

فغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغت ولا ركاباً
ولم يلبث الراعي أن انصرف من مجلس الفردق يعلوه الخيزى والصغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته غير في نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جريز ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا في هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائص في المربد ، وكيف كان يحتفل بشبابه وزينته ، وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصباح والتهليل ، وأيضاً لندل على قارئ جريز في الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفاً . كانت أقواسهم أضعف من أن ترويه بمثل سهامه المصمية ، ومن ثبت له قليلاً ثم اندحر عمر بن بلحأ التيمسي^(٥) . وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريد
ويُقَضَى الأمر حين تغيب تيم^(٦) ولا يُستأذنون وهم شهود
لثام العالمين كرام تيم^(٧) وسيدهم - وإن رغبوا - مسود

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر في هذا الخبر أغاني (دار الكتب)
٢٩/٨ .
(٤) انظر في ترجمة عمر بن بلحأ ابن سلام .
ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفي مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزائن ١/٣٥٩ وقهرس الجزء الثامن من الأغاني والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تغلب، وسنعرض لذلك عما قليل . وفي الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه . إذ كان على شاكلته يعرف كيف يبسرى نبال الهجاء المصممية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلاسنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب في نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبي عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التي يتحدثان عنها دون أن يذكرها . فجزير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس في خراسان ، إذ دفعت تهما الحوادث هناك لكي تنكّل بعبد الله بن خازم السُّلَسي والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ، كما نكلت بعد ذلك بعتيبة بن مسلم الباهلي حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درساً دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ في نقائضهما ، بحيث تُعدّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعب عمل النقيضة : لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضاً دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي كان يحامى عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها ليقف على الأيام التي انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها في الناس .

وواضح أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبية القبلية ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن هذه العصبية اختلطت في العصر الأموي بالسياسة ، وهياً ذلك النقيضة لأن تخوض في مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسبياً وغزلاً . والشاعر في كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام في معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربي الجديدة على الجدل ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد في المعاني . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجريز عملاً فنياً معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعاني ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتي حنينٌ عجولٍ تبتغي البوَّ رائم^(١)

وهو في غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلالاً من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بدّر منه من أشعار تصوّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولست بمأخوذ بلغويٍ تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ويمضي فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جعلت لأهل الأرض نوراً ورحمةً وعدلاً وغيث المغبرات القواطم^(٢)

وكان الحجاج لجّ في البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفّي قبل خلافته ، فنكّل بمن لجّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرّاً صورّه فيه طاغياً باغياً ، لقيّ جزاء بغيه وطفانيه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب القيل إذ ترميهم طير أبيابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . ومن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلي وثورته على سليمان بنجراسان ، واقتخربأن تميا بزعامه وكيع بن أبي سؤد هي التي قضت عليه . ومضى يتكلم لقيس وشاعرها جريز هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس في الجزيرة . ويتجسّم له جريز كأنه قيس نفسه فيقول :

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى : ويعرض
على أمه فترأه أي تحن إليه فلما منها أنه ولد لها

حقيقة .

(٢) المغبرات القواطم : السوات المحببة .

وَأَلْقَيْتَ مِنْ كَفَيْكَ حَبْلَ جَمَاعَةٍ وَطَاعَةً مَهْدَى شَدِيدِ النَّقَائِمِ^(١)

ويسمى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذي ضرب الله به مشركي قريش في يوم بدر . ويعير جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف في يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخراً عارماً بتميم وأيامها في الجاهلية وأجنادها العريقة في الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المراكمة (الأثان) فهم ليسوا فرساناً ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبني وكانت كليبٌ مدَّرجاً للشنائم
' ودائماً يصف كليباً باللؤم والدناءة ، ويُفحش في التَّيْل من نساءها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا ويسلِّف بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كَلَيْبٍ نجومُ الليل ما وضحت لِسارِ
ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمْ نَهَارٌ لدنس لوْمُهُم وضَحَ النهارِ
وما يغدو عزيزُ بني كليبٍ ليطلب حاجةً إلا بجارِ
ووقف جرير في الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التي لخصناها آنفاً ، ففضى بعد غزها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتُ أمَّ الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزَوَازٍ قصير القوائم^(٢)
وما كان جارٌّ للفرزدق مسلماً ليأمن قِرْدًا لَيْلَهُ غير نائم
أتيتَ حدود الله مذ أنت يافعٌ وشبَّتَ فما ينهاك شَيْبُ اللِّهَازِمِ^(٣)
تتبَّع في الماخور كلَّ مريبة ولست بأهل المُحَصَّنات الكرائم^(٤)

(١) المهدي هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه

بالمهدي كما يلقب الشيعة أئمتهم .

(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .

(٣) اللهازم : أصول اللحية .

(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يَصِمُّهُ بأخته جِعْشِن ، وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء ، كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن : فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان بلحه قيون ، فرمى جَدَّتَهُ بهم ، كي يغيطه ويُحَفِّظَه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه في أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما في هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطقاً من الذل . وكان الذي قَتَلَ قتيبة بن مسلم الباهلي وكيع بن أبي سُود اليربوعي ، فهو ليس مجاشعياً ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثَمَّ يقول له :

فَغَيْرُكَ أَدَى لِلْخَلِيفَةِ عَهْدُهُ وَغَيْرُكَ جَلَى عَنْ وَجْهِهِ الْأَهَاتِمُ (١)
فَإِنْ وَكَيْعاً حِينَ خَارَتْ مَجَاشِعُ كَفَى شَعْبَ صَدْعِ الْفِتْنَةِ الْمُتَفَاقِمِ
لَقَدْ كُنْتُ فِيهَا يَا فَرْزَدُقُ تَابِعَا وَرِيثُ الذَّنَابِ تَابِعُ الْقَوَادِمِ (٢)

وبذلك استل منه الفخر بحادثة وكيع ، وجعلها لقومه اليربوعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيْبَةِ الْقَيْسِيَّةِ وأيامها في الجاهلية ، وعَسَمَ الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب في الجزيرة ، وغير تغلب بمسيحياتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين ، وكان عمر قبيل منها أن تدفع صدقة كالعرب لاجزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمى ما تدفعه جزية ، ثلثها وتغييراً . ويعود إلى أيام قيس في الجاهلية ، يعددها ، ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك في أثناء حِجَّةٍ له . وجاءوه بأسرى من الروم ، فأمر بحَزِّ حلاقهم ، وأعطى لبعض من صحبوه أسيافٌ يضربون بها رؤوس هؤلاء الروم ، وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلَبُ إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدَسَّوْا له سيفاً كليلًا لا يقطع ، فلما ضرب به لم يصنع شيئاً في الروم . وانتهزها جرير ، فكان يكرر له هذا

(١) الأهاتم : من أشرف تميم .
(٢) القوادم : الريشات الطويلة في مقدمة جناح الطائر ، والذنابي ما خلفها من ريشات قصيرة .

الحادث ليضحك أهل المريد عليه، بما يصور من خوره وجبته، ومن ثم يقول له الفرزدق في تقيضته السالفة :

فهل ضربة الروي جاعلة لكم (أبا عن كليب أو أبا مثل دارم - ونرى جريرا يرد عليه بمثل قوله :

بسيف أبي رغوآن سيف مجاشع
ضربت به عند الإمام فأزعجت
يداك وقالوا مُحدث غير صارم
ولا تضربون البيض تحت الغماغم
ضربت به عرقوب ناب بصوار
عنيف بهز السيف قين مجاشع
رفيق بأخرات الفئوس الكرازم

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صوءر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فجعل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذي نبا في يده، عراقب الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قين لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفرع وتهلع حين تمسك به ، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهي صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبو السيف في يد الفرزدق ووصفه بأنه قين ابن قين عند حد التلب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربي عند جرير من قدرة على التوليد في المعاني ، كما نرى في مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدوا
أبان المقرفات من العراب
فأورثك العلالة وأورثونا
رباط الخيل أفنية القباب

(٣) أخرات : جمع خرت وهو النقب في أعلى الفأس . الكرازم : الفئوس ضخمة الزروس .

(٤) المقرفات : الهجينات التي لا يخلص نسبها . العراب : الأصليات في المروبة .

(٥) العلاة : سندان الحداد .

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المري أحد فرسان قيس في الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ الحارثيين . الفاغم : أصوات الجيوش ، جمع غمفة .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القَيْنِ لاقَيْنَ مثله لَفْطَحِ المساحي أو لِيَجْدَلِ الأَداهِمَ^(١)

وقوله :

ورَقَّعَ لَجَدَكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ
وَأَذِنَ الْعَلَاةَ وَأَذِنَ الْقُدُومَ وَوَسَّعَ لِكَبْرِكَ فِي الْمَقْعَدِ
وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصر من عناصر
الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصراني ضده ، فأخذ
يُضحك عليه سامعيه في المربد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهما على دين نصرانيةً لتنصرا
وقوله :

يحبُّك يومَ عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْتِ شِيعَتُهُ الْيَهُودُ
ولعل في هذا ما يدل أكبر الدلالة على أن النقائص عند الشاعرين الكبيرين :
جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة
التي تكونت في المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ،
ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهي مناظرة كانت
تقاطع بالتلهيل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلا جادا من أشكال الهجاء المعروفة
عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لشهت معها السيوف ،
وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق في قذف نساء العشائر والأمهات والأخوات .
إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم . بل أصبحت فناً يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس في
البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها
المبرزين . ليمتاشدا أدامهم ابتغاء اللهو والتسلية^(٢) . وكل الأخبار تؤكد أن
جريراً والفرزدق كانا متصافيين متواديين لامتخاضمين متباغضين ، فهما يجتمعان

(١) فطح المساحي : تسويتها وتعريضها . وهو القيد .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/ ٣٧ ، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويّاً ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أوحزّبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يَدَ العون ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفّع له الفرزدق ^(١) ، وإذا هجا الفرزدق خالداً التّقسريّ وجبسه تشفع له جرير عنده ^(٢) ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه ^(٣) . ونراه حين يُلَبّي القدر قبله يرثيه رثاء حارّاً بمثل قوله :

ولا حملتُ بعد الفرزدق حُسرَةً ولا ذاتُ حَمَلٍ من نِفاسٍ تعلّت ^(٤)
هو الوافد المَحْبُوبُ والرائقُ الدَّائِي إذا النّعلُ يوماً بالعشيرة زلّت ^(٥)

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر في عصبية القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر في عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية في آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم في أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا ييغون من ذلك ، إذ تحولوا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التي استضاء فيها بقدرة العقل العربي الحديث على الجدال والتوليد في المعاني . وارجع إلى أي فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قمين أو فكرة ذل بني كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التي يقف عندها في صور كثيرة ، إذ ما يزال يولّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرّع ويشعب ، وكأنما يريد أن لا يُنق فيهما بقية . وانظر في أي نقیضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بلزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صنّع المتناظرين من أهل الدّاد والخصومة في المسائل العقيدية ، فهو يحاول بجاهد أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه في هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثمّ كنّا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهي ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقها مقدمات في العصور

(٤) تعلت : تطهرت .

(٥) الثّأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

(١) أغاني (ساسي) ٢٨/١٩ .

(٢) أغاني ٩٢/١٩ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

السابقة . ولكنها استوت عند الشاعرين في صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى انحاء القديم . وهى ظاهرة التندير على المهجو وقبيلته . حتى تُضحك المستمعين فى المربد . وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصغير والتصفيق . ومن ثم لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِي الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ كالكلبِ يَنْبَحُ من وراء الدار
أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاقِ حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار^(١)
أو يقول :

أتعدل أحساباً ثاماً أدقَّةً بأحسابنا إني إلى الله راجعُ
وكان جرير يلقيه بمثل قوله :

زَعَمَ الفرزدق أن سيقْتَلُ مِرْبَعاً أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ
وقوله :

خذوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ
وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاءه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلُ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميه المناضل عنها . وكان الأخطل - كما قدمنا - يهاجى قيساً فى الحروب التى

(١) الأوتار : جمع وتر وهو النّار .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعه مَرَجَ راهطاً سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فَيُنْصَحِمُهُمْ بأهاليه المقدعة .

وشاعت المقادير أن يلمَّ بالعراق في ولاية بشر بن مروان . فاصطدم هناك بجريير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه ^(١) وطبعي أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجَنَّبُ عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفني من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشعارين ، وإذا هما يَخْلُفَانِ طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام ^(٢) . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفى الأخطل حوالي سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر في هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَن هجوه ، ومدحوا فرفعوا مَن قدر مَن مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَن هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل » ^(٣) وجميع الظواهر التي لاحظناها في نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة في نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَتِيَانِ بتاريخ القبائل في الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبية بالسياسة . وقد سادت الظروف تغلب لتقف في صفوف بني أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، كما سادت الأخطل التغلبي ليكون شاعر بني أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق في الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير : وزره يستلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتَّبِعُهُمْ طرفه مولئها . حتى ليشبَّه نفسه بالسكران المنشثي ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدق يُلمَّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانياً ، فانفرد بهذا الموضوع في شعره .

اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشعارين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .
(٣) البيان والتبيين ٨٣/٤ .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٣١٥/٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .
(٢) نشر صالحاني هذه النقائض في بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة في الأستانة ، وقد

على أنه لم يُطْئَب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُئْعن الحبيبة : مستلهماً زهيراً في هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوهاً بجموده ، ومشبهاً له في هذا الجود بالفرات ، وهي صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر في مملته . ويمضي فيفصل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته في قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفثها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه في صفوف بني أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل في طاعة عبد الملك ، وكأنه ينبغي أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بني أمية إني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمنا زُفَر

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس في حروبها بالجزيرة ، ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس في طاعة بني أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحشّاك التي قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعد نظر . ومضى الأخطل يهجو قيساً حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع في هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُليبُ بن يربوعٍ فليس لهم
مخلفون ويقضى الناس أمرهم
ملطمون بأعقار الحياض فما
قوم أنابت إليهم كل مخزية
على العيادات هداجون قد بلغت
عند التفارط إيراد ولا صدر^(١)
وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا^(٢)
ينفك من دارمي فيهم أثر^(٣)
وكل فاحشة سبت بها مضر^(٤)
نجران أو حدثت سوءاتهم هجر^(٥)

لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناحت .

(٥) العيادات : جمع عير وهو الحمار ،

يهجونهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل .

المنج : تقارب الخطو .

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ،

والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يشتارون ولا يعابهم .

(٣) يقول إنهم ملطمون حيث يكونون في

مؤخرات الحياض ، تلطمهم دارم عشيرة الغرزق

ويأخذ في هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقنّذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل في نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس في الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضمُّ إلى ذلك فخراً بأيامها في الجاهلية ، كما يضم انتصاراً للفرزدق وعشيرته دارم : حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقصر عليه كالصَّمْصَمَر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازي تغلب وهزائمها في حروبها مع قيس سواء في يوم ما كَسَّيْن الذي نكَّل بها فيه عمير بن الحُبَاب أو في يوم الكُحَيْيْل الذي نكل بها فيه زفر بن الحارث أو في يوم البِشْر الذي نكَّل بها فيه الجَحَاف السُّلَمِيّ : ضامّاً إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع في الجاهلية وملججا في هزائم تغلب قبل الإسلام ، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حِيَاضَ الْمَجْدِ مُتْرَعَةً من حَوْمَةٍ لَمْ يَخَالِطَ صَفْوَهَا كَدْرٌ^(١)
لَمْ يُخْزِرْ أَوْلَى يَرْبُوعٍ فِوَارُسُهُمْ وَلَا يُقَالُ لَهُمْ كَلَا إِذَا افْتَخَرُوا
هَلْ تَعْرِفُونَ بَذَى بَهْدَى فِوَارِسَنَا يَوْمَ الْهُذَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسَرٌ^(٢)
خَابَتْ بَنُو تَغْلِبٍ إِذْ ضَلَّ فَارِطُهُمْ حَوْضَ الْمَكَارِمِ إِنْ الْمَجْدُ مُبْتَدِرٌ^(٣)
الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعِمَاءِ إِنْ ظَعَنُوا وَالسَّائِلُونَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبِرُ^(٤)
الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَّهُمْ وَالنَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَيْرُ^(٥)
إِنِّي رَأَيْتَكُمْ وَالْحَقُّ مَغْضَبَةٌ تَخْزُونَ أَنْ يَذْكَرَ الْجَحَافُ أَوْزُقُرُ
كَانَتْ وَقَائِعُ قَلْنَا لَنْ تُرَى أَبَدًا مِنْ تَغْلِبٍ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
حَتَّى سَمِعْتُ بِخَنْزِيرٍ صَفَا جَزَعًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا^(٦)

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه

أُسرَت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذي يتقدم قبل الإبل ليملاها

الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم

لا يُسألون في شيء وهم يُسألون عن أخبار الناس .

(٥) الخير : الموضع المستتر ، يقول إنهم

ينزلون به فراراً من النسيقان والحقوق التي تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنيّ ، وقد لقبه في البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصراني ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضي في نفس هذه النقيضة : فيقول .

رَجَسُ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا ، أَذَانُهُمْ قَرَعُ النَوَاقِيسِ لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ ^(١)
وما لتغلبَ إِنْ عَدَّتْ مَسَاعِيَهَا نَجْمُ يَضِيءُ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ
الضاحكين إلى الخنزير شهوته يَا قُبَحَتْ تِلْكَ أَفْوَاحُهَا إِذَا كَشَرُوا ^(٢)
والمُقرَّعين على الخنزير ميسرهم بئس الجزورُ وبئس القوم إذ يسروا ^(٣)
جاء الرسول بدين الحق فانتكشوا وهل يضيرُ رسولَ الله أَنْ كَفَرُوا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه أنجح حَر ، ولم يستطع له جواباً ، ومن ثم كان جرير يقول إنني أُعِنتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بهمارته في التندير على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله في نقيضة ثانية :

قَبَحَ الإِلَهِ وَجْوهُ تَغْلِبَ كُلَّمَا شَبَحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا ^(٤)
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبَجَبْرَتِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالَا
المُعْرِسِينَ إِذَا انْتَشَوْا بِبَنَاتِهِمُ وَالْدَائِبِينَ لِإِجَارَةٍ وَسَوَّالَا ^(٥)
والتغلبُ إِذَا تُنْبِجُ لِلْقِرَى حَكَّ أَسْتِهِ وَتَمَثَّلَ الْأَمْشَالَا ^(٦)
ولو أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابُهَا يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزَنْ مَثْقَالَا
نُبِّئْتُ تَغْلِبَ يَنْكُحُونَ رِخَالَهُمْ وَتَرَى نَسَاؤَهُمُ الْحَرَامَ حَلَالَا ^(٧)
لَا تَطْلُبْنَ خَوْلَةً فِي تَغْلِبِ فَالزَّنَجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَحْوَالَا

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال :

رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجبر وسائل .

(٦) تنبج : كانوا ينبجون في الظلام إذا

ضلوا لئلا يرد عليهم كلاب الحى ، فيسبّون بها

للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصراني ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

ويقول في نقيضة الثالثة :

إن الذى حَرَمَ المكارمَ تَغْلِبَا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرُّ ابْنِ وَأَبُو الملوِكِ فهل لكم يا خُزَرَ تغلبَ من أب كَابِينَا^(١)
هذا ابنُ عَمَى في دمشقَ خليفةً لو شئتُ ساقكمُ إِلَى قَطينَا^(٢)
وما زالَا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقبل له ألا توصى ؟
فقال تَوَّأ :

أوصى الفرزدقَ عندِ الماتِ بِأَمِّ جريرٍ وأَعْيَارِهَا^(٣)
ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت
وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبحَ أَلَامَ زوَارِهَا^(٤)
والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له
الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَروى الرواة : «إن جريراً أوتى من سير
الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهججى منه ، قلت :

قومٌ إذا استنبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمْ قالوا لأَمَّهُم بُولى على النار
فلم يَرَوْه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تُنْبَحَ للقَرَى حَكَ أَمَّتُهُ وتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوْه^(٥) . ولعل من الخير أن نلَمَّ بحياة هؤلاء
الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرزيه فى
الهجاء والمديح جميعاً .

(٣) أعيار : ججع غير وهو الجمار

(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٥) أغاني ٣١٨/٨ .

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى

به جرير عن اللؤم .

(٢) القطين هنا : الجدم والعبيد .

الأخطل (١)

واضح مما قلنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية الكبيرة التي كانت تكون مجموعة قبائل ربعية ، وكانت تنزل في الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة ، وغرباً إلى الشام ، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بكترجكتي فيها المهلهل . وأخرى مع أمراء كنده وأمراء الحيرة ، وقصة قتْل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمر بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها في الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة . ولما فتحت الفتوح لحَّتْ في أول الأمر مع الفرس والروم ؛ وسرعان ما اضطُرت إلى الدخول في طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقبيلَ منها أن تؤدِّي الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها في الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية في حروبه مع علي بِصِفَّيْن ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَّ الألسنة في جيش معاوية على خصومه (٢) :

وقد مضت تغلب بعد صِفَّيْن تَحْطَب في حبل الأمويين ، من سفيايين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزلت إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها في

أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحان .

(٢) انظر في أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفي مواضع متفرقة . وانظر في ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفي مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٦٣١/٢ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ٤٧/١ وراجع فهرس الطبري والأغاني .

(١) انظر في ترجمة الأخطل أغاني (دار الكتب) ٢٨٠/٨ وكذلك في ترجمة جرير ٣/٨ وما بعدها وفي خبر الجحاف ويوم البشر ١٩٨/١٢ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ٤٥٤/١ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفي مواضع متفرقة وخزانة الأدب ٢٢٠/١ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بني أمية السيد مصطفى غازي وانظر في

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تؤكد تقدم بهما الأيام في أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سبّلاً سيوفهما ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس في طاعة عبد الملك وتكافست القبيلتان عن المغازى في الجزيرة .

وفي هذه القبيلة وفي فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفي عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى القَدَّ وَكَس وُلد الأخطل في بادية الحيرة حوالي سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهي من قبيلة إباد ، ومن ثمَّ نشأ نصرانياً ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل في الإسلام . وفي أخباره أنه كان يُكثر الشَّجار في صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبِلَا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه . فإننا نراه يطلق زوجته . ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وافتقر بها سقته شديداً ، فكان يُكثر من هجاء الناس . ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْمِل الأخطل ومعناه السفهية . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فلن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموي ويتعرَّض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلاً مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعلوم أن الأنصار كانوا مغاضبين لبنى أمية منذ وقوفهم مع علي في صفين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابن حسان . فقال يزيد لكعب بن جُعَيْمِل : أجبته عنى وأهَّجته ، فقال : « أَرَادَى أَنْتَ إِلَى الْإِشْرَاك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه . فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

في الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ، فنظم في هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبت قريش بالمكانم والعُلا واللُّؤم تحت عمام الأنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية في حروبه ضد على وولائه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك ؟ قال لسانه ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إني جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذ ردّ عني ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكان الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغدقون عليه . وليس في ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى في أماليه روى له فيه هذين البيتين (١) :

إذا متَّ مات العزُّ وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرّد (٢)

ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجدّد (٣)

وفي ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسّ في قصائده لأولین ضرباً من الدعوة السياسية لبني أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية في صِفِّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تمَّتْ جُودهم والله فضَّلهم وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نَكِدُّ
ويوم صِفِّين والأبصارُ خاشعةٌ أمدِّهم — إذ دعوا من ربهم — مددُّ
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يوازنهم بيئتُ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والعُدُدُ

(١) أمال المرتضى (طبعة الحلبي) ٢٤/٢ .
(٢) مصرّد : مقل .
(٣) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلاً ، فقد كان ينفذ عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه في الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً في صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربي وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس . ومراً بنا أن القبائل اليمنية في الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان في موقعة مَرَج رَاهِط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها في تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس في الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِيَّ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع في تغلب على نحو ما أسلفنا في الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُدْعون ويدخلون في طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفراً ، ويحاول في سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل في هذا الاختصاص ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعندهما الجَحَافُ السُّلَمِيُّ ، فينشد :

ألا سائل الجَحَاف هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرٍ
أجحاف إن نهبط عليك فتلتقي عليك بحور طاميات الزواخر

ووثب الجحاف يَجْرُ مُطْرَفَهُ غضباً ، وذهب تَوّاً إلى قومه في الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلاً فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبقّر من النساء من كانت حاملاً . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة معركة « البشر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضلَّ من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمنته ، فعاد على أن يؤدّي الحملات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتصور من هذه الوقعة تصورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بنى أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فسائلُ بنى مروانَ ما بال ذمةٍ وحبلى ضعيف لا يزال يوصلُ
فإلا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مُسترادٌ ومزحلُ^(١)

واستطاع عبد الملك أن يرمّ الفتق ويحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلاً علياً ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يسئل بين يديه « وعليه جبة خزر وحُرّز خزر ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمرًا^(٢) »

وعصر عبد الملك يُعبدُ العصر الذهبي للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة ، وأثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، وفي الأغاني أخبار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبنى أمية . كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهي دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قيس وساعدهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خفّ القطين » التي أسلفنا الحديث عنها ، وقد أحكم نسجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله في الأمويين :

حشدُ على الحق عيافو الحنا أنفُ إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجّت على الآفاق مظلمةً كان لهم مخرجٌ منها ومعتصرُ^(٣)

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

(١) بملكها : بقدرتها . مستراد : مرعى

(٣) تدجّت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .

أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدَّ إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقَرٍ^(١)
 شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسُ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٢)
 وَالْأَخْطَلُ فِي مَدِيحِهِ لَا يَقِلُّ يِرَاعَةً وَمَهَارَةً عَنِ الْفَرْزَدَقِ وَجَرِيرٍ ، بَلْ لَاشَكَّ
 فِي أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ أَوَّلُهُمَا إِذْ كَانَتْ نَفْسُهُ صَلْبَةً ، وَكَانَ يَعْتَزُّ بِآبَائِهِ اعْتِزَّازًا شَدِيدًا ،
 فَلَمْ يَبْرَعْ فِي الْمَدِيحِ . إِنَّمَا بَرَعَ فِي الْفَخْرِ . أَمَّا جَرِيرٌ فَكَانَتْ نَفْسُهُ لَيِّنَةً ،
 وَمِنْ ثَمَّ يَبْعُدُ هُوَ وَالْأَخْطَلُ فِي الْمَدِيحِ فَرَسَى رَهَانَ . وَإِنْ كُنَّا نَلَاخِظُ فِي الْوَقْتِ
 نَفْسَهُ أَنَّ مَدَائِحَ جَرِيرٍ أَكْثَرُ عَذُوبَةً ، إِذْ كَانَ يَتَفَوَّقُ عَلَى خَصْمِيهِ جَمِيعًا فِي
 حُلَاوَةِ الْأَلْفَاظِ وَجَمَالِ النِّخَمِ وَرَشَاقَةِ اللَّفْظِ وَنُعُومَتِهِ . أَمَّا الْأَخْطَلُ فَيَمْتَنِزُ
 بِرِصَانَةِ الْأَلْفَاظِ وَفَخَائِصِهَا وَجَزَالَتِهَا ، وَمَدَائِحِهِ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ تُعَدُّ دَرَرَهُ الشَّعْرِيَّةُ .
 وَهُوَ فِيهَا يَكْثُرُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ لِأَمْتِهِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ بِأَبْيَضٍ لَا عَارِيَ الْخِيَانِ وَلَا جَذْبٍ
 وَلَكِنْ رَأَى اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا عَلَى رِغْمِ أَعْدَاءٍ وَصَدَادَةٍ كُذِّبِ^(٣)
 وَنَرَاهُ يَلْمُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ خِيَانَتِهِ بِالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ كَثِيرًا يَمْدَحُ وَلَا تَهْمَا
 وَأَجْوَادَهُمَا مِنْ مِثْلِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسِيدِ الْأُمَوِيِّ ، وَبِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ
 وَالْحِجَاجِ ، وَسَمَاكِ الْأَسَدِيِّ ، وَهُوَ مِنْ أَجْوَادِ الْكُوفَةِ . وَنَرَاهُ يَنْوِّهُ بِمَصْقَلَةِ بْنِ هُبَيْرَةَ
 الشَّيْبَانِيَّ أَحَدِ قَوَادِ طَبَرِسْتَانَ ، كَمَا يَنْوِّهُ بِعَكْرَمَةَ بْنِ رَبِيعِ الْفَيَاضِ وَجُودِهِ الْغَسَمَرِ ،
 وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهِ :

إِنْ ابْنُ رَبِيعٍ كَفَسَانِي سَبِيَّهُ ضِغْنُ الْعَدُوِّ وَعِذْرَةُ الْمُخْتَالِ^(٤)
 وَإِذَا عَدَلْتَ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ فَيْضَ الْفُرَاتِ كَرَاشِحِ الْأَوْشَالِ^(٥)
 وَمِنْ نَوِّهِ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّجَلِيُّ وَجِدَارُ بْنُ عَتَّابٍ التَّغْلِبِيُّ وَهَامُ بْنُ
 مَطْرَفٍ .

(٤) السَّيْبُ : الْعَطَاءُ . الْعِذْرَةُ : الْإِعْتِذَارُ ،

يُشِيرُ إِلَى مَنْ يَسْأَلُكُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .

(٥) عَدَلْتُ : وَزَنْتُ . الْأَوْشَالُ : جَمْعُ وَشَلٍ
 وَهُوَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ . وَالرَّاشِحُ : الَّذِي يَسِيلُ فِي قَلَّةٍ .

(١) الْجَدُّ : الْحِظُّ .

(٢) شَمْسٌ : جَمْعُ شَمْسٍ وَهُوَ الْعَسِيرُ فِي
 عِدَاوَتِهِ . اسْتَقَادَ لَهُ : أَعْطَاهُ مَقَادَتَهُ وَذِمَامَهُ ،
 فَخَضَعَ وَذَلَّ .

(٣) كَذَبٌ : جَمْعُ كَذُوبٍ .

تُطَوَّى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفى عبد الملك ، ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقْصِيه عنه ، ويقرب منه شاعراً شامياً مسلماً هو عدى بن الرقاع العاملي ، وبذلك انزوى الأخطل ، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد ، ومدحه فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يحيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودنانها ونداماها ، وبطيل المديح في عتقها والسرور بشرها ، يقول :

صهباء قد كلفت من طول ما حُبِسْتُ في مخدع بين جنات وأنهار^(١)
عذراء لم يجتَلِ الخطاب بهجتها حتى اجتلاها عبادي بدينار^(٢)
واقرأ له القصيدة الأولى في ديوانه ، فستره يصور فيها زقاق الخمر تصويراً بديعاً ، إذ يقول ،

أناخوا فجرؤا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا^(٣)
ويصف تمسحها في دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدب دبيبا في العظام كأنه دبيب زمال في نقا يتهيل^(٤)
ويرسم صورة المنتشى بها نشوة تفقده حسه ووعيه ، على هذا النحو :
صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيانا وحين نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل^(٥)
إذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مغبل
وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً ، حتى لراه يذكر في حديث له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه^(٦) . وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا ، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركا ، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . ونراه يذكر الصليب في ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُقسم بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

(٣) الشاصيات : الممتلئة .

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها .

(٤) النقا : الكتيب من الرمل .

(٢) عذراء : لم تنقص . العبادى : نسبة

(٥) نهاده : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

إلى قوم في الحيرة كانوا يتجرون في الخمر ، وهم

(٦) أغاني (دار الكتب) ٢٩٠/٨ .

نصارى ، سوا العباد .

الفرزدق (١)

شاعر تميمي ، وكانت تميم تنزل في الجاهلية بشرق الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل في نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل النخبية والمضرية والربيعة في أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتعد أكبر القبائل المضرية ، وهي في حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم وبربوع ومازن ومينقر وبنو الهجيم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق في الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها «أؤارة» بين دارم وعمر بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرَحان» بين دارم وعامر و«ذو تجب» بين ربوع وعامر و«النَّجاج» بين مينقر وبكر و«إراب» بين ربوع وتغلب و«جبله» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طخخفة» بين دارم وربوع . وكانت وثنية إلا نفرًا قليلًا تنصروا ، وهم يسمون في الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حجر وسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وعدي بن زيد العبادي ، ومن شعرائها في صدر الإسلام عبيدة بن الطبيب ومتمم

ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأمالى ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكمله هل . وطبع في مصر ويروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوي . ونشر بيغن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبي عبيدة ، والديوان والنقائض جميعاً في حاجة إلى نشرة علمية محققة .

(١) انظر في ترجمة الفرزدق الأغاني (طبع ساسي) ٢/١٩ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار في أغاني (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء ١/٤٤٢ وابن سلام ٢/٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١٩/٢٩٧ وخزانة الأدب ١/١٠٥ و امرأة الجنان لليافعي ١/٢٣٨ وأمالى المرتضى ٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة في الأغاني انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٥/٢٢٠ والطبری ٤/١٨٠ وما بعدها و

ابن نويرة . وقد دخلت في الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متبينة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون . فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام . مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة في فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة في معارك صفين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج في زمن علي بن أبي طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة في صفوف الأزارقة . وقد مر بنا أنها تحالفت في البصرة مع قيس ضد الأزدي وربيعة . وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اضطدمت بالأزد ، وظللتا متنافرتين طول العصر لا في البصرة فحسب ، بل أيضاً في خراسان .

وكانت دارم تتشعب شعباً أهمها بنو فُقَيْمٍ وبنو نَهْشَل وبنو مجاشع . وفي بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة ولد الفرزدق وهو لقبٌ لقَّب به لجاهلته وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الحبيزة الغليظة التي يتخذ منها النساء التمتوت . واسمه هَمَام ابن غالب بن صَعْصَعَة بن ناجية بن عِقَال ، وجميعهم في ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فُتدَى الموءودات في الجاهلية ونهى عن قتلهن ، ويقال إنه فُتدَى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك . ونوّه الفرزدق في شعره بهذه المكرمة بلده طويلاً ، من مثل قوله :

أَبَى أَحَدُ الْغَيْثِينَ صَعْصَعَةُ الَّذِي مَتَى تُخْلَفِ الْجَوَازُ وَالنَّجْمُ يَمْطُرُ
أَجَارِ بَنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجَرُّ عَلَى الْقَبْرِ يُعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْتَرُ وَقَبَانُ وَدَيْسَمُ ، ومن ثم جعل جرير مجاشعا قيوناً كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر في الجاهلية كان ابنه غالب في الإسلام وأمه ليلي أخت الأقوع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، وما يروى من جوده السيال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويروى أن دارما وبربوعاً أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد ربوع سُحَيْمِ بْنِ وَثِيلٍ فصنع صنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْمٌ مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحر إبله كلها في مكان يسمى صَوَّعَر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً في شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثَيْن ، وتصادف أن أحد أشرار بني منقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ، وقد غير جرير الفرزدق بذلك كثيراً حتى لنراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التي وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالي سنة عشرين للهجرة ، ففي أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفي أخباره أيضاً أن أباه قدّمه إلى علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ في بيت كريم ، مآثره ومفاخره لا تُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق في نفسه إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتداداً شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم في هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجِير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجِيرُون . ولما توفّي صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاق الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوى في هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التي حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوى في هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن قصر بني أمية في دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بني أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمّ عم له يسمى الحُتَات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفّي قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكذب بسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة في معاوية يقول فيها :

فما بال ميراث الحُتات أخذته وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائِبُهُ^(١)
 فلو كان هذا الأمرُ في جاهليَّةٍ علمتَ من المرء القليلُ حالتهِ^(٢)
 ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه في ذنبٍ ذهب بكبش
 من غنم لأهله ، وهو يستهله بقوله :

تلوم على أن صبَّح الذئب ضأنها فاللوى بكبش وهو في الرغى راتعُ
 وهى أبيات جيدة الصياغة . وفي أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد
 اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن
 هجأهم وأسرف في هجائهم بنو فُقَيْمٍ وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم في قوم ،
 فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبتُ وفودُ بنى فُقَيْمٍ بِألمٍ ما تؤوبُ به الوفودُ
 ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النهشلي ،
 واستعر المهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك
 في سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو
 البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ،
 وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبَل
 معاوية ، وكان سيّداً ممدّحاً ، فأمنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :
 ترى الغرَّ الجحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمرُ في الحدثنانِ غالا^(٣)
 قيناماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به هلالاً
 وسمعه الخطيئة وهو بنشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ
 لا ما نعللُ به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رَقَّ له وقال : لو أتاني لآمنتُه وأعطيته ،
 فقال في كلمة :

دعاني زيادٌ للعطاء ولم أكنْ لآتيه ، ما ساق ذو حَسَبٍ وفراً^(٤)

- (١) حرب : جد معاوية .
 (٢) الخلائب : الجماعات وأبناء العم في القبيلة .
 (٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة
 ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحجج
 وهو السيد الكريم . الحدثنان : حوادث الدهر
 ونوائبه . وغال : أصاب بشر .
 (٤) الوفير : المال الكثير . وأراد التأييد أى
 لا آتيه أبداً .

ومضى في المدينة ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان ،
وذكر ذلك في شعره بمثل قوله :

إِذَا شِئْتُ غَنَّانِي مِنَ الْعَاجِ قَاصِفٌ عَلَى مِعْصِمِ رِيَّانٍ لَمْ يَتَّخَذْ^(١)
وقوله :

مِمَّا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهُ

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثغرة في خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل
المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم ، فَوَلَّى مروان ، وكانت فيه
شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفي طريقه إليها
أتاه نعي زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه
مسكينا الدارمي يتفجع على زياد بمثل قوله :

رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَّتْ جِهَارًا حِينَ ودَّعَهَا زِيَادُ

فحقق عليه حقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أَمْسِكِينُ ! أَبْكِي اللَّهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا جَرَى فِي ضَلَالٍ دَمْعُهَا فَتَحَدَّرَا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه . حتى لا يهدم شطر حسبه . ونراه
يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له في مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بني
منقر ، ويغضب لهم مرة بن مَحْكَن^(٢) شاعر بني زُبَيْع التميميين وسيدهم ،
فيهجوهم وعشيرته بكلمة يقول في تضاعيفها :

تُرَجِّى رُبَيْعٌ أَنْ يَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رُبَيْعًا كِبَارُهَا

ويشتعل بينهما الهجاء . وتدخل في فترة فتنة ابن الزبير ، وتبعه العراق كما
تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعب^٣ ابن محكان . ونرى الفرزدق في هذه الأثناء

(١) أراد بالناج أساور العاج . قاصف :
من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة
الأساور : ريان : مثلي . يتخذ : يتجمل .
(٢) انظر ، ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥
والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسي)
٩/٢٠ ومعجم اللغة ٢٩٥ .

يدخل - كما مر بنا - مع جرير في معركة الهجاء التي استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتي أورثتنا نقائضهما آتفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النّوّار وهي ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليّها ، فأنهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الخدق . فنضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خولة بنت منظور بن زبّان الفزاري . وتشفّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقبلْ شفاعتهم وشفّعتْ بنتُ منظور بن زبّانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مُؤنزرا مثلَ الشفيع الذي يأتيك عُريانا
وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله في العراق فحضت معه النّوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا في مكة ، غير أنها ظلت تشاره وتشاجره ؛ إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حدّراء بنت ريق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرض بالنّوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدّراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدّراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النخريّة وطيبة المجاشعية ، ونشزنا منه فطلقهما ، وما زالت النّوار تغاضبه حتى طلقها وندم نداماً شديداً ، يقول في كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسعيِّ لما غَدَتْ مني مطلقَةً نَوَّارُ^(١)
وكانتُ جَنَّةً فخرحتُ منها كآدم حين أخرجهُ الضُّرارُ^(٢)

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبطة وسبطة وخبطة وركضة من النّوار وُلد له أيضاً زَمعة وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر . وفي تسميته

(١) الكسعي: شخص يضرب به المثل في الندم. (٢) الضرار: العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء ما يدل من بعض الوجوه على غِلَظ نفسه ولاشك في أن فضله المبكّر في حياته، الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذي ولى العراق لأخيه، عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إِنَّكَ سَيْفُ اللَّهِ صِيلَ بِهِ عَلَى الْعَدُوِّ وَغَيْثٌ يُنْبِتُ الشَّجَرَ

وَوَلَّى الْعِرَاقَ الْحِجَابُ ، وَكَانَتْ فِيهِ قَسْوَةٌ ، فَخَشِيَ بَطْشَهُ وَمَضَى يَمْدَحُهُ
مَدَائِحَ رَائِعَةٍ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

إِنْ ابْنَ يُوسُفَ مَحْمُودٌ خَلَّاتُكُهُ سَيَانٍ مَعْرُوفُهُ فِي النَّاسِ وَالْمَطَرُ

هُوَ الشَّهَابُ الَّذِي يُرْمَى الْعَدُوُّ بِهِ وَالْمَشْرِقُ الَّذِي تَعَصَى بِهِ مُضَرٌ^(١)

ونوه طويلاً بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل : حتى إذا توفى رثاه رثاء حاراً ، يقول فيه :

وَمَاتَ الَّذِي يَرْمَى عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ وَيَضْرِبُ بِالْهِنْدِيِّ رَأْسَ الْمَخَالِفِ^(٢)

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التيمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك بلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، واجتمع معه الحجاج وولاته في المشرق ، وتصادف أن توفى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولي لم يكن له هم إلا أعمال الحجاج وثار عليه فتية بن مسلم الباهلي القيسي بخراسان ، فقتلته تميم وردت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع في هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتييم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يضطرب اضطراباً التزلزل عنها . وبتأثيرها نجده يشد على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدي السيد الجواد والفارس الشجاع الذي لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه في جرجان ، ليضيق عليه من نواله ، فيأني قائلاً :

دعاني إلى جرجان والرّى دونه لآتيه ، إلى إذن لزمور^(١)
 سآبي وتآبي لي تميم وربما أبيت فلم يقدر على أمير
 حتى إذا ولي يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً
 في مديحه على شاكلة قوله :

إني رأيتُ يزيدَ عند شبابِه لیس الثقی ومهابة الجبارِ
 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصارِ

ودار الزمن فنار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته
 مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازني الذي تعقب آل المهلب
 في قنديل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع
 تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا^(٢).

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلاً لا يفد على قصر بني أمية في دمشق ، وأول
 من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بني حَرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتيه والمتخيراً
 أباك وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمن أوجراً^(٣)
 فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمناً

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بني أمية الذين يدعون لهم ويدافعون
 عن خلافتهم ، مضفين عليهم حالة قدسية من التقوى والبر ، تحفها المبالغة
 المسرفة من مثل قوله في سليمان :

أنت الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبر
 كم كان من قسٍ يخبرنا بخلافة المهديّ أو حَبْر
 جعل الإلهُ لنا خلافته بُرء القروح وعصمة الجبر

(٣) الأوجر : الخائف .

(١) زهور : كثير الزيارة .

(٢) الديوان ص ٥٢٥ .

وقوله في يزيد بن عبد الملك ، وهو مجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عبادي نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنك الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثم خليل الله كل خزنة وكل كتاب بالنبوة قائم
ولعل في هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعياً ماثلاً إلى
بني هاشم وإنما ليسترسلون في ذلك فينسبون إليه قصيدة في علي بن الحسين
وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحيل والحرم
وقد أنكر أبو الفرج الأصبهاني نسبة القصيدة إليه^(١)، والذي لا شك فيه
أنها تخالف نسجه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته
 وآبائه ، وقد مدح بني أمية بأخرة ، أما ولاية العراق فكان إذا خاف بطشهم
مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد
نعم ، ومن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزاري وإلى يزيد بن عبد الملك ،
وفيه يقول :

أمير المؤمنين وأنت عف كريم لست بالطبيع الحريص^(٢)
أوليت العراق ورافدينه فزارياً أحذ يد القميص^(٣)

وولّى بعده خالد القسري هشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ،
وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخر الناس في شق نهر
المبارك ، وانتهر الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجو بالعملين جميعاً ، يقول :

بنى بيعة فيها الصليب لأمه وهدم من كفر منار المساجد
ويقول

أهلك مآل الله في غير حقه على نهرك المشثوم غير المبارك

(٣) أحذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير
أمين على أموال الأمة .

(١) أغاني (سامي) ٧٥/١٤ .

(٢) الطبع : اللثم الذي .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبس ، فالقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكا وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حج خالد وأناب عنه أخاه أسداً ، فردّ إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه في سنه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :
أطعنتك يا إبليس سبعين حجةً فلما انتهى شئني وتمّ تملأ
فَرَرْتُ إلى ربي وأيقنت أنني مُسْلَقٌ لأيام المَنُونِ حِمَامِي
وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لما قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة ، إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المخذ ، فكان ينصب عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجراح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرح في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زير غَوَانٍ وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً » (١) . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بأبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :
وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ ضَرْبِنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادُ (٢)

(١) البيان والتبيين ٢٠٨/١ .
(٢) صعر خده : أماله كبراً وغطرسة .
الضفدع : جمع أخدع وهو العرق البارز في صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخسوع والذل .

وقوله :

ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا^(١)

وقوله :

إن الذي سَمَك السماء بنى لنا
حُلُلُ الملوك ليأمننا في أهلنا
أحلامنا تَزُنُ الجبالَ رزاةً
فادفع بكفك - إن أردت بناءنا -
بَيْتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ^(٢)
وَالسَّابِغَاتِ إِلَى الْوَعْيِ نَتَسَرَّبِلُ^(٣)
وتخالنا جنًا إذا ما نَجْهَلُ^(٤)
ثُهْلَانِ ذَا الهَضْبَاتِ هَلْ يَتَحَلَّلُ^(٥)

والحق أن الفرزدق كان نبعا كبيرا من بنيبيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صلبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر في أساليبه ، من مثل قوله المشهور في مديح إبراهيم بن هشام الخزومي خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملَكاً أبو أمه حتى أبوه يُقَارِبُهُ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعياً على هذا النحو :
« وما مثله (الممدوح) في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعُضُّ زَمَانٍ يَابَنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدَعْ
من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفاً^(٦)

وكان القياس أن يقول مجزفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف ثمشياً مع رَوَى قصيدته . وكان ابن أبي إسحق الحَضْرَمِيُّ يراجعهُ في ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْتَخْرِجُ منه . وقد عَدَّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثَمَّ دارت أشعاره في كتب اللغويين والنحاة كما دارت في كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

(١) وقفوا : رقت ركائبهم لا يتقدمون .

(٢) سَمَك : رفع .

(٣) السابغات : الدروع الكاملة . فتسريل .

(٤) نَجْهَلُ : نجهل هنا : نغضب حمية .

(٥) ثُهْلَانِ : جبل . يتحلل : يتحرك .

(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان ، وله مذائع وأهاج مختلفة في ولايتها وولاية فارس ، أمثال عبيد الله بن أبي بكر وأبي بكر وأبي بكر وأبي بكر وأبي بكر ، ابن عبد الرحمن المُرِّي ، وقد نوه طويلاً بأسدين عبد الله القسري وهلال بن أحمور المازني . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائح وأهاجيه جميعاً . وتماز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضخم ناشئ من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التي قلما تعرف الرقة واللين

٦

(١) جرير

شاعر تيمى من عشيرة كليب البربرية ، ولم يكن لأبائه ولا لعشيرته ما لأبائه الفرزدق وعشيرته مجاشع من المآثر والأجداد ، أما العشيرة فعرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة في الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلاً .

وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً ، أما جده الحطّاني فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قبيلة الشعر ، وما يروى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراء العبيّ بنفسه
وصمتُ الذي قد كان بالقول أعلماً
وفي الصمت سترٌ للعبيّ وإنما
صحيفةٌ لبّ المرء أن يتكلماً

وراجع فهرس الأغاني في مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه في القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوي بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيغن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبي عبيدة ، ونشر صالح نقائضه مع الخطل برواية أبي تمام .

(١) انظر في ترجمة جرير الأغاني (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٣٥/١ وابن سلام ص ٣١٥ والموسم للفرزباني ص ١١٨ وخزافة الأدب ٣٦/١ والعين ٩١/١ وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين - وانظر فيل الأمال ص ٤٣ والطبري ٥/٢٦٧، ٢٧٣

وكانت أمه تسمى أم قيس، وهي من نفس عشيرته، وقد ولدت جريراً في بادية
اليمامة حوالي سنة ثلاثين للهجرة، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد، كانا
ينظمان الشعر.

فجرير إن لم يكن نشأ في بيت مجد فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر
يتوارث في أبنائه، وأشعرهم بلال. وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في
العصر العباسي، وعنه أخذ الرواة شعر جدّه وأكثر أخباره، ويقول ابن قتيبة
كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور.

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة، وقد وجد في جدّه الخَطّقي
خير من يلقّنه الشعر، ويقال إن من أوائل ما نظمه مमारواه له الرواة أبياتاً عاتبه
بها، وذلك أنه كان ذا مال كثير، وكان ينحلُّ أبناءه وأحفاده من ماله
فاستنحله جرير، فأعطاه بعض ماله، ثم رجع فيه، وقيل بل أعطاه قليلاً فاستراد
فلم يزد، فتسخطه، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها، وقد وصلها بعد
ذلك بسنوات بأبيات نظمها في الفرزدق وغسان السليطي، وفيها يقول معاتباً
جدّه :

وإني لمغرورٌ أعلِّلُ بالمُنى ليلى أرجو أن مالك ماليا
وإني لعَفُّ الفقر مُشْتَرِكُ الغنى سريع - إذا لم أرض داري - انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة، فأنشده هذه
الآبيات، فقال له: كذبت إنها لجرير، فقال له: أنا جرير. ومن قوله فيها:

وليست لسيني في العظام بقيةٌ وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف، فالسيف إنما يقطع الشوى
أي الأطراف، فيبقى على من طعنه، أما لسانه فلا يبقى بقية فيمن يقطعنه.
وهو استهلال لحياته الشعرية، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء، وقد ظل
يجول ويصوم في هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفي بعد
الفرزدق بنحو ستة أشهر. وفراه بها جى غساناً السليطي، ويعينه البعيث، فيطعنه
ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء، فيضطرُّ الفرزدق أن ينزله،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجو وهو مقيم بالمروث من بادية النمامة بضلع سنوات ، فأرسلت بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروث ، ليس عندك أحد يروى عنك ، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فأنحدر إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدت لشعر قوى مشهداً آثرتُ ذاك على بنى ومالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق في طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ - ٨٦٦) يأمر - حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمربد - صاحب شرطته عبّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ دارى مرّتين مدمتها وكنت ابن أختٍ لا تُخاف غوائله
ويقول جرير :

وما في كتاب الله هدمُ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مداخله
ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى - كما أسلفنا - مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغاني نقلاً عن الأصمعي إنه كان ينهش ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرى بهم واحداً واحداً ، ويقول في موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً أغلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءونى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : لئن لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويروى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوي عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما^(١)
خروج بأفواه الرواة كأنها قرأ هُندوانى إذا هُز صمما^(٢)

كثيرة الإنشاد . قرأ : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صم : قطع الأهم وبرى العظم .

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلام الذى تحدثه الطلعة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال . والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً . هل ألام على أن يغلبني مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعمهم طعنات مسمومة في نساء عشائريهم ، كقوله في نساء عشيرة سُرّاقة البارق ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُغَطِّي النِّسَاءُ مَهْوَراً كَرَامَةً ونِسَاءُ بَارِقَ مَالِهِنٍ مَهْوَراً

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لُحْثَا التَّيْمِيُّ إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبَا تأديباً ، فَضْرِبَا وأقيما على البُلُسِّ^(١) مقرنين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْمُلُوكَ وَفُودُهُمْ نَتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ

واستغاثت تَيْمٌ* بجرير وتوسلت إليه وتضرعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلَبَهَا وشاعرها ثلَباً قبيحاً . وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيْمِ في مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريراً ، فأناهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلاً له : اتَّقِ الله ، فإن هذا المسجد بُنيَ لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إِنَّ الْهُجَيْمَ قَبِيلَةٌ مَلْعُونَةٌ حُصَّ اللَّحَى مُتَشَابَهُ الْأَلْوَانِ^(٢)
لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ بَعْمَانُ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بَعْمَانُ
مُتَوَرِّكِينَ بَيْنَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ صُعَرَ الْأَنْوَفِ لَرِيحٍ كُلِّ دُخَانٍ^(٣)

(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم ويهنهن ويذهبن يسألونهم . صعر : جمع أصعر وهو الذي ينظر بوجهه لاويّاً عنقه .

(١) البلس : غزائر كبار تعشى قتيلاً ، كان يرفع عليها الجنة تشهيراً لهم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر في ذقنه وعارضيه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ - ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلم هذا العصر، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة، فيمدحه برجز، يقول فيه :

خليفة الحجاج غير المتهم في معقِدِ العزِّ وبؤبؤِ الكرم^(١)

واستنطقه فأعجبه ظمَرُفه وشعره، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعث به إلىّ، فقدم عليه، فأكرمه. وسرعان ما عاش له جرير بمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ ^(٢)
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النَّسَاءِ حَفِيزَةً	إِذْ لَا يَثْقِنَ بَغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ ^(٣)
إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضْهِحِ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يُنْضِي هَمَّهُ	وَاللَّيْلُ مُخْتَلَفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي ^(٤)
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهُدَى	وَاللَّصَّ نَكْلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ ^(٥)
وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا	سَبِيلَ الضَّجَّاجِ أَقَمْتَ كُلَّ ضَجَّاجِ ^(٦)
دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ	غِبْرَاءَ ذَاتِ دَوَاحِنٍ وَأُجَاجِ ^(٧)
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ	وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلبها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق، مع شجاعة فائقة وحفاظة على الذمام. ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد، ويصور كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ : أصل .

(٥) الإدلاج : السير ليلا .

(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصدر .

(٦) الضجج : الباطل .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن

(٤) الغمرات : الشدائد . داجي : مظلم .

جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقطّاع الطريق في الليل المدلهم . ويقول إنه قوم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيشون في الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ فأسمع ذا المعارج فاستجابا ^(١)
صبرتَ النفسَ يابنَ أبي عَقِيلٍ محافظةً فكيف ترى الثوابا
ولو لم يَرَضْ ربُّك لم ينزلْ مع البُصر الملائكة الغضابا
إذا سَمَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجَ أثَقَبَهَا شهابا
وكان عبد الملك بن مروان في دمشق يفسح في مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصراني ، ويُنتَقَلُ إليه شعر جرير في الحجاج فيغضبُ عليه لروعة شعره ومهارته في المديح . ورأى الحجاج أن يهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة في أن يَسْمُلَ بمديحه بين يديه ، فصحبته معه في وفادته التي وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له في النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه في الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التي يقول في استهلالها :

تعرّزتُ أمٌ حَزْرَةٌ ثم قالتُ رأيتُ الموردين ذوى لِقِياح ^(٢)
تعلّل ، وهى ساغبةٌ ، بَنِيها بأنفاسٍ من الشِّيمِ القِرَاح ^(٣)
سَأَمَاحَ البَحورِ فَجَنَّبَنِي أذاةَ اللومِ وانتظري امتياحي ^(٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

ولمّا قد رأيتُ على حَقًّا زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي
أَلَسَمَ خَيْرٌ مِنْ ركبِ المطايا وَأَنْتَدَى العالَمينَ بطونَ راح ^(٥)

أم حزرة : إحدى زوجاته .
(٣) تعلل أبتاعها : تشغلهم . ساغبة : جائعة .
النفس من الماء : الجرعة . الشيم : البارد .
القراح : الصافي .
(٤) أمتاح : استقى من الميع وهو المطاء .
(٥) أفدى : أجود .

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)
ذو المعارج : الله جل جلاله .
(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء .
ولقاح : جمع لقحة وهى الناقة في أول فنتاجها .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصورُ فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاءً مبهماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوهاً بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقومٍ قد سموتَ لهم فدانوا بدَّهم في مُلمِّمة رَدَّاحٍ ^(١)
أبحتَ حمى تهامة بعد نجدٍ وما شئٌ حميتَ بمستباح ^(٢)
دعوتُ المُلحدِّين أبا خُبَيْبٍ جماحاً ، هل شفيتَ من الجماح ^(٣)
فقد وجدوا الخليفة هِزْزِيًّا ألفَ العيصِ ليس من النواحي ^(٤)
فما شجراتُ عيصك في قُرَيْشٍ بعْشَاتِ الفروع ولا ضواحي ^(٥)
رأى النَّاسُ البصيرة فاستقاموا وبَيَّنَّتِ الجِراضُ من الصُّحاح ^(٦)

وأعجب عبد الملك بحرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومحبلاً من فضة . وجرير في هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه في الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر في مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم في الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين في الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدُّ سهامه إلى خصومهم ، وهو في تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقررّاً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشيعة أهلُ باطل وضلال وأهواء وبدعٍ ، يقول في عبد الملك :

لولا الخليفة والقرآنُ نقرؤه ما قام للناسِ أحكامٌ ولا جُمعُ

- (١) دانوا : أطاعوا . الدم : الجيش الكثير .
ملمِّمة : مجتمعة . رَدَّاح : ضخمة . يعتمد
من ثاروا عليه .
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك
على ما كان في يديه من نجد والحجاز .
(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح :
العناد والخلاف .
(٤) هزريا : نافذاً في الأمور مائتياً .
ألف : ملفت . العيص : الشجر . يريد أنه
في صميم العز وليس في نواحيه .
(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان .
والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .
(٦) بينت : تبينت .

أَنْتَ الْآمِينَ آمِينَ اللَّهُ لَا سَرِفٌ فَمَا وَلَيْتَ وَلَا هَيَابَةٌ وَرَعٌ^(١)
 أَنْتَ الْمُبَارَكُ يَهْدِي اللَّهُ شِيعَتَهُ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
 فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى يُثْمَنٍ أَمَرَتْ بِهِ فِينَا مُطَاعٌ وَمَهْمَا قَلْتَ مُسْتَمَعٌ
 يَا آلَ مِرْوَانَ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَكُمْ فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دِينَهُ الْبِدْعُ

وواضح أنه يُزرى على أصحاب الأهواء الذين يجادون بنى أمية من الزبيريين
 والخوارج والشيعية ، ويسمهم أهل بدع وضلالة . ويتوفى عبد الملك ، فيلزم
 ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه في أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على
 المدينة أن ينزل به وبابن لحاء عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يتصرف جريرا عنه ،
 فقد كان يلثم به في دمشق ، وكان يراه يقرب عدى بن الرقاع ، فهجاه ، وحاول
 أن يستثيره ، ولكن عديا أثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن
 يقع منه بعد ذلك موقعا حسنا بما دبّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إِنَّ الْوَلِيدَ هُوَ الْإِمَامُ الْمِصْطَفَى بِالنَّصْرِ هُزَّ لَوَاؤُهُ وَالْمَغْنَمِ
 ذُو الْعَرْشِ قَدَّرَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً مُلْكُكَ فَاغْلُ عَلَى الْمَنَابِرِ وَأَسْلَمِ

وزراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة ، حتى إذا عزم الوليد
 على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليها عبد العزيز رأيناه يحطّط في حبله
 بمثل قوله :

إِذَا قَبِلَ أَيْ النَّاسِ خَيْرُ خَلِيفَةٍ أَشَارَتْ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَصَابِغُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفى الوليد ويتولى سليمان ، فيفد
 عليه مادحا ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصور من تقواه ومن عدله
 وكيف أطلق من سجنهم الحجاج وكيف ردت مظالمه عن أهل العراق وأحسن

إلى الناس ، وهو في تضاعيف ذلك ينوّه بأن الله اختاره للأمة ناعماً له بأنه المهدي المنتظر ، يقول (١) :

سليمانُ للبّارك قد علمتم هو المهديُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نفسٍ وأديتَ الذي عهَدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةُ بشباتِ عهدٍ فوزنُ العَدَلِ أصبح لا يميلُ
وتدعوك الأرامِلُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ (٢)
ويَدعوك المكلفُ بعدَ جَهدٍ وعانٍ قد أضُرَّ به الكِبُولُ (٣)

وزاره بمدح ابنه أبوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله في دينه ويزهد في الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفّة وحسن دينه ، ومعرفته به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصور فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله .

أنت المبارك والمهديُّ سِيرْتُ تَعَصَى الهوى وتقوم الليل بالسُّورِ
نال الخلافةَ إذ كانت له قَدْرًا كما أتى ربُّه موسى على قَدْرِ
ويشير إلى سياسة عمر في طرح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجَنَّب منها
غير الخراج (٤) ، فيقول في مدحة أخرى :

إن الذي بعث النبيَّ محمّداً جعل الخلافة في الإمام العادلِ
ولقد نفعت بما منعت تحرّجاً مكسَّ العشور على جسور الساحل (٥)

طاقته . وإعاني هنا : السجين . والكبول :
القيود . وهو يشير هنا في وضوح إلى صف
الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناول به الهجاء على
نحو ما صنع الفرزدق في ميمته .

(٤) انظر الطبري ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة في قنطرة
أو جسر .

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما
ولى الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس
بإحسانه . انظر الطبري ٣٠٤/٥ وراجع
ميمية الفرزدق التي نظمها في قتل قتيبة بن مسلم ،
وقد تحدثنا عنها في الكلام على النقائص .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذي كلف فوق

وسرعان ما توفي عمر ، فندبه ندباً حاراً ، بصور فجيعة الأمة فيه حتى
ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنعَى النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَا
حُمِّلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَمَتْ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(١)

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه في العراق يزيد بن المهلب ،
ويَقْضَى على ثورته مسلمة ، ويصبح به جزير مراراً في قصائد مدح بها يزيد
ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التي صور بها سابقه من الخلفاء ، من
مثل قوله :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَاخْتَالَتْ بِمَنْتَجَبٍ مَثَّبَتْ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورِ
وَيُصِفُهُ بِالْعَدْلِ وَأَنَّهُ وَرَثَ الْمَلِكِ عَنْ آبَائِهِ بَعْدَ مَنْهُمْ . ودائماً ينوّه في مدح
لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة في الأمة ولا في قريش ، بل هي وراثية
في بني أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد
الملك ، وفيه يقول في آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :
إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفْزِعُ إِنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الْعَمَاهُ
وَحَبْلُ اللَّهِ يَنْصُمُكُمْ قُوَاهُ فَلَا نَخْشَى لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا^(٢)

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك
وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ،
ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ
عرف عبد الملك داعية للأمويين لم تكن مبالغين . وليس له في سواهم إلا مدائح
قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالد القسري
مستشفعا للفرزدق كي يُطْلَقَهُ ، ومدح بعض أشراف قيس وتيم مثل المهاجر بن

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أبرد

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلّابي والحُسيند بن عبد الرحمن المرّى وهلال بن أَحْزُوز المازني الذي نكَلَّ
بآل المهلب في ثورتهم . ويظلّ أضخم صوت في ديوانه تغنيّ به مادحاً صوته
في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون
الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي
رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في
كثير من الأحيان بعدوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار
الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب
دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ،
وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في
الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته
كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته
ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانصوت نفسه على حزن عميق صنيّ
جوهرها ، وزاد في هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهر النفس .
واقرأ رثاءه لزوجه أم حَزْرَةَ ، إذ يقول :

لولا الحَيَاءُ لعادني أشعارُ ولُزْتُ قَبْرَكَ والحبيبُ يُزَارُ
ولَهَتْ قلبي إذ علّني كَبْرَةٌ وذوو التائم من بَنِيكَ صِغارُ
ولقد أراكِ كُسِيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمالِ سَكِينَةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخَيِّرُوا والصالحون عليكِ والأبرارُ

فإنك تحسن تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها وبينه هو وأولادها ،
وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محبباً فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل
دلائل كثيرة على أن علاقته بزوجه : أم حَزْرَةَ هذه وأمامة التي أهداها إليه
الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات ودّ ومحبة .
ولم تنتشر عليه سوى جارية اشتراها بأخيرة ، وقد عابت عليه عَيْشُهُ وكَبْرَةُ سنه ،
ففارقتها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكان يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطوائها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنبه عزيزٌ على ومن زيارته لمام^(١)
ومن أنسى وأصبح لا أراه ويطرفنى إذا هجع النيام
وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيئنى لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يُخين قتلانا
يضرعن ذا اللب حتى لا حراك به ومن أضعف خلق الله كانا
أتبعنهم مقلّةً إنسانها غرقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنساناً^(٢)
وكان إذا هجا نساء من يهجوهُ أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النّوار زوجة الفرزدق إغاظه له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يشغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النّوار :

وهنّ كماء المزن يُشفى به الصدى وكانت ملاحاً غيرهن المشارب^(٣)
ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صور ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تشنه أمه يشنى الصّداع ريحه وشمه^(٤)
ويذهب الهموم عنى ضمه ينفح ريح المسك مستحمة
يمضى الأمور وهو سامهم بحرّ البحور واسع مجمة^(٥)
يفرج الأمر ولا يعمه فنفسه نفسى وسى سمة^(٦)

(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمها .

(٥) الحجم : الصدر .

(٦) يغمه : يجهمه ويستره .

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين - سواد حدقتها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

وواضح أن جريراً كان لا يبارى في جميع الموضوعات التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يرش سهامه ويسدّها إلى نحو رخصومه ، محمّلاً لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لحرير مادة يبني منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشرته إلى يربوع أو إلى تيم عامة ، حينئذ تنبذ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق في هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نسباً ثراً من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لحرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتي دون الشاعرين جميعاً ، إلا أن يسوقه في التذرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفس هذا الحكم عليهم قديماً بشار ، فقال حين سأل سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريراً على الفرزدق فقال : « كانت لحرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار (زوجته) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ، إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شيء لجرير من المراثي إلا التي رثى بها امرأته : أم حنزة ، فأورد عليه بشار مرثيته في ابنه سودة التي يقول فيها :

فارتقتني حين كفَّ الدهرُ من بصري وحين صرّرت كعظم الرمة البالي

فاقتنع سائله (١) .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعنى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرد الطاغى . وما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة
 فى نقد الشعر وتمييز جيده من رديئه ، حتى قالوا إنه كان يَسْطُو على بعض أبيات
 معاصريه ، حين يهره حسنُها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره
 بجزالة لفظه وشدة أسره . أما جرير فإنه لا يبارى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ،
 فإذا قرأته أحسست الذوق المذهب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن
 الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينه رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرت
 أشعاره صافية ؛ كأنها الجدول الرقاق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرسها وتلذ
 النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضةٌ حادةٌ لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده ، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة . وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبياعوه ، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته ، فخلا الجحّ لابن الزبير الذي عاذَ بمكة ، وقد اتخذ من قُتل الحسين أداةً للتشجيع على يزيد وعُثمّاله ، وثارَت المدينة ، وأوقع بها يزيد وقعة الحرة المشهورة . فانتسعت الجروح في الحجاز ، وبدأ للعيان أن الأمويين ، وإن كانوا قرشيين ، يحكمون بسيف كسلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وكأنه لم يَعدْ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم . وحقاً أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق ، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش ، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكمونها في رقاب الناس ، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضوا يذلّون الخلافة كما وليها يزيد ، لا بسلطان شرعى ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، إذ أن يزيد لا يأتى أولاً بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يفضّلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة . واتجه الجيش الذى نكسب المدينة في وقعة الحرة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، وهب كثير من العرب حتى من الخوارج للذّود عن البلد الحرام . وضرب من حوله حصار ،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه .
وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذي اختير للجماعة ، فأبوه من
كبار الصحابة المقدّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله
عليه وسلم . وكان قوى الشخصية تقياً وشارك في فتوح إفريقية ، وسرعان ما
انضمت تحت لوائه قيس في الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته
خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السّلّمي القيسي . وولى بعد يزيد ابنه معاوية
بعهد منه ، ولكنه توفّي سريعا ، وبدا كأن حكم بني أمية قد انتهى ، حتى ليقول
ابن عَرادة بن خراسان (١) :

أَبْنَى أُمِيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِحُورَيْنِ ثُمَّ مَقِيمٌ (٢)
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وِسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌّ رَاعِفٌ مَرثُومٌ (٣)
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ (٤)

وظل ابن الزبير يقود الولايات التي تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن
الحكم أن ظهر بالشام تَسْنِدُهُ كلب والقبائل البينية ، وأوقع بَقَيْسَ الشَّامِ وقعةً
مَرَّجَ راهط المشهورة ، فخلصت له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ،
ولتّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفينانيين إلى
بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفّي وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان
سياسيا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال في جمع الناس من حوله ، وكان في
ابن الزبير بنخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويَضْرِبُ
الرواة لذلك مثلاً هو أن فَضَالَةَ بن شريك الأسدي ، وقيل بل ابنه ، وفقد عليه (٥)

(١) طبري ٤/٤٢١ .

(٤) مرّة : مغنية .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفي بها

(٥) انظر في هذه الوفاة ترجمة فضالة بن

يزيد .

شريك في الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١٢

(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسرحق

وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة

تقطرت منه الخمر .

٣/٢٢٤ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له : إن ناقتي قد نَقِبَتْ^(١) وَدَبَّرَتْ^(٢) ، فقال : ارقعها بجلد^(٣) ،
واخْصِفْها بهُلْبٍ^(٤) ، وَسِرَّ السَّيْرَ دِينَ^(٥) بها تصحّ ، فقال فضالة : إني أتيتك
مُسْتَحِمّاً ولم آتْكَ مستوصفاً ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن
الزبير : إنَّ^(٦) وراكبها . وانصرف فضالة من عنده ، وهو يقول :

شَكَوتُ إليه أَنْ نَقِبَتْ قَلُوصِي فَرَدَّ جوابَ مشدودِ الصَّفادِ^(٧)
يَضْنُ بناقةٍ ويروم مُلْكاً محالاً ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشِيدُ بِنِي أُمَيَّةٍ وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل
في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن
الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأنما لم تكن تَعْنِيهِ هذه النبال .
وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما
معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه ،
ومع ذلك فقد وقف في صَفِّهِ كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو
لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة ولدن أخيه مصعب واليه على العراق .
ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبيات والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل
القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين
جميعاً سَلَكُوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين
ومتهاجين هجاء مريباً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبلية فحسب ،
بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوّى قيس مع ابن الزبير وهوى
القبائل اليمنية وتغلب مع بني أُمَيَّةٍ ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ،
ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَاطِنُ» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس
ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

(١) نَقِبَتْ : من نَقَبَ البعير إذا حنّ ورتق

أن يخرز الحلف به ليقيه .

أخفافه .

(٥) البردين : الغداة والعشي .

(٦) إن هنا بمعنى نعم .

(٢) دبّرت : أصابها جرح في ظهرها .

(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به

(٣) ارقعها بجلد : يريد أن يجعل لها خفا

الأسير من قيد ونحوه .

من جلد .

(٤) الهلب : الشعر . الخصف : الخرز . يريد

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدتها تقطر عصبية^(١) عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو في تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدَل الذي يناصر بني أمية ، يقول^(٢) :

أَفَى اللَّهِ أَمَا بَحْدَلُ وَأَبْنُ بَحْدَلٍ فَيَحْيَى وَأَمَا ابْنُ الزَّبِيرِ فَيُقْتَلُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَقْتُلُونَهُ وَلَا يَكُنْ يَوْمٌ أَغْرُ مُحَجَّلُ^(٣)
وَلَا يَكُنْ لِلْمُشْرِفِيَّةِ فَوْقَكُمْ شِعَاعُ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَّلُ^(٤)
وعلى هذا النحو كانت تختلط في أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترئون ذلك طويلاً ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحامها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذي انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا في النقائض . وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولي العراف لأخيه أنهلت غيْوثه على الشعراء ، فدحه منهم كثيراً مثل أعشى همدان ودكيسن الفُقَيْسِي ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمننا ، إنما يهمننا الشعر السياسي الذي كان يدافع عن نظرية ابن الزبير في الخلافة ، هاجياً ابني أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثمَّ ينبغي أن نقف عنده قليلاً .

ابن^(١) قيس الرقيات

اختلف الرواة في اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن في أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا في اسمه اختلفوا في

١/٢٢٣ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب
٣/٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص
٢١١ وحديث الأرباء لطف حسين (طبعة الحلبي)
١/٣١٦ وكتابتنا الشعر الغنائى في مكة (طبع
دار الفكر العربي) ص ٢٠٤ وما بعدها . وله
ديوان نشره رودكناكس في فينا سنة ١٩٠٢
وحققه تحقيقاً علمياً وأعاد نشره في بيروت محمد
يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينون
قيس وإما مضافة . راجع في ذلك الخزانة .

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف
للبلادى في مواضع متفرقة والأغاني (ساسي)
١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبرى ٤/٤٩٩ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبق
ولا يذر .

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر في ترجمة ابن قيس الأغاني (طبع
دار الكتب) ٥/٧٣ وما بعدها والشعر والشعراء

سبب نعته بالرقيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤى ، ولّد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شريح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُمّ هَيْب بن ضباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لؤى . وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين ، حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلاً ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خائرو بُدَيْح وَفَيْد ، وهم من مغنى المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها ^(١) ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا ولىّ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ومن ثمّ تعرّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته ^(٢) ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويرثم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرّة وأن طائفة من أهل بيته قتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله ، فهزته تلك الأنباء هزاً عنيفاً ، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حاراً ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعني مروية ^(٣)

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ . (٢) المروة : حجر أبيض تقطع منه النار . (٣) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٧٢/٥ وما بعدها . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْدِ وَإِخْوَتَهُمْ حَلَّ الهلاك على أَقَارِبِهِ (١)
 وَنُعَى أَسَامَةُ لى وَإِخْوَتُهُ فَظَلَلْتُ مُسْتَكًّا مَسَامِعِهِ (٢)
 تَبْكِي لَهُمْ أَسْمَاءُ مُغَوْلَةٌ وَتَقُولُ لِيلى : وَارَزَيْتِيَّةَ
 وَاللَّهُ أَبْرَحُ فى مَقْدَمَةٍ أَهْدَى الْجِيُوشَ ، عَلَى شِكَّتِيَّةِ (٣)
 حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسَوْقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيَّةِ

ولم يلبث يزيد أن توفي ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس
 وتغلب على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن
 الحُبَاب بطل قيس في بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى
 فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان
 طبيعياً أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرّة ، يريد
 أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثار لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك
 يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغي أن تكون في قريش روحاً وواقعاً
 عملياً ، بحيث تكون حاضرتها في الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على
 كسلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التي أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرّة المشنومة .
 وهو يصدر في ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التي أصابت فزاده من أهل
 الشام من جهة أخرى ، ومن ثمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ،
 وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة في أن ينقضَّ حكمهم
 في الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهزمية التي يفتتحها
 بقوله :

أَفْطَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءً فَكُدَيْ فَاالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ (٤)
 ومضى يطيل في ذكر الأماكن التي هجرها الأمويون إلى دمشق وربوع

(١) بنو عبد : عشيرته نفسها إلى جده السابع .
 (٢) استكت المسامع : صنت وضاعت ، هو مثل يضرب للثبّ الشديد يعرف سامعه .
 (٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة :
 السلاح التام .
 (٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن . ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت في الجاهلية .

الشام منوهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش ، فقد تفرقت بُلْدَانًا وَشِيعَةً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرح بذلك فيقول :

حَبْدَا الْعِيشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُدِّكَ قَرِيشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
وَيَمْضَى فَيَرِدُ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يَرُونَ أَنْ تُنْزَعَ الْخِلَافَةُ مِنْ
قَرِيشٍ وَتُرَدَّ إِلَى الْعَرَبِ ، بَلْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، يقول :

أَيُّهَا الْمُسْتَهْجَى فَنَاءَ قَرِيشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ^(١)
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحْيٌ بِقَاءِ
فَقَرِيشٍ هِيَ عَمُودُ الْخِلَافَةِ ، وَلَوْ أَنَّهَا زَالَتْ عَنْهَا لَسَقَطَ رُكْنُهَا سَقُوطًا لَا
يَرْتَفِعُ بَعْدَهُ . وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَتَوَجَّهَ بِخُطَابِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ هَاجِيًا :

قَدْ عَمِرْنَا فَمَتَّ بِدَائِكَ غِيظًا لَا تَمِيتَنَّ غَيْرَكَ الْأَذْوَاءُ^(٢)

وَيَأْخُذُ فِي الْفَخْرِ بِقَرِيشٍ وَفَضْلِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ، فَيَذْكُرُ الرُّسُولَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ الرَّاشِدِينَ وَحِمَازَةَ عَمِ الرُّسُولِ وَجَعْفَرَ الطَّيَّارَ وَالزُّبَيْرَ بْنَ
الْعَوَّامِ حَوَارِيَّ النَّبِيِّ وَأَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَمُصْعِبًا : وَيُشِيرُ إِلَى انْتِصَارِ مُصْعَبٍ عَلَى
الْمُخْتَارِ الثَّقَفِيِّ ، وَيَعْرِضُ لِمَا كَانَ يَزْعُمُ مِنْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَيَمْدَحُ مُصْعَبًا ، فيقول :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ هِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مَلِكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

وَيَعُودُ إِلَى الْإِفْتِخَارِ بِقَرِيشٍ وَرِجَالِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَيَفْتَخِرُ بِبَيْتِهَا
الْحَرَامِ الَّذِي يَحْجُّ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَأْسَى لِحَرْقِ جِيُوشِ الشَّامِ
هَذَا الْبَيْتِ حِينَ حَصَارِهَا لِابْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ الْحَرَّةِ ، وَيُشِيدُ بِنَاءَ ابْنِ
الزُّبَيْرِ لَهُ بَعْدَ هَذَا الْحَصَارِ ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ يَدْعُو دَعْوَةَ عَنِيفَةٍ لِحَرْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ

خِلَافَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ لَهُ أَعْوَامًا .

(١) عمرها : يريد بقاءها .

(٢) عمرنا : عشنا زمنًا طويلًا ، يشير إلى

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين في كربلاء يقول :
 كيف نؤمى على الفِراش ولَمَّا تَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةُ شَعْوَاءُ
 تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْسِدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاءُ^(١)
 أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمِيَّة مُزَوَّرٌ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسَى الْأَعْدَاءِ
 إِنَّ قَتْلَى بِالطُّفِّ قَدْ أَوْجَعْتَنِي كَانَ مِنْكُمْ لَشَنْ قُتِلْتُمْ شَفَاءُ^(٢)

وهذه هي الأنعام السياسية التي كان يوقعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشي بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْجِ رَاهِط التي هُزِمَ فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المُبيرة، ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لَجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقلدع ، فحاكاه في هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفي الوقت نفسه كان يشبب بزوجه مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيهاً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء ، يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزيرى السياسي ومن قوله في عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهي غاضبة عليه ليترضاها^(٣) :

جَنِيَّةٌ بَرَزْتُ لَتَقْتَلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمِسْكِ
 عَجَبًا لِمَالِكٍ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمِنْبَرُ الْمُلْكِ^(٤)
 تَرْمِي لَتَقْتَلَنَا بِأَسْهَمِهَا وَنَزْنُهَا بِالْحَلَمِ وَالنُّسْكِ^(٥)

القطعة بأبيات في أم البنين لاشك في أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .

(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة كأنه يتمتعها لمصعب .

(٥) نزنها : ننسبها إلى .

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيهم من فزع شديد .

(٢) الطف : من ضواحي الكوفة حيث كربلاء التي قتل فيها الحسين .

(٣) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

١٧٦/١١ وقارن بالديوان ص ١٤١ وقد وصل

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرن هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذى كان يسوقه فى مقدمة مدائحهم لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما فى صورة تؤذيها كقولها فى عاتكة :

بَدَتْ لى فى أَثَرِهَا فَقَتَلَنى كذلك يقتلن الرجال كذلك
وقالت لو أَنَا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكا^(١)

ويتخيل أم البنين جاءت فى الحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهى تمنع معه فى اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أَتَنى فى المنام فَقَدْ تَ هذا حين أُعْقِبُهَا^(٢)
فلما أَنْ فَرِحْتُ بِهَا ومال على أَعَذِبُهَا^(٣)
شربتُ بِرِيقِهَا حتى نَهَلْتُ وَبِتُ أَشْرِبُهَا^(٤)
وَبِتُ ضَجِيعُهَا جَذَلَا نَ تعجبنى وأُعجِبُهَا^(٥)
وَأَيَقُظْنَا مَنَادٍ فى صلاة الصبح يَرْقُبُهَا^(٦)

وظل على هذا النحو يصول ويجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذى يمثل الحكم القرشى الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه فى ديار الجاثليق ، وقد انفض عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقتل مصعب ويفر ابن قيس إلى الكوفة متفجعاً على صاحبه آسياً لا تنفاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظناً

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء (٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
الحب الذى سرى فى نفس عاتكة له .
(٥) جذلان : فرح .
(٢) أعقبها : صارت عقبها لى صارت إلى .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .
(٣) أعذبها : فيها .

أنها زوجة^(١) على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثم رأينا يخرج من مخبئه ، ميمماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر في المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبّاه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يرد لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفي رواية أن ابن جعفر هو الذى شفع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مثل بين يديه ينشده بائيته التى يقول فيها :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ إِلا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبَوَالْ حَاضِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحَجْبُ^(٢)
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
ويظهر أن عبد الملك لم يَطِيبَ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويُعْطِيهِ الْحَزِيلَ . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش في ظل ابن جعفر يُغْنِدُقُ عليه من بئرِه ونواله ، ويجذبُه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً ، حتى إذا فكر عبد الملك في صَرْفِ ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأينا يثور معه على أخيه ، إذ يقول في بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيهِ :

لَتَهْنُو مِصْرُ وَالْعِرَاقُ وَمَا بِالشَّامِ مِنْ بَزَّةٍ وَمَنْ ذَهَبَ^(٣)
يَخْلُفُكَ الْبَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا يَخْلُفُ عَوْدُ النَّضَارِ فِي شُعْبِهِ^(٤)
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرَّسُولِ وَمَا أُعْطِيَ مِنْ عُجْمِهِ وَمَنْ عَرَبِهِ

(٣) البز : الثياب والمتاع .
(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

(١) انظروفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة أوربا) ص ٤١٢ .
(٢) الفنيق أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقر له
قرار وضاعت الدنيا في عينيه فنظم قصيدة بديعة يذم فيها من يغتابونه عند
عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّرَ الطَّبَّيُّ والغُرَابُ بسُعدى مرحباً بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من دَحْس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد
على عبد الملك من حين إلى حين في ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه
يستهل بعضها بغزله بأُم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن
يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف
جمالها ووقارها متلطفاً . وليس في ديوانه مدائح في الوليد مما يدل على أنه إن
كان لحق عصره فإنه لم يعيش فيه طويلاً . وفي ديوانه قصائد مختلفة مدح بها
عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بالذى أنتَ أهله عليك كما يُثْنِي على الروض جارُها
إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنتَ مَنَارُها

ومن مدحهم ونوه بهم طويلاً طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو
يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيه يقول حين توفى بيته المشهور من مريثة
فيه بديعة :

نُصِرَ اللهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله
ابن خالد حين هُزِمَ في حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجائيين في
عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو في الطليعة من شعراء الغزل المكيين ،
ولو أنه لم يشغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وتخلص للغزل على شاكلة
عمر بن أبى ربيعة لما قصر عنه في هذا الفن ، وقد رأيناه في مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع في موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى في مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطَبِّع شعره بطوابع الغناء التي عاصرتة ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقِيَّ بَعِيشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنِينَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شَتَّ إِنَّا نُحِبُّ - وَإِنْ مَطَلَتْ - الْوَاعِدِينَا
فَلَمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِنَّمَا نَعِيشُ بِمَا نُوْمِلُ مِنْكَ حِينَا
وقوله :

رُقِيَّةُ تَيَمَّتْ قَلْبِي فَوَاكَبْدِي مِنَ الْحُبِّ
وَقَالُوا إِذَاؤُهُ طَبُّ أَلَا بَلْ حُبُّهَا طِبِي

وقوله :

حُبٌّ ذَاكَ الدَّلُّ وَالْغُنْجُ وَالَّتِي فِي عَيْنِهَا دَعَجٌ (١)
وَالَّتِي إِنْ حَدَّثْتُ كَذَبْتُ وَالَّتِي فِي وَعْدِهَا خَلَجٌ (٢)
خَبَّرُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجٌ

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّيَ باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلاً يملؤه بالصباغة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

(١) الدل : الدلال . الفنج : حسن الدل
(٢) الخلاج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .
والمزح . الدعج : شدة سواد العين .

شعراء الخوارج

رأينا في غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وصُفْرية ونسجديات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد في سبيل عقيدتها في ولاية الأمة وأنه ينبغي أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشياً . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الديني الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج في هذا العصر للحرب ، مستحلّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهي معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوار ترافقهم السيوف في غدوهم ورواحهم وفي استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا ، ومن ثمَّ كان شعرهم في جملة حماسياً ، وهي حماسة لا تحركها العصبية القديمة ، عصبية القبيلة التي كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التي تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الخفيف وأن عليهم أن يجاهدوا في سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثوري يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالبين في فضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطنين أنفسهم على طلب الشهادة في ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربَّ لترضى) ^(١) وكأنا وهبوا أنفسهم للموت . ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوتون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأُشْد ^(٢) :

ما رغبةُ النفس في الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان بَراها بالأَمْس خالقها ^(٣)
يوشك من فَرٍّ من منيته في بعض غرَّاته يوافقها
من لم يمت عِبْطَةً يمت هـرما والموت كَأْس والمرء ذائقها ^(٤)

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجي ، الموت قَعَصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حَبْناء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسِرْبالي دِلاصُ حصينة ومَغْفَرُها والسيف فوق الحيازِم ^(٥)
أريد ثواب الله يوما بطَعْنَةٍ غموس كَشِدْقِ العنبريِّ بن سالم ^(٦)
فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة ^(٧) :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معاراتها تدعو إلى حِمَامِيا ^(٨)
أقارعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّب الموتَ القِرَاعُ لقد أنى لموتى أن يدنو لطول قراعي ^(٩)

(٧) انظر في ترجمة قطرى وأشعاره وفيات

الأعيان لابن خلكان والممل والنحل ص ٩٠

وأمالى المرتضى ١/٦٣٧ ونهاس الكامل للمبرد

والطبري والبيان والتبيين .

(٨) تعاريني : تطلبني عارية . الحمام :

الموت .

(٩) القراع : مضاربة السيوف في الحرب .

أنى : آن .

(١) المبرد ص ٥٦٤ .

(٢) المبرد ص ٤٣ .

(٣) بَراها : خلقها .

(٤) عِبْطَة : شابا .

(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق

يتقنع به المتسلح .

(٦) غموس : واسعة . العنبري بن سالم :

رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فـه .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويتزح عنها إلى الحياة الباقية التي لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملّ دنياه . وتصوّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهي أم حكيم ، إذ تقول ^(١) :

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ شَمْتُ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلَيْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

وكانما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس في خروجه ^(٢) :

أَبْعَدُ ابْنِ وَهَبٍ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتَّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أَحَبُّ بَقَاءٍ أَوْ أَرْجَى سَلَامَةٍ وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حِصْنٍ وَمَالِكَا
فِيَارِبُ سَلِّمْ نَبِيَّ وَبَصِيرِي وَهَبْ لِي التَّقَى حَتَّى أَلَاقِي أَوْلَكَ
فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبي والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طلبته ، فيقتل في سبيل عقيدته ، وكان الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التي نجدوها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق في رأيهم السعادة المنشودة ، وهي سعادة يطلوها كل خارجي لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الراسبي حين قُتل ابنها في يوم دولا ب ^(٣) :

اللَّهُ أَيَّدَ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحْرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدِي مِلْحَادَةٍ غُدْرٍ ^(٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء، إذ يصوّرون استشهاد قتلاهم زلّني إلى الله راسمين فيهم مثلاً أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغاني (دار الكتب) ١٥٠/٦ وتريد

(٣) أغاني ١٤٥/٦

أم حكيم يدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .

(٤) ملحادة : من الإلحاد والناء للمبالغة .

(٢) المبرد ص ٥٨٦ .

غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين في رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة ومن قُتل من أصحابهما (١) :

يَا رَبَّ أَسْلِكْنِي سَبِيلَهُمْ ذَا الْعَرْشِ وَاشْدُدْ بِالتَّقَى أَزْرَى
فِي فَتْيَةٍ صَبَرُوا نَفْسَهُمْ لِلْمَشْرِفَةِ وَالْقَنَازِ السُّمْرِ (٢)
مَتَاهِبِينَ لِكُلِّ صَالِحَةٍ نَاهِينَ مِنْ لَاقُوا عَنِ التُّكْرِ

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ قَدْ فُجِعَتْ بِهِ قَوَامَ لَيْلَتِهِ إِلَى الْفَجْرِ
مَتَاوَهُ يَتْلُو قَوَارِعَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ مَفْزَعُ الصَّدْرِ

ويعمى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرِعَت الرماح وسُلَّت السيوف ورَعِدَت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب في أن هذه صورة جديدة في الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبيكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروءة ، وإنما يبيكون فيهم المثل الأعلى للخارجي من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذي يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذي يفتح لهم أبواب الفرديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم في حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسي ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قَدْماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صلودها وصلورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثائهم وحماسهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعْدَةُ منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب . ولكن نحس دائماً كأن هذا القعود هدنة مسالحة إلى حين ، وبذلك نفس كثرة ثورات الصغرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يفعلون

(١) أغاني (سأى) ٢٠/١١١ وما بعدها . (٢) المشرفة : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفرأ منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يرد في أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يتقلب لهم الدهر الميجن من بعدهم ، وكان لا يزال ثوارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين في رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد (١) من أن أبا خالد القناني استحب القعود ، فلامه قطري بن الفُجاءة بمثل قوله :
 أبا خالد يا أنفِرْ فلست بخالد وما جعل الرحمنُ عُذراً لقاعد (٢)
 أنزعم أن الخارجي على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد
 فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلى حُبنا بنائي لمن من الضعاف
 أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقاً بعد صافي (٣)
 ولا يتحول مثل هذا الاختلاف في الرأي بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقاً بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً في الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا في مقالاتهم دون رفق ودون تفكير عميق في المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنابد فرقاً وتتقطع شيعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة في أشعارهم ، هي أنهم يُبدئون ويعيدون في معانيهم التي صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا في أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب في أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هي صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجي أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا أنفِرْ يا للتنبيه أو في تقدير حذف (٣) الرنق : الكدر .

مناذى مثل يا أخى .

في الأغاني فسرى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة في نازلمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطري بن الفجاءة ، ونسبها المدائني إلى صالح بن عبد الله العَبْشِمِيّ . وقال خالد بن خِدَاش : بل قائلها عمر والقنّاء ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم ^(١) . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح .

عمران ^(٢) بن حِطَّان

بَصْرِيٌّ سَدُّوسِيٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل في مقالة الخوارج . وولقاه في عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه ^(٣) . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُروى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت في الجنة ، قال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أُعْطيت مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر في الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبي طالب ، وفي طعنته له يقول ^(٤) :

يا ضربةً من تقى ما أراد بها إلا ليلبلغ من ذى العرش رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا
ونراه يتأثر متأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر في الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

(١) أغاني ١٤٧/٦ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمة عمران الأغاني (سأسي)

١٤٦/١٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما

بعدها والإصابة ١٨١/٥ وخزانة الأدب ٤٣٦/٢

وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمال

المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٤) انظر في نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١

والخزانة ٤٣٦/٢ .

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضاً وَحُبّاً للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت دُرَى العوالى^(١)
ولو أنى علمت بأنَّ حَتْفِي كحَتْفِ أبي بلالٍ لم أبال
فمن يكُ هَمُّه الدنيا فإني لها والله ربُّ البيت قالى^(٢)
فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج
الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبي بلال ، وقد ظلت ذكره عالقاً بنفسه طويلاً ،
حتى ليقول :

أنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناس
وكان الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ،
ومن ثمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرى ودعا إلى القعود ، حتى عدَّ رئيس قعدتهم . ولم
تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبي خالد^(٣) ، إنما قعد به — فى أغلب الظن —
حبه لزوجته جمره ، فقد كان يُشْغَف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج
ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن
الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن
كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثَقِيل كما مضى
يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى
الحروب ويُغْثِرُون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ،
ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ،
فهلج الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أَسَدٌ عَلَى وَفَى الحروب نعمة رِبْدَاءُ تنفر من صَفِيرِ الصافر^(٤)
هلا برزت إلى غَزَالَةٍ فى الضُّحَى بل كان قلبك فى جناحَيْ طائر^(٥)

جاء عند المبرد .

(١) العوالى : الرماح .

(٢) قال : كاره .

(٤) ربداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .

(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع

الحجاج ورعبه .

(٣) نسبت أبيات أبي خالد إلى عمران فى

ترجمته بالأغاني ، والأرجح أنها لأبي خالد كما

وغضب الحجاج واشتد في طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرَّ منه على وجهه يتنقل في القبائل منتسباً في كل حي نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل في سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامي بالشام . فانتسب له أزدياً فأنزله منزلاً آمناً نحو عام وبالع في إكرامه ، وكان روح سميراً لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه في أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإني تابعتك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفاً لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلاً ما تروِّعني فيه روائع من إنسٍ ومن جانٍ^(١)
حتى أردتَ بِيَ العظمى فأدركني ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
ومضى حتى نزل يزفر بن الحارث في قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعياً ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزدياً مرة وأوزاعياً أخرى ؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبرناك ، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التي أصبحتَ يَغِيى بها زُفَرُ أعيتُ عيائً على رُوح بن زنباع
وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومًا من الأزد في روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفي سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة تروى كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدري الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ في نفسه صراع عنيف بين الرغبة في الحياة الكريمة التي يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفرع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة في الموت ، وعبر عن ذلك في صور مختلفة ، كأن يصور تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أَرَانَا لَا نَمَلُ الْعَيْشَ فِيهَا وَأُولِعْنَا بِحَرَصٍ وَانْتِظَارِ
وَلَا تَبْقَى ، وَلَا نَبْقَى عَلَيْهَا وَلَا فِي الْأَمْرِ نَأْخُذُ بِالْخِيَارِ
كَرْكَبٍ نَازِلِينَ عَلَى طَرِيقِ حَثِيثٍ رَاحٍ مِنْهُمْ وَسَارِ^(١)

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتى جياعهم وعذراهم فأف لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوى . ولا يُخفى أنه يسير على كره منه في نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شيء من الحب والحرص ، وحري به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لَا يَسْأَمُونَهَا عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوعُ
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ فَإِنِهَا سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ^(٢)
وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتي على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتى الموت نفسه ، يقول :

لَا يُعْجِزُ الْمَوْتَ شَيْءٌ دُونَ خَالِقِهِ وَالْمَوْتُ فَإِنْ إِذَا مَا نَالَهُ الْأَجَلُ
وَكُلُّ كَرْبٍ أَمَامَ الْمَوْتِ مُتَضِعٌ لِلْمَوْتِ ، وَالْمَوْتُ فِيمَا بَعْدَهُ جَلَلٌ^(٣)

فالموت سيموت في النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التي تلقاها دائماً في شعر الحوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائلاً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدري شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائح ، فتعرض له يقول :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنْ لَهِ مَا بِيَأْذِي الْعِبَادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلاً . (٣) جلال : عظيم .

(٢) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجي الذي تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطَّرِمَاحُ^(١)

شاعر طائى نشأ في الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل في بني تميم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سميت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة في الفرقة التي دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل في فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفَرِيَّةِ ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يحرمونه ولا يجيزونه . ولم يُمنح قعوده في مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو ما صنع عمران بن حطان . فهو صُفَرِيٌّ مسلم . ويظهر أنه كان يمتدح في السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوَادُّهم ويصادقهم ، حتى لراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميث ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْثِ والطَّرِمَاحِ ، كان الكميث عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح خارجياً من الصُّفَرِيَّةِ ، وكان الكميث يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يُجْرَ بينهما صرْمٌ ولا جَمْعٌ ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الحصال إليه » . وأكبر الظن أن الذي وثق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هي تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويروى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرّى بفارس حيث عُني بتأديب الناشئة

٣٢٣/٢ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٢/٧
والخزاعة ٤١٨/٣ وله ديوان نشره كرتكو في
لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

(١) انظر في ترجمة الطرماح أغاني (دار
الكتب) ٣٥/١٢ والشعر والشعراء ٥٦٦/٢
والعيني ٢٧٦/٢ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح
للمرزياني ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ٤٦/١ ،

فيها ، وَيَرَوِي الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرّى فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّ عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففي أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحّاه مخلد ، ودعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفي أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسري الذي ولي العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحاً في طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزدي قبيلة المهلب بن أبي صفرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل في معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزدي والقبائل القحطانية عامة . ومراً بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت في البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تعمقه هذه العداوة وما يُطوَى فيها من عصبية وهو خارجي ، والخوارج لا يعتدون بالعصبية القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجي يأتي على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله في تميم :

لو حان وِرْدَ تميم ثم قيل لها حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وخياً أن يعتبها إن لم تُعَدْ لقتال الأَزْدِ لم نُعَدِ
لا تأمنن تميمياً على جَسَدِ قد مات ما لم تُزَايِلْ أعْظَمُ الجَسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه في الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتداً بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادني حُباً لنفسي أننى بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلي^(١)
 وأنى شقٌّ باللثام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الثمائل
 والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل
 ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من
 حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله
 من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان
 يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليرتجى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادٌ جَوَادِي ومقادفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
 لاأكسبَ مالا أو أوولَ إلى غنى من الله يكفينى عِدَاتِ الخلائفِ^(٢)
 فياربَّ إن حانت وفاتى فلا تكن على شَرَجٍ يُعَلَى بخُضِرِ المطارفِ^(٣)
 ولكن أجنُ يومى سعيداً بعُضْبَةٍ يصابون فى فُجٍّ من الأرض خائفِ
 فوارسٍ من شيان أَلَفَ بينهم تُقَى الله نزالون عند التزاحفِ
 إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى
 تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى
 البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح
 غنياً ثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّرَاةِ إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا^(٤)
 يرجعون الحنين آونة وإن علا ساعة بهم شهقوا
 خوفاً تبيتُ القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق

(٣) الشرج : النمش .

(٤) الطلى : الإعتاق ، مفرد ما طلية .

(١) غير طائلي : خيس .

(٢) عِدَات : جمع عدة ويريد بها الصلة .

الخلائف : جمع خليفة .

كيف أرحى الحياة بعدهمُ وقد مضى مؤنسي فأنطلقوا
 قومٌ شحاحٌ على اعتقادهمُ بالقَوَزِ مما يُخاف قد وثقوا
 وعلى قَبَسٍ من زهد الخوارج في الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء في القرآن
 الكريم من ذم الشحيح الذي يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين
 والمساكين ، وما جاء فيه أيضاً من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت
 يده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل
 صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعُمَةِ رِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهُ^(١)
 عجباً ما عجبتُ للجامع الما ل يباهى به ويرتفده^(٢)
 ويُضيع الذي يصيره اللا ه إليه فليس يعتقده
 يوم لا ينفع المخولُ ذا الثر وة خِلَانُهُ ولا وَلَدُهُ^(٣)
 يوم يُؤْتَى به وخصماه وسط ال جنّ والإنس رِجلُهُ ويده
 خاشع الصّوت ليس ينفعه ذ مّ أمانيه ولا لَدَدُهُ
 وكل من يقرأ شعر الطراح يلاحظ أنه لا يجري على وتيرة لغوية واحدة ،
 فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن
 حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيتها ،
 وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد
 به أن يدور في أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور في أفواه المتأدبين
 حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمي محض . ويصور
 اللغويون مدى إغرابه في شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور
 سُئل عن ثمانى عشرة كلمة أبدت في أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا
 في غير هذا الموضع أن حِسَّة اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغولاً بإدخال
 الألفاظ النبطية في كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

(١) مود : ميت .
 (٣) الخول : الثرى .

(٢) يرتفده : يكتسبه .

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة الخلافة . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغي أن تُردَّ عليهم . وتكوّنت في أثناء ذلك فرقة الكيسانية التي دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر ، وأنه ورث عن عليٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس ينتقل في أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفى قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملاً الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموي فتظهر فرقة الزيدية ، ولم تكن غالبية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك في حديثنا عن السياسة . وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج في هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيرٌ شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة في أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف في العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ في أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يَرعون فيهم إلاَّ ولا ذِمَّة ، وقد تحولوا ييكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرَفْقاً ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمُّ ما يميّز الشعر الشيعي في هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولاً ثم على زيد بن علي وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قَتَمَةَ يرثي الحسين (١) :

(ساسي) ١٥٨/١٤ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

(١) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني (طبعة الحلبي) ص ١٢١ وانظر أيضاً في مرآة الحسين الطبري ٢٠٩/٤ وما بعدها وأغانى

مررتُ على أبيات آلِ مُحَمَّدٍ فلم أرها كمهدما يوم حُدَّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّةً وقد عظمتُ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضةً لفقدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرتِ
وقد أعلوتُ تبكى السماء لفقدِهِ وأنجُمُها ناحتُ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه
وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض
يتحول إلى رغبة شديدة في سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن
نصرتِهِ . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح
ومن خير من يصورها عوف^(١) بن عبد الله بن الأحمر الأزدي ، وله في
الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

لِيَبْكُ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقُ وعند غسوق الليل من كان باكيا
وباليتنى إذ كان كنتُ شهيدُهُ فصاربتُ عنه الشانئين الأعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهداً وأعملتُ سبقي فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون في الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة
التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الحرّ ، ويروى أنه خرج في جماعة
من أصحابه حتى أتى كربلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ،
ثم مضى وهو ينشد^(٢) :

ويا ندمي أن لا أكون نصرتهُ ألا كلُّ نفسٍ لا تسدُّ نادمه
ولائي لأني لم أكن من حُماتهِ لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه
ويُقتلُ زيد بن علي بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعولين منذرين لبني
أمية ومهددين من مثل قول المفضل المطلبي^(٣) :

(١) انظر ترجمة عوف في معجم الشعراء (٢) طبري ٤/٣٦٠ .

(٣) مقاتل الطالبين ص ١٤٩ .

أَلَا يَا عَيْنُ لَا تَرْقَى وَجُودِي بدمعك ليس ذا حينَ الجمود^(١)
وكيف تَضُنُّ بِالْعَبْرَاتِ عَيْنِي وتطمع بعد زَيْدٍ فِي الْهَجُودِ^(٢)
وكيف لَهَا الرُّقَادُ وَلَمْ تَرَأِي جِيَادَ الْخَيْلِ تَعْدُو بِالْأَسُودِ
بَأَيْدِيهِمْ صَفَائِحُ مَرْهَفَاتُ صَوَارِمُ أُخْلِصَتْ مِنْ عَهْدِ هُودِ
بِهَاسِنِ النَّفُوسِ إِذَا التَّقِينَا وَنَقْتُلُ كُلَّ جَبَارٍ عِنْدِي
وَدُحْنَكُمْ فِي بَنِي الْحَكَمِ الْعَوَالِي وَنَجْعَلُهُمْ بِهَا مِثْلَ الْحَصِيدِ^(٣)

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَطْوِي في نفسه حزناً عميقاً على أئمة
المستشهدين ورغبة عنيفة في سفك دماء من قتلهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف
بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبونهم وولاتهم أحياءهم
ويعدُّون أنفاسهم عدداً . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هي نظرية
التقية ، فمن حق الشيعي أن يخفي عقيدته ويكتتمها ، حتى لا يعرض نفسه للخطر
بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سئرى عند كثيرٍ والكميت
عما قليل ، إذ ملحا بنى أمية ، وهما يكتئنان لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المترعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلهم كان
ينطوي فيهما حققد شديد على الأمويين ، وهو حققد ينتهي أحياناً إلى دعوة
الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين
ولى خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مرو
يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها^(٤) :

أَلَا أَبْلَغُ جَمَاعَةً أَهْلَ مَرَو عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَأْيٍ وَبُعْدِ
رِسَالَةٍ نَاصِحٍ يُهْدِي سَلَاماً وَيَأْمُرُ فِي الَّذِي رَكَبُوا بِجِدِّ
فَلَا تَهْنُوا وَلَا تَرْضُوا بِخَسْفِ وَلَا يَغْرُرْكُمْ أَسَدٌ بَعْدَ
وَالَا فَارْفَعُوا الرِّيَاطِ سُوداً عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالتَّعَدَّى

(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم .
العوالي : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٥ / ١٣٧ .

(١) ترقى : من رقاً الدمع إذا جف وسكن .
جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغیظ على بنی أمیة فقد كانت تمتلئ بالحُبِّ لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرهما، على شاکلة قول أبی الأسود الدؤلی وقد عابه قوم بتشيعة: ^(١)

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا وعباسًا وحمزة والوصيا ^(٢)
أحبهمُ لحب الله حتى أجىء إذا بُعثتُ على هویاً ^(٣)
هوى أعطيته منذ استدارت رَحَى الإسلام لم يُعدَلْ سويًا ^(٤)
بنو عم النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلَّهم إلينا
فإن يك حبهم رُشدًا أصبهُ ولستُ بمخطئٍ إن كان غيًا
ويقول عبد الله بن كثير السهمي في نفس المعنى ^(٥):

إن امرأاً أمتت معايبه حب النبي لغير ذی ذنب
وبنى أبي حسن ووالدهم من طاب في الأرحام والصُّلب
أبعدُ ذنباً أن أحبهم بل حبهم كفارة الذنب

فهم يحبون آل البيت بلحدهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفراً منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبی الأسود الدؤل في حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له ^(٦) :

فحسبي من الدنيا كفافٌ يُقيمني وأثوابُ كنانٍ أزورُ بها قبري ^(٧)
وحبي ذوی قُرْبى النبي محمدٍ فما سألنا إلا المودة من أجرٍ ^(٨)

(١) المبرد ص ٥٥٤ .

(٢) يريد بالصبي على بن أبي طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يمتقدرون أن النبي أوصى له بالخلافة .

(٣) على هوياء : على هواي .

(٤) لم يعدل سويًا : لا مثيل له .

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٠ .

(٦) البيان والتبيين ٣/ ٣٦٥ .

(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .

(٨) سألنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو

يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه

أجرًا إلا المودة في القربى) .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم في عصر بني أمية منازع قوية من حب آل البيت حباً قد ينتهى إلى الزهد في الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بني أمية ، ثورة تَطْوِي في داخلها رغبة شديدة في أن تُسَلِّمَكَ دماؤهم كما سُفِكَت دماء شهدائهم : الحسين وزيد بن علي ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً سيكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شيء ، ولأنهم ليدلّعون في قلوبهم ناراً لا تُطْفِئُ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند كثيرٍ شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كثِيرٌ (١)

هو كثيرٌ بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، شاعر حجازي من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمّلاً في الأغاني أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لحميل بن معمر العنري ، وهو في جمهور غزله يرتسم بعزة بنت حُمَيْل الضُمَيْرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّي كثير عزة ، وأروع أشعاره فيها تائيته التي يقول في تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر لغزة من أعراضنا ما استحلّت
وهو يلتزم في رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً في غزله ، ويقول ابن سلام : إنه كان يقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفي لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكيسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

والخزاة ٣٧٦/٢ ومراة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأرباء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيريس رأاه في الجزائر .

(١) انظر في ترجمة كثير أغاني (دار الكتب) ٢/٩ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفي مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ وما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والموشح ص ١٤٣ ومعجم الشعراء ص ٢٤٢

قبس النبوة لا يزال ينتقل في على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر وفيه يقول :

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأخبار في الحقب الأولى^(١)

وراه يمتلي* حقدًا على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه في سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفي له في الكوفة وإخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثير يقول :

تخبر من لا قيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن عارم
وصى النبي المصطفى وابن عمه وفكأك أغلال ونفأع غارم
أبي فهو لا يشري هدى بضلالة ولا يتقى في الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم^(٢)
بعيث الحمام آمن الرّوع ساكن وحيث العدو كالصديق المسلم
وما فرح الدنيا بباقي لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازم

وواضح أنه يسجل على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذي يأخذ بأيدي العنة ، والذي يتقى الله حق تقواه .

ويرد ابن الزبير لابن الحنفية حرّيته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك في دمشق ، وكثير في ركا به ، فيكرمه وينزله منزلا عليا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التي انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأخبار ، كان من (٢) الخيف : ناحية من مكي بمكة . يقصون في العهد الأول .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ أراه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ تَشْنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عَقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا ^(١)
نَهْتَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكََا مِمَّا شَجَّاهَا قَطِينُهَا ^(٢)

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليهما . وظن بعض المعاصرين في مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق ^(٣) ، وهو لم يكن في مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً في ذلك لإمامه الذي رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية في بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومروءة بنا أن الشيعة كانوا يحيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهي تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصبر عليه لإصراراً . على أنه كان يحمل مديحه له كثيراً من السموم ، كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يَقْلَبُ عَيْنِي حَيَّةٍ بِمَحَارَةٍ إِذَا أَمَكْنَتْهُ شِدَّةٌ لَا يُقِيلُهَا ^(٤)

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفي في مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مستقطاً خلافة على ، لأنها الخلافة الصحيحة في رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

وَكُنْتُ الْمُعَلَّى إِذْ أُجِيلَتْ قِدَاحُهُمْ وَجَالِ الْمَنِيحُ وَسُطْهَا يَتَقَلَّقَلُ

والعلمي هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً . بل موته بذلك في الظاهر ، وعنى في الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

(١) الحصان : النفية . (٤) المحارة هنا : جعر الحية . الشدة :

(٢) القطين ، الخدم والوصفاء . الهجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه

(٣) انظر حديث الأربعاء لطلح حسين (طبعة) يبرم عزيمته ولا يتردد .

ترضى الشيعة إمامتهم . ومن ثم يقابل عبد الملك في ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك في مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخلائف بعد الرسو ل الله كلهم تابعوا
شهداء من بعد صديقهم وكان ابن حَرْب لهم رابعاً^(١)
وكان ابنه بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

وعلى هذا النحو لم يتخلل عن عقيدته في مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له في مديحه لبنى أمية ، وهو إخلاص مرجعه في رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ في إكرامهم ومنع عماله منعا باتاً من سبهم على المنابر ، وكان صالحاً تقياً ، وفيه يقول كثير مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمَ عَلَيَّ وَلَمْ تُخِفْ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي
وَقَدْ لَبِسْتُ لُبْسَ الْهَلُوكِ ثِيَابَهَا
وَتَوَضَّعْتُ أحياناً بَعَيْنِ مَرِيضَةٍ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمِزاً كَأَنَّمَا
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُوَدَّقاً
وَأَضْرَرْتَ بِالْقَائِي وَشَمَرْتَ لِلَّذِي
بَرِيّاً وَلَمْ تَقْبَلْ إِشَارَةَ مُجْرِمٍ
أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِياً كُلُّ مُسْلِمٍ
تَرَاغَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمَغْصَمٍ^(٢)
وَتَبَيَّنَ عَنِ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ^(٣)
سَقَّتْكَ مَدُوءاً مِنْ سِيَامٍ وَعَلَقَتَهُ^(٤)
وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيٍ مُصَمِّمٍ
أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مُظْلِمٍ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشارات بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدي أو وصي ، أوصى له على . بل يتجاوز ذلك إلى استشهاده ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

(١) الشهداء : عمر وعثمان . الصديق : أبو

(٢) الجمان : اللؤلؤ .

(٣) المدوف : المخلوط . السام : جمع سم .

بكر . ابن حرب : معاوية .

(٤) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .

مأتمهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول في ابن الحنفية حين لبيَّ نداء ربه :

ألا إن الأئمة من قريشٍ ولاية الحق أربعة سواهُ
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فسيبُطُ. سيبُطُ. إيمانٍ وبرٍ وسبُطُ غيبتهُ كزبلاءُ
وسبُطُ لا تراه العينُ حتى يقود الخيلَ يقدّمها اللّواءُ
تغيّب لا يرى عنهم زمانا برضوى عنده عسلٌ وماءُ
فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على الحسن والحسين وابن الحنفية : وهم متساوون في هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قتل الحسين في كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْطَعُ العسل والماء ، وسيعود في جيش كثيف يقوِّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا^(١)
ومن عمرٍ برئتُ ومن عتيقٍ غداة دُعِيَ أمير المؤمنين^(٢)
وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق في لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم في رأيه يُعدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو في تشييعه غلوّاً قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْتِ (٣)

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

للجاحظ (انظر الفهرس) وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ١/٦٦ ، ٩٩ ، ٢٠/٨٠ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص وكتابتنا للتطور والتجديد في الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مذكراته في بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات .

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه .
(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .
(٣) انظر في ترجمة الكيت وأخباره أغاني (سأى) ١٥/١٠٨ والشعر والشعراء ٢/٦٢ د والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ١/٦٩ ، ٨٦ والبيان والتهجين والحيوان

يشبّ حتى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقه والحديث النبوي وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة في مسجد الكوفة . ونراه يشتدو الشعر ، وتتعمد مودة بينه وبين الطيرمّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً .

ولا يلبث أن يبرع في الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففي أخباره أنه وفد على مغلّد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالاً في مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك ، ويقال إنه لقي على بابهِ أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتُروى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه في مطالع القرن الثاني يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة ، ففي أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفي سنة تسع وتسعين . ونغضّي معه إلى ولاية خالد القسري على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) فنجد أنه قد أصبح شيعياً خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن علي بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع ، ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبه وحب الهاشميين ، حتى لينكر من نفسه ما يحبه القديم ، وحتى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لِعِباً مني وذو الشيب يلعبُ
ولم تُلْهني دارٌ ولا رَسْم منزلٍ ولم يتطربني بَنانٌ مُخَضَّبُ
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يُطَلَّبُ
بني هاشمٍ رهطُ النبي فلنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بني هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتى ليقول الفرزدق المتوفّي سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد أجراً وجِصّاً فبني ، أي أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن في نظمه . ونراه في تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بني أمية واليهام خالد القسري . إذ كان ما بني يؤلّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتى لئراه يكتب - كما أسلفنا - إلى أهل مرو أن يثوروا في وجه أسد القسري حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسهِ ، فألقاه في غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه في ثياب وهيئة حتى عرفها الحرُّ رأس ، فدخلت في غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها ونهياً بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبُستَه على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بشياهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذي توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفي بني أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرْتُ إلى أُمِّيَّة والأُمُور لها مصائرُ
أهلِ التجاوب في المحا فل والمقاويل بالمخاصر^(١)
أنتم معادنٌ للخلافة كابرًا من بعد كابر

وهي مدائح تُحْمَلُ على التقيَّة ، إذ اضطُر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريرته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسُح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمين هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يُمْنى هو حَكِيم بن عِمَّاش الكلبي كان يتعصب للأُمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن علي هجاء^(٢) مرّاً ، فرأى الكميّ أن يصرفه عن ذلك بفتح معركة معه في اليمينية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بني هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يُمَكِّر به فيفخر عليه ببني أمية المضريين حتى يسكنه ويغلبه ، وقد ظهر عليه فعلاً لا بذلك فحسب ، بل بما نظم في عصبيته لمضرو وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهبتَه^(٣) : (ألا حُسَيْبٌ عَنَّا يَا مَدِينَا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجلَّها ووصمه بها وصماً .

٢/٨٠ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٨ .
(٣) في خزنة الأدب ١/٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغاني (طبع الساسي) ١٥/١١٢ والمعمودي (طبعة دار الرجا بمصر) ٣/١٦٢ .

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه .
والمقاويل بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها في الخطابة
(٢) انظر في ذلك ترجمته في الأغاني والإصابة

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهى تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشمين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المؤلف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثم قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً ، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تشفع به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يعدّ صدقاً قوياً لما شاع فى عصره من الجدل بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثل هذا الجدل تمثيلاً باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدل ، فقد كان إمامه زيد يتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية ، وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياتة التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصب على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سنة من سبقوه ، وهو يعصى ، فيسوف الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

فلم أرَ غَضَباً مثله يُتَغَضَّبُ	بخاتمكم غَضَباً نجوز أمورهم
تأولها منا بَقِيٌّ ومُغْرِبُ	وجدنا لكم فى آل حاميم آية
لكم نَصَبٌ فيها لذى الشُّكِّ مُنْصَبُ	وفى غيرها آيَا وآيَا تتابعن
وما ورثتُهُنَّ ذاك أم ولا أبُ	وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
به دانَ شرقى لكم ومغربُ	ولكن مواريثُ ابن آمنه الذى
لقد شَرَكْتَ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ ^(١)	يقولون لم يُورثْ ولولا تراثُهُ

وَعَكَ وَلَحْمٌ وَالسَّكُونُ وَجَمِيزٌ وَكَنْدَةٌ وَالْحَيَّانُ بِكْرٌ وَتَغْلِبُ
وما كانتِ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةٌ وَلَا غُيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غُيِّبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمْ فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن
الحكيم فى سُورَةِ « حَامِيم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقربانهم من الرسول ،
مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : (وَأَتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) ومثل : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عليه أجرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا
يُبدلون للرسول كما يدل آى بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً
وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية
تارة ويحكم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلاً محاولاً الظفر بخصوصه ، فإن ترك ذلك لجَّ
فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت— فى أصلها — من
أكثر العقائد الشيعية اعتدالاً وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان
زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا ببداء ولا برجعة على نحو ما كان يؤمن الكيسانية ،
وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية
الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم
غدير خم^١ ، وفى ذلك يقول الكميت :

وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمٍ أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أَطِيعَا^(١)
وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك
صحَّ خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع
الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا
ومعروف أن زيدا كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتم
أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخيًّا^(٢) ، ويردُّ الكميت فى هاشمياته هذه
الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

(١) غدير خم : بين المدينة ومكة ، نزل الرسول
(٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُمَاة الكُفَاة فِي الْحَرْبِ إِنْ لُ
وَالْغِيُوْثُ الذِّينَ إِنْ أَمَحَلَ النَّا
غَالِبِيْنَ هَاشِمِيْنَ فِي الْعِلْدِ
وَهُمْ الْآخِذُوْنَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمَّةِ

ويضيف الكميّ إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا
الناس لم يظلموهم فقيراً . وكثيراً ما يقف في تقريره لهذه الصفة عند جور بني
أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله في رعايتهم لهم ، بل يعاملونهم كأنهم
أغنام ، مبتدعين دائماً بيد عالم يجيئ بها الإسلام ، يقول

لَهُمْ كُلٌّ عَامٍ بَدْعَةٍ يُخَدِّثُونَهَا أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
وَدَائِمًا يُجَارِلُ رَبَّهُ أَنْ يَكْشِفَ غُمَّتَهُمْ عَنْ صَدْرِ الْأَمَّةِ ، فَقَدْ بَغَوْا فِيهَا وَطَغَوْا ،
وَسَامَوْهَا كُلٌّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ أَلْوَانِ الْخُسْفِ وَالْعَذَابِ . وإنه ليسأل الله أن يُحِلَّ
الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتُمُوهُ وَأَشْبَعَ مَنْ يَجَوِّرُكُمْ أَجْبَعَا
مَرْضَعٌ ، الْهَيْبَاسَةُ هَاشِمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا لِأُمْتِهِ رَبِيعَا^(٣)

ووقف الحاجظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق
المذهب الذي ذهب إليه الكميّ في مديح النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إِلَى السَّرَاجِ الْمُنِيرِ أَحْمَدَ لَا تَعْدَلْنِي رَغْبَةً وَلَا رَهَبَ
عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلَوْ رَفَعَ ال
وَقِيلَ أَفَرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ عَنَّفَنِي الْقَاتِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا

(١) ربوا : نما من التربية .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر

(٣) الحيا : المطر .

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيدونه ويثلبونه ويعتفونه^(١) . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته^(٢) . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، ففقد عن نصرته ، وفي هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه ، من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة تطلُّ لها الغربان حولي تحجلُ
وخرج زيد وقتل : فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفي محمّساً الناس أن ينفضوا عنه وعنهم . وضيق عليه يوسف الخناق . وظلَّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلَّ ضغنه دَسَّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا في حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة ، بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام . ولم يعد لهم من الأمر شيء . وسلّط عليهم الأمويون ولايةً يعتفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد في حقدهم وألمهم ، فتعلّقوا بكلّ ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لارحمة فيها ولا شفقة ، ويُسَحِّسُ كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم : فيأثفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي يرجع في نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتبهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كي يقود هذه الثورة التي كانت تغلوها نفوس الأشراف في الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل سجستان أخفق في حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بيجيشه حتى يقال إنه مات كمدأ .

وفكر الحجاج في قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهذه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان في كرمّان ، فأمدّه بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» ، تمام أهبتة وعُدته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغانم ، غير أنه رأى - خشية على جيشه - أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبي بكره . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمة بالخور والضعف ، وهذّده إن لم يمحض في القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّتهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهلهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالي بموتنا ، ويريد أن يعرّضنا للخطر ، حتى نسوق له وخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

وواعد عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فمنهم . واتجه بجيشه إلى العراق : وانضم إليه في طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بخاميات الأمصار ، ولما صار في فارس خلع عبد الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش « مثل السيل المنحط » من عك ، ليس يردّه شيء حتى انتهى إلى قراره ، وأعشى همدان وأبو جيلدة اليشكري في مقدمته يثيران الناس ويمحسّسهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينما أخرجوا منها

للحرب والموت في سجستان وخراسان على نحو ما نرى في قول أبي جليدة ^(١) :

أيا لهفى ويا حزنى جميعاً ويا غمّ الفؤادِ لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً وخلينا الحلائل والبنينا ^(٢)

فما كنا أناساً أهل دينٍ فنصبر للبلاء إذا بلينا
ولا كنا أناساً أهل دنيا فنمنعها وإن لم نرج دينا
تركنا دورنا لطعام عك ^(٣) وأنباط القرى والأشعرينا ^(٤)

وتقدم الحجاج بجيشه، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دجيل في ذى
الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ،
ومضى الحجاج فتزل بجيشه في ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية، وحدث فيها بين
الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جليدة يحرص على قتال الحجاج بمثل قوله ^(٥) :

نحن جلبنا الخيل من زرنجا مالك يا حجاج منا منجى ^(٦)
لتبعجن بالسيف بعجا أو لتفِرْن فذاك أخجى ^(٧)

وما زال أبو جليدة يحمس الجنود ويث الغيرة فيهم لنسائهم ، حتى شدوا
على عسكر الحجاج شدة ضعفته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ،
فراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة
وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دبر الحمام ، وفيها هُزم هزيمة ساحقة .
ولم يلبث أن جمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به في « مسكن » فحالفته
الهزيمة ، فولّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ،
وبعد محاولات منه لرجع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقُطِعَت رأسه ،
وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبي جليدة شعراء كثيرون لجأوا في هذه
الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو يحقّ يعد شاعر هذه الثورة .

(١) مرت في الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر في الأبيات أغاني (دار الكتب)

عشى^(١) همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الحمداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعشى في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لرى الشعبي فقيه الكوفة المشهور يُصْهِرُ إليه ، فيتزوج أخته ويزوجه أخته . وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي ، وأقبل عليه ، وأخى أحمد النّصّبي مغنى بلده ، فكان إذا قال شعراً غشّى له فيه . وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين ، وفيه يقول :

مَنْ أَكْثَرُ النِّعْمَانِ لَمْ أَلَفْ شَاكِرًا وَمَا خَيْرٌ مِنْ لَا يَقْتَدِي بِشُكُورٍ
وله أشعار يتزعم فيها مترع زهد في الدنيا ، فهو ينفّر منها ومن التعلق بمناجعتها ، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعظاظ الكوفة ، ومن أطرفها قوله :

وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ أَعْسَى نَاعِمًا جَدِلًا فِي أَمَلِهِ مُعْجَبًا بِالْعَيْشِ ذَا أَتْنِي^(٢)
غُرًّا ، أَتَيْتُجْ لَهُ مِنْ حَيْنِهِ عَرَضٌ فَمَا تَلَبَّثْتُ حَتَّى مَاتَ كَالصَّعِقِ
فَمَا تَزُودُ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنْوًا وَمَا وَاوَاهُ مِنْ خِرْقِ^(٣)
وغير نفحة أعوادٍ تُشَبُّ لَهُ وَقَلٌّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِنُطْلُقِ

ونراه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين بيكهم بقصيدة كانت إحدى المكتّمات التي كتبت في ذلك الزمان^(٤) . ويتولّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحرابه للمختار الثقفي ناظمًا أشعاراً كثيرة ، رواها الطبري ، يصور فيها شعوزة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

بديوان أعشى قيس .

(٢) أتني : فرح وسرور .

(٣) الحنوط : طيب يشخذ للبيت خاصة .

(٤) طبري ٤/٤٧٢ .

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني

(طبع دار الكتب) ٢٣/٦ والاشتقاق

ص ٤٢٣ والمؤلف ١٤ والموضح ص ١٩١

وراجع فهرس الطبري والمجزء الخامس من أنساب

الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جابر مملعاً

كُرْسَى وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده^(١) . ويُدال للبصرة من الكوفة ،
ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلاً :
ولإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل^(٢)

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب
وغیره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر
سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه في موقعة جندولاء . وقد
انتصر الخوارج ، ففضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويقول خالد بن
عتاب بن ورقاء أصهبان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه
يخفوه ، فيهجوه . ونراه في شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بدائها .
ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْران ، فيمرض هناك ، وينظم
قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغبة ،
خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج في بلاد الديلم ،
فيقع أسيراً ، وتراه بنت للعلاج الذي أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ،
وبذلك تخلصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يزل وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى
سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبي بكرة زنبيل ملك الترك . ولما دارت
على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبي بكرة
سواء في قيادته غير الحكيمة أو في إهداره لمسؤولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه
من ضيق ، فباع القفيز من الشعر بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرَم ، وهم
يتساقطون جوعاً ، يقول :

وأصاهم رَيْنُبُ الزمان الأعوج
بأضرَّ منزلةٍ وشرُّ مُعَرَّجٍ^(٣)
فلمثلهم قُلْ للنوائح تَنْشِجْ

أسمعتَ بالجيش الذين تمزقوا
حُبسوا بكابُلَ ياكلون جِياهم
لم يلق جيشٌ في البلاد كما لقوا

بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

(١) انظر الطبري ٤/ ٥٥٠ ، ٥٦١ ،

٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وَلَبِثَ شَأْنُهُمْ وَكُنْتُ أَمِيرَهُمْ فَأَضَعْتَهُمْ وَالْحَرْبُ ذَاتُ تَوْهِيحٍ
وَتَبْيِيعِهِمْ فِيهَا الْقَفِيزَ بِدَرَاهِمٍ فَيُظَلُّ جَيْشُكَ بِالْمَلَامَةِ يَنْتَجِي^(١)
وَمَنْعَتَهُمْ أَلْبَانَهُمْ وَشَعِيرَهُمْ وَتَجَرَّتْ بِالْعَنْبِ الَّذِي لَمْ يَنْضَجْ

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فولّى سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن
يزيد في عطائه ، فلم يُلبَّسْ سؤاله ، فضى يعاتبه في قصيدة طويلة ، يقول له في
تضاعفها :

مَالِكٌ لَا تَعْطَى وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُثْرٍ مِنَ الطُّأَرِفِ وَالتَّالِدِ
تَجْبِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مَتَكْفَأً فِي عَيْشِكَ الرَّاغِدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى
يده في يده وكأنه صدّر في ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم في صفوف
المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن
الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولادة بني أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها
العذاب على نحو ما رأينا في هجائه لابن أبي بكرة . وهذا الحجاج على العراق
قد بغى وطني ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج في
بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مرغماً ، لا يعرف متى يأذن له في العودة لتقرّ عينه
بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر
حمساً بلجده ، فلما توجه مقبلاً إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إِنَّا سَفَوْنَا لِلْكَفُورِ الْقَتَانَ حِينَ طَغَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ^(٢)
بِالسَّيِّدِ الْغَطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَارِ جَمْعٍ كَالدَّبْيِ مِنْ قَحْطَانٍ^(٣)
أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ
إِنْ ثَقِيفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَّابُ ثَانٍ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهي السر . (٣) الدبى : الجراد .

(٢) سفا : خف وأسرع .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرّضهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ، وما كان لآبائه من ملك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من "أسر" العصر الجاهلي النبيلة ، يقول :

يَأْبَى الْإِلَهِ وَعِزَّةُ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَجُدودُ مَلِكٍ قَبْلَ آلِ ثَمُودِ^(١)
 أَنْ تَأْتَسُّوْا بِمُدَّمِّمِينَ عُسْرُوهُمْ فِي النَّاسِ إِنْ تُسْبُوا عُرُوْهُ عَبِيدِ
 كَمْ مِنْ أَبٍ لَكَ كَانَ يَعْقِدُ تَاجَهُ بِجَبِينِ أَبْلَجٍ يَقُولُ صِنْدِيدِ^(٢)
 مَا قَصُرَتْ بِكَ أَنْ تَنَالَ مَدَى الْعُلَا أَخْلَاقُ مَكْرَمَةٍ وَإِثْرُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأتى إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يلبس قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَسَّمْ نوره وَيَطْغَى نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتَخْمَدَا
 وَيُنْزَلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْد لِمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكَدَا
 وَمَا نَكَّدُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ إِذَا ضَمِنُوهَا الْيَوْمَ خَاسِرَاهَا غَدَا^(٣)
 وَمَا أَحْدَثُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَضَعْنِي إِلَى اللَّهِ مَضْمَدَا
 وَمَا زَاخَفَ الْحَجَّاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ شُعَانًا مُلَقًى لِلْفَتْوحِ مَتَوَدَا
 لِيَهْيَأَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَهْرَهُ عَلَى أُمَةٍ كَانُوا بُغَاءَ وَحْشَدَا
 ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فاربداً وجهه واهتز منكياه ، وأمر
 الحرس فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

(٢) أبلج : طالق الوجه . مقول : خطيب
 صنديد : الجواد الشجاع
 (٣) خاسر : غدر ونكث

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن
 الأشعث . ويريد بالثمود قبيلة ثقيف قوم
 الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بنو يافا .

شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدَّاح بنى أمية ، فالمديح شيء والشعر السياسى شيء آخر . المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعنتها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىَّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يبنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شعبة تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومظالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صفين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىَّ انتصاراً حاسماً لولا ما لحأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جعيل التغلبى :

أرى الشامَ تكره مُلكَ العراق وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضيينا ابنَ هِنْدٍ رضيينا
وردَّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال ينقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين
الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلكَ العراق فقد ما رضيينا الذي تكرهونا^(١)

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم ، وبابيع الناس معاوية ، ودخلت
العراق في طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ،
وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة
مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز في
عهد يزيد بن معاوية وتجمعت معارضتها في عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون في هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن
نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر .
وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار
حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفي رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ،
فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصراني التغلبي ، على نحو ما مر بنا في غير هذا
الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويّاً يناضل عن السياسة
الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية في بيته ، وأن يأخذ البيعة
لابنه يزيد في حياته . وكان ذلك في رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تَخْرُجُ
الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند
الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعرف معاوية نفور المسلمين من ذلك ،
فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع
من لبّاه منهم مسكين الدارمي فأنشأ يقول في كلمة له ^(٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينوري (طبع) (٢) الأغاني (ساسي) ٧١ / ١٨ .

بني خلفاء الله مهلاً فإنما يُبَوِّئُهَا الرَّحْمَنُ حيث يريد^(١)
 إذا المُنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلَّى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد
 على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ لكل أناس طائرٌ وجدود^(٢)

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صالته .

ومن شعراء آل أبي سفيان المشوكل^(٣) الليثي وعبد الله^(٤) بن همام السلولي
 « وكان مكيناً حظيًّا فيهم وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية »
 في أشعار يرويها الرواة ، كان يرثي فيها أباه ويحضره على البيعة لابنه من مثل قوله^(٥) :
 اضبر يزيد فقد فارقت داميَّة واشكر حباء الذي بالملك حاباك
 لارزء أعظم في الأقوام نعلمه كما رزئت ولا عقبى كعقباك
 أصبحت راعي أهل الدين كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاك
 وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نعت ولا نسمع بمنعاك
 ونمضي إلى عصر الروائيين ، وأول من تلقاه من شعرائهم أبو العباس^(٦)
 الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدثئل يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان من
 شعراء بني أمية المعدودين المقدَّمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم »
 ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان
 ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حياً مثل حيٍّ تحمَّلوا إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت^(٧)
 أعزَّ وأمضى حين تشتجر القنا وأعلم بالمسكين حيث يبيت

(١) يبَوِّئُها : ينزلها .

(٢) الجد : الحفظ .

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع الساسي)

(٤) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٥٧/١٥ ونكت الحميان للصفدي ص ١٥٣ ومعجم الأدباء

١٥٩/١٢ . ١٧٩/١١ والتهذيب ٤٤٩/٣ والبيان والتبيين

(٥) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .

وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ . (٧) تحملوا : ارتحلوا . برئت : خلقت .

(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ والمبرد ص ٧٨٥

إذا مات منهم سيّد قام سيد بصيرُ بعَوَرات الكلام زَميت^(١)
وقوله :

ليت شعري أفأح رائحة المِسْكِ وما إن أخال بالخيف أنسى^(٢)
حين غابتُ بنو أميّة عنه والبهاليلُ من بني عبد شمسِ
خطباءُ على المنابر فُرُسا نٌ عليها وقالةٌ غير خُرسِ
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بلبسِ
وبلغ ابن الزبير نُبَيْدًا من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه
وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهيجوه وآله هجاء مرًا ، محرصًا عبد
الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن
بني هاشم ، وفي ذلك يقول لأبي الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًا :

لعمرك إنني وأباطفيلٍ لمختلفان واللهُ الشهيدُ
لقد ضلُّوا بحب أبي ترابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ
ويقال إنه أدرك دولة بني العباس ، وتروى له أشعار مختلفة — إن
صحت — في بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسرًا شديدًا من
مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأسرةُ منهم فعليهمُ حتى الماتِ سلامُ
ومن كان يلهج بهم ويقف في صفوفهم نابعة بني شيبان^(٣) عبد الله بن المخارق ،
ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التي
يحلف بها النصراني ، وفي ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل
قوله :

ويَزَجِرني الإسلامُ والشَّيْبُ والتَّقِي وفي الشَّيْبِ والإسلام للمرء زاجرُ

(٣) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ١٠٦/٧ وقد نشرت دار الكتب ديوانه.

(١) زميت : وقور .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همَّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد مثَّل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

لَأَبْنُكَ أَوْلَى بِمُلْكِكَ وَالِدَهُ وَنَجْمٌ مِنْ قَدِّ عَصَاكَ مَطَّرَحُ
فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا هُوَ رَأَى عَبْدِ الْمَلِكِ . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله
تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . وازم بعده ابنه الوليد ،
وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه في الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .
وعلى شاكلة في الانتصار لبني مروان أعشى قبيلته عبد^(١) الله بن خارجة ،
وكان شديد التعصب لهم ، وله في عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على
حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي عَجِلَ النَّجَاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا^(٢)
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْغَوَاةِ أَطْلَمْتُ لِإِمْهَالِهَا
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ مَا زَلَمْتُ أَرَكَانَهَا وَثِمَالَهَا^(٣)
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مَغْلَقاً فَانْهَضْ بِيَمْنِكَ فَافْتَتَحْ أَقْفَالَهَا

ومن شعراء بني أمية أبو عطاء^(٤) السَّندُبِّي مولى بني أسد ، وكانت فيه
لكُفَّةٌ سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاية
الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مرثئاً بديعة . وقد عاش إلى أيام
المنصور ، ونراه يبكي بني أمية حين سقطت دولتهم هاجئاً العباسيين في أشعار
كثيرة من مثل قوله :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ
وقوله :

بَنِي هَاشِمٍ عُودُوا إِلَى نَخَلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سَعْرُ التَّحَرُّ صَاعاً بِدَرَاهِمٍ
فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ

(٤) انظر في ترجمة أبي عطاء أغاني (ساسي)

٧٨/١٦ والشعر والشعراء ٧٤٢/٢ والخزانة

٤٧٠/٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ج ٥٦

والعيني ٥٦٠/١

(١) انظر ترجمته في الأغاني طبع (ساسو)

١٥٥/١٦ وقد نشر جابر ديمانه ملحناً
بديوان أعشى قيس .

(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .

(٣) النمال : النعاج الذي يتروم بأمر قومه .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبني أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولا تتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص في الوليد بن عبد الملك ^(١) :

تَخِيْرُهُ رَبُّ الْعِبَادِ لِخَلْقِهِ وَلَيْسَا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا
وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم في سليمان ^(٢) :
سُمِّيَتْ بِاسْمِ أَمْرِيءَ أَشْبَهَتْ شَيْئَتَهُ عَدْلًا وَفَضْلًا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَا
أَحْمَدُ بِهِ فِي الْوَرَى الْمَاضِينَ مِنْ مَلِكٍ وَأَنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الْبَاقِينَ مَحْمُودَا
وكان في زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد في تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثير ، ويقول العبدلي في هشام بن عبد الملك وأسلافه ^(٣) :

يَقْطَعُونَ النَّهَارَ بِالرَّأْيِ وَالْحَزَمِ وَيُخَيُّونَ لَيْلَهُمْ بِالسَّجُودِ
والغريب أن نجد هذا التصوير يمتدُّ حتى إلى من عرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبة ^(٤) :

إِمَامٌ يُوضِحُ الْحَقَّ لَهُ نَوْرٌ عَلَى نَوْرِ
ولما اضطربت الدولة في عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يحترقون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبَدَتْ في الأفق النُّذُرُ بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة في دياره قائلا ^(٥) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِضَّ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ اضْطِرَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَلْيَقَاظُ أُمَيَّةٌ أَمْ نِيَامُ
فَلَمَّا كَانُوا لَحِينَهُمْ نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ طَالَ الْمَنَامُ

(١) أغاني (دار الكتب) ٢٩٨/١ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٨٨/١٢ .

(٣) أغاني ٣٠٦/١١ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني ٩٥/٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١٥٨/١ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضت حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نجو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندی ونقف الآن عند شاعر ين مهمين من شعرائهم .

عبد الله^(١) بن الزبير

كوفي المنزل والمنشأ من بني أسد « كان من شيعة بني أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجو ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذى كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدهحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مدبجاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر غمراً إن تراخت منيَّ أيادى لم تُننن وإن هى جَلَّتْ
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زَلَّتْ
رأى خلقتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلَّتْ^(٢)
ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له وأعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدٌ إلا مَجْدُ أسماء فوقه ولا جَرَى إلا جَرَى أسماء فاضله
فتى لا يزال الدهر ما عاش مُخَصِّباً ولو كان بالموماة تخلى رَواحله^(٣)
وعزل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه بمدحه وينوّه به فى قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافى عبيدُ الله والمجدُ صفوة الـ حليفين ما أَرَسَى ثبيرٌ ويثرب^(٤)
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ فأبشّر فقد أدركت ما كنت تطلبُ

(١) انظر ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٧/١ وما بعدها والخزانة ١/٣٤٥ وما بعد التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع فى العين .

(٣) الموماة : المفازة . تخلى الناقة : تسرع فى سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفي فيتحول إليه ابن الزبير يتوعدده ويهدده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمن عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمادحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجو حيز يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيهما العائدُ في مكةَ كم من دمٍ أهرقته في غير دم
أيدهُ عائدةٌ معصمةٌ ويدُ تقتل من حلَّ الحرم
ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلاً :

كأنى بعبد الله يركب ردعه وفيه سنان زاعبي مُحَرَّبُ^(١)
وقد فر عنه الملحدون وحلقت به وبمن آسأه عتقاء مُغْرِبُ^(٢)
تولوا فخلوه فشالَ بِشِلَوْهُ طويل من الأجذاع عارٍ مشدَّبُ^(٣)
بكفى غلام من ثقيف نمت به قريش وذو المجد التليد معتبُ
ويلزم بشر بن مروان في ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفى في خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً بعد بشر ، ويقال إنه عمى بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرهبُ شمة .

عدى^(٤) بن الرقاع

من عاملة إحدى قبائل قضاة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يسئلك في حاضرة الشعراء . وكان مقدماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدحاً

أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/١ وما بعدها
و ٣٠٧/٩ وما بعدها و (طبع الساسي)
١٦٥/١٧ والطبرى ٢/٥ والشعر والشعراء
٢/٦٠٠ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٤٣٥ ،
٥٥٨ ، ٥٥١ ومعجم الشعراء للرزباني ص ٨٦
والاشتقاق ص ٣٧٥ والموشح ص ١٩٠ والطرائف
الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

(١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلاً ليتخشب دمه . والزاعبية : ضرب من الرياح . محرب : محدد .
(٢) يقال عتقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .
(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشدب : مصلح مقوم .
(٤) انظر في ترجمة عدى وأخباره وأشعاره

لهم ، خاصاً منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك في مخاصمات أشرف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أشرعت الأسنة بين القبائل المنيّة وقيس في الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك في حربه لمصعب بن الزبير ، وله بمدحه مفاخرأ بنصرتهم له :

لعمري لقد أضحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب^(١)
 يهزون كلّ طويل القنا ة ملتئم الفضل والشعلب^(٢)
 تقدّمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب^(٣)
 أعين بنا ونصّرنا به ومن ينصّر الله لم يغلب

ولا نكاد نمضي في عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقر به منه ويتخذ شاعره الرسمي ، حتى ليُصغّر عليه على جرير في بعض مجالسه ، ويشور جرير ، ويهجوّه ، فيبتدخل الوليد ويهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل في رعايته يصفيه مدائح ، ويتغنى له فيها المغنون ، وما غنّى له ابن سريج فيه قوله :

صلّى الذي الصلوات الطيّبات له والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمعَا
 هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعةَا
 إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له مُدكُّ عليه أعانَ الله فارتفعَا
 وقوله :

صلّى الإله على امرئ ودّعته وأتم نعمته عليه وزادها
 أولا ترى أن البرية كلّها ألقّت خزائمهَا إليه فقادها^(٤)
 ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
 أعمرت أرض المسلمين فأقبلت ونفيت عنها من يروم فسادها

(٤) الخرائم : جمع مخزاة . وهي البرة يخزم بها البعير في أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

(١) أصحرت : برزت

(٢) الشعلب : رأس الرمح

(٣) الضرائب : الطباع

وَأَصْبَتْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ مَصِيبَةً عَمَّتْ أَقَاصِي غَوْرِهَا وَنِجَادَهَا
ظَفَرًا وَنَضْرًا مَا تَنَاوَلَ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ كَانَ أَرَادَهَا
وَإِذَا نَشَرْتُ لَهُ الشَّاءَ وَجَدْتُهُ جَمَعَ الْمَكَارِمَ طَرْفَهَا وَتِلَادَهَا^(١)

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولاً بكل ما
يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره
لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والثنام شعبتها ، وقد انقادت إليه بأزماتها ،
والله يتم عليه نعمته ، وهى تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله فى علاه ليصلى
عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ،
وكيف أعمار أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده
منزلاً على أعدائها صواعقه ، فتمحمتهم محملاً .

وفى أشعاره ما يدل على أنه كان يُعنى بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصِفُ قِلَها
ويشذبها حتى تلبين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلاً عقله ، يقول :

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مِثْلَهَا وَسِنَادَهَا^(٢)
نَظَرَ الْمُشَقَّفِ فِي كُعُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَاتُهُ مَنَادَهَا^(٣)
واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُسن الوحش والظباء ،
ومن بديع وصفه لظبية ترتعى ومعها شاذنها أو ابنها قوله :

تُزْجَى أَغْنٌ كَأَنَّ لِبَرَةٍ رَوْقَهُ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاءِ مِدَادَهَا^(٤)

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وَكَأَنَّهَا وَسَطُ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ^(٥)
وَسَنَانُ أَقْصَدِهِ الدُّهَاسُ فَرَنْقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَانِمٍ^(٦)

(١) طرفها : حادتها . تِلَادُهَا : قديمها .

(٢) السناد : من عيوب الروى .

(٣) المشقف : الذى يشهد الريح والسيوف ويقومها . منادها : معوجها .

(٤) تزجى : تسوق . الأغن : الشاذن فى

صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه
المهدد .

(٥) الجاذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة .
وجاسم : من قرى دمشق .

(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

ونراه يصنف سنابك حمارى الوحش حين يعدوان فى الصحراء ويثيران من
حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول .

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها
تُطوى إذا علّوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتُ نشرها

وله فى النسب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبیت يَدُ الفتاة وسادةً لى جاعلا يُسرى يديَّ وسادها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطلب
فى شعره أن يأتى بالصورة الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا في حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما في الرفق والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبي ، وكيف أخذ هذا الرقيق يسدّ حاجة الشباب المتعطّل من اللهو بما كان يقدم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربي القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التي وقّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربي قروناً طويلة .

ويجيئ إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان في الحجاز للغناء ، فالناس يختلّفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النسّاء والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ، حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه في مجالسهن . وفي كتاب الأغاني أخبار كثيرة تصور كلف سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل^(١) . وقد شاعت في هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجة واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذي كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستمرى الناس من رجال ونساء . وبذلك كادت تختفي من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان ، وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذي عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرة مقطوعات قصيرة ، وعُدل الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والهجج

(١) انظر في ذلك كتابنا : الشعر الغنائي في المدينة (طبع دار الفكر العربي) ص ٦١ وما بعدها والشعر الغنائي في مكة (طبع دار الفكر العربي) ص ٥٧ وما بعدها .

والوافر . كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكاهل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كي يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التي يوقعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا في مواضع الجهر ويهمسوا في مواضع الخمس . وليس ذلك فقط ما أثر به الغناء الأموي في الغزل الذي عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يرضوا أذواق المستمعين في هذا المجتمع المتحضر الذي يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربي من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلي القديم في صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً في صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيهاً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون في جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويراً لأحاسيس الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تلتقي الرجال وتحادثهم ، وكانت - شأن المرأة في كل عصر - تُعجب بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغي أن نفرق بين الحرية والإباحية ، ففي الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفي الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والحوون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقاً برزت المرأة في مكة والمدينة للشباب في هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم لإقبال الثريَّا بنت علي بن عبد الله الأموية في مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنى بأُم البنين في مدائحها لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما في ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالاً ونساءً في مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل، وأخذ الشعراء يُخضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه في نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقي طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُشَمي ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهي المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرخ بحبه وزياراته لمحوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون في الطلب ، وهم جميعاً يسلِّقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون في نفوسهم من رغبة ، وبلغ من تيه عمر في ذلك أن رأيناه يصورها متهاكمة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلاً عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر^(١) بن أبي ربيعة

في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بني مخزوم ، ولد عمر في سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبي ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى سمجدا . وكان أبوه في الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجند ، وظل عليه في عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله في مكة بعد هجرتهم^(٢) ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلاً فدللته ، يؤازرها في ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكِّي ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

وشاعر الغزل (في سلسلة أقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابين : التطور والتجديد في الشعر الأموي (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر الغنائي في مكة ص ١٤٧ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفي بيروت . (٢) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(١) انظر في ترجمة عمر الأغاني (طبع دار الكتب) ٦١/١ وما بعدها ، ٢٣٩/٩ وما بعدها والشعر ٥٣٥/٢ والموشح ص ٢٠١ والخزاة ٢٣٨/١ ومِرآة الجنان لليافعي ١٨٢/١ وابن خلكان وشذرات الذهب ٤٠/١ وأمالى القالى ٥١/٢ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأريعاء (طبعة الحلبي) ٣٧٢/١ وما بعدها

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم ^(١) ، وفي الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقص هذا الوهم نقضاً ^(٢) ، وما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤ بقرار مكة مسكني ولها هواي فقد سبت قلبي
وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمه من حوله ، والمغنون والمغنيات من أدل مكة مثل ابن سريج وابن مسجع والغريض يلزمونه ويغنونه في شعره . حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلاً عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة ^(٣) . ويقول الرواة إنه كان بيته مغنيتان تغنيانه في أشعاره هما بغم وأسما . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل متعبد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبر غزل في عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب ، بل في جميع العصور العربية .

وهو في غزله يُخضع ملكاته لنف الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والحزوة . حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تنفسح لهم في روعة النغم . ونراه لا يصطنع أي ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظهرنا على حقيقته في غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحوّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِدُ النَّاسَ لِلطَّوْافِ احْتِسَاباً وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةً فِي الطَّوْافِ
وتذهب مواسم الحج ، فيتصدى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سوكينة بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل في فتيات قریش النبيلات ، ومن ثم وصف ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التي تصوّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

(١) انظر عمر بن أبي ربيعة حياته وشعره

أخباره في الأغاني مع معنى مكة ومع الثريا .

(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب)

(٣) ٣٥٩/١ ، ٣٢٢/٣ ، ٢٩٦/٤ ، ٢٠٨/٨

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع

وحُلِيّ طيب ، على نحو ما نرى في قوله :

قالتُ ثُرِيًّا لِأَتْرَابٍ لَهَا قُطْفُ قُمْنٍ نُحَيِّي أَبَا الْخَطَّابِ مِنْ كَثَبٍ^(١)
فَطِرُنَ طَيْرًا لَمَّا قَالَتْ وَشَابِعَهَا مِثْلُ التَّائِيلِ قَدْ مُوِّهَنَ بِالذَّهَبِ
يَرَفْلَنَ فِي مُطَرَفَاتِ السُّوسِ آوَنَةً وَفِي الْعَتِيقِ مِنَ الدِّيْبَاجِ وَالْقَصَبِ^(٢)
تَرَى عَلَيْهِنَ حَلَى الدَّرِّ مَتَسِقًا مَعَ الزَّبْرِجَدِ وَالْيَاقُوتِ كَالشَّهْبِ
وَنَرَاهُ أحيانًا يَلْهَجُ بِصَبَابَتِهِ وَحَبِّهِ وَمَا يَذُوقُ مِنْ وَجْدٍ وَأَلَمٍ ، مُتَلَطِّفًا لَصَاحِبَتِهِ ،
مَلَحًا عَلَى أَنْ تَوَاصِلَهُ بِوَدِّهَا ، مُسْتَعْطَفًا ، مُتَضَرِّعًا ، بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مَذَّ عَرَفْتَكُمْ أَنَّ الْمَضَاجِعَ تَمْسِي تُنْبِتُ الْإِبْرَا
قَدْ لَمْتُ قَلْبِي وَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ فَقَالَ لِي : لَا تَلْمَنِي وَادْفَعِ الْقَدْرَا
وَلَكِنْ هَذَا يَأْتِي نَادِرًا فِي غَزَلِهِ ، إِذْ قَلَّمَا يَشْكُو مِنْ هَجْرٍ أَوْ يَتَأَلَّمُ لَصَدِّ ،
فَقَدْ تَحَوَّلَ بِشَعْرِهِ يَمْلُؤُهُ تَيْهًا بِنَفْسِهِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ جَمِيلًا . وَكَأَنَّمَا انْعَكَسَتْ
فِيهِ صُورَةُ الْحُبِّ ، فَهُوَ لَا يَشْكُو الْغَرَامَ وَالْعَشْقَ ، بَلْ مَحْبُوبَتُهُ هِيَ الَّتِي تَشْكُو مِنْ
ذَلِكَ ، فَهِيَ الَّتِي تَحِيطُهُ بِشَبَاكِ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِعْطَافِ ، وَهِيَ الَّتِي مَا تَنِي
مُسَهَّدَةً تَتَعَذَّبُ فِي حَبِّهِ وَتَتَمَنَّى لَوْ تَرَاهُ . وَاسْمَعْنِي يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَى صَوَاحِبِهِ :
تَقُولُ إِذْ أَيْقَنْتُ أَنِّي مَفَارِقُهَا يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ الْيَوْمِ يَا عَمْرَا
وَيَقُولُ عَلَى لِسَانِ ثَانِيَةٍ :

لَمَّا وَافَقَ النَّفْسَ مِنْ شَيْءٍ تَسَرُّ بِهِ وَأَعْجَبَ الْعَيْنَ إِلَّا فَسَوْقَهُ عُمُرُ
وَيَقُولُ عَنْ ثَالِثَةٍ :

قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً وَفِي الْمَرْءِ إِلَّا الْحَلْفُ مُجْتَهِدًا^(٣)
لَأُخْتَهَا وَلِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدْتُ^(٤)
لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدًا

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف ككبر ، وهو

الخاذم .

(١) قطف : جمع قطوف وهي بطيخة الخطوط .

كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد

بالمغرب . القصب : الحرير .

وَيَصُورُ شَغْلَ ثَلَاثِ أَخَوَاتِ بِهِ ، فَيَقُولُ :

قَالَتْ الْكُبْرَى أَتَعْرِفْنَ الْفَتَى قَالَتْ الْوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرُ
قَالَتْ الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَمَّمْتُهَا قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ
وَلَمْ يَقِفْ بِإِعْجَابِ الْمَرْأَةِ بِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ ، فَقَدْ أَخَذَ يَصُورُ كَلْفَهَا بِهِ وَتَصَدَّقُ بِهَا
لَهُ ، وَأَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَهُ لَعَلَّهَا تَجِدُ سَبِيلًا إِلَيْهِ ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَتَدَلَّلُ وَيَتَمَنَّى ،
وَهِيَ تَسْعَى إِلَى الْوَصُولِ مُنْتَهِزَةً كُلَّ فُرْصَةٍ ، حَتَّى بَيْنَ مَشَاعِرِ الْحَجِّ ، يَقُولُ :
قَالَتْ لِيَتَرَبَّ لَهَا تَحَدُّثُهَا لِنُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمَرِ
قَوْمِي تَصَدَّقْ لَهُ لِيَعْرِفَنَا ثُمَّ اغْمِزْ بِهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرِ
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرْتُ تَسْعَى عَلَى أُثْرِي^(١)
وَعَلَى هَذَا النُّحُورِ نَرَاهُ فِي غَزَلِهِ ، يُوَقِّدُ قُلُوبَ الْفَتَيَاتِ حُبًّا ، وَهُنَّ يَتَمَنَيْنَ عَطْفَهُ
وَحَنَانَهُ ، وَبِذَلِكَ يَعْكُسُ الصُّورَةُ الْمَأْلُوفَةُ فِي الْغَزْلِ الْعَرَبِيِّ ، إِذْ لَا يَزَالُ الشَّاعِرُ
يَطْلُبُ وَيَأْمُلُ وَيَتَضَرَّعُ وَيَرْجُو الْعَطْفَ وَالْحَنَانَ ، بَلْ لَا يَزَالُ يَبْلُغُ الْعِشْقَ وَالْهَيَامَ
مُسْتَرْحِمًا مُسْتَغْفِرًا ، أَمَّا عِنْدَ عَمْرِ فَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ وَابْكَنُ لَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّهِ
هُوَ وَإِنَّمَا فِي تَصْوِيرِ حُبِّ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ لَهُ وَمَا يُوقَدُ بِهِ قُلُوبَهُنَّ مِنَ الْعِشْقِ وَالصَّبَابَةِ .
فَعَمْرُ فِي غَزَلِهِ مَعْشُوقٌ لَا عَاشِقٌ ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى فِي جَمْعِهِ هَذَا الْغَزْلُ ،
وَيَسْتَمُتُّ خُطُوطَ هَذِهِ الصُّورَةِ لِابْتِغَاءِ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ حُبَّهُنَّ لَهُ فَحَسَبَ ، بَلْ
أَيْضًا بِمَا يَصِفُنَّ مِنْ خُطُوبِ هَذَا الْحُبِّ ، فَهُنَّ يَتَحَدَّثْنَ عَنْ هِجْرَانِهِ ، وَهُنَّ يَذُقْنَ
مَرَارَةَ الْغَيْرَةِ وَيُصْطَلِّينَ بِنَارِهَا الْمُحْرِقَةِ ، وَهُنَّ يَتَأَلَّمْنَ مِنَ الْوُشَاةِ وَمِنْ فَقْدِهِنَّ
لِعَطْفِهِ وَأَنَّهُنَّ لَا يَجِدْنَ عِنْدَهُ إِلَّا الْإِعْرَاضَ وَالصَّدُوفَ ، يَقُولُ عَلَى لِسَانِ إِحْدَاهُنَّ :
أَمْسِ أَجَلِي وَاشْ كَاشِحِ بِنَسِيمَةٍ مَشَى بَيْنَنَا صَبَدَقَتَهُ لَمْ تَكْذِبِ
وَأَتَانِ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَصُورَ عَوَاطِفَ الْمَرْأَةِ وَنَفْسِيَّتَهَا وَمَا يَتَعَمَّقُهَا مِنْ دَقَائِقِ
الْحُبِّ وَمَا يَثِيرُ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْمَشَاعِرِ الرَّقِيقَةِ ، وَكَيْفَ تَتَّخِذُ الْأَسْبَابَ لِاسْتِرْضَاءِ
عَاشِقِهَا حِينَ تَرَاهُ يَنْصَرِفُ عَنْهَا ، وَكَيْفَ تَتَقَدَّمُ لَهَا بِعُضِّ صَدِيقَاتِهَا تَحَاوُلُ
أَنْ تَعِيدَ الصَّفَاءَ بَيْنَهُمَا ، يَقُولُ :

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ما تأمرين فإن القلب قد شُغِلَا^(١)
 فجاءت بها حصانٌ غير فاحشةٍ بِرَجْعٍ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطلاً
 اقْنِي حياءك في سِتْرِ وفي كرمٍ فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلاً^(٢)
 لا تظهرى حُبّه حتى أراجعه إني سأكفيكه إن لم أمت عَجلاً
 وترضى خطتها وتوصيها أن تكذب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف
 في لومه وعذله :

فإن عهدي به والله يحفظه وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا
 وتكرر الرسل بينه وبين محبوباته في ديوانه . ونراه يعتمد إلى مراسلة بعضهم ،
 على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي كِتَابٌ مَوْلُودٌ كَمِيدٍ
 كَثِيبٌ وَكَافٍ الْعَيْنَ يَنْ بِالْحَسَرَاتِ مَنفُردٍ^(٣)
 يُوَزَّقُهُ لَهَيْبُ الشُّوْ قِ بَيْنَ السُّخْرِ وَالْكَبِدِ^(٤)
 فِيمَسْكُ قَلْبِهِ بِيَدٍ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدٍ

وتردُّ عليه الثريا شعراً^(٥) ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من
 تبادل الرسائل بينه وبين صواحيبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبُوعُ غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته
 يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجوارين حبين له وهيامهن به . ونراه يعتمد أحياناً
 إلى تصوير افتتاحه لليل والأحوال والأحراس على بعض صواحيبه على نحو ما
 نعرف في قصيدته :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرٌ غَدَاةٌ غَدَاةٌ رَائِحٌ فَمُهْجَرٌ^(٦)

(١) غاد : من الغدوة وهى البكرة أو أول

النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من

الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهجرة وهى

نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها

المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

(١) رقية : انتظار .

(٢) اقْنِي حياءك : احتفظى به .

(٣) واكف العينين : سائل الدموع .

(٤) السحر : الرثة .

(٥) أغاني (دار الكتب) ١/٢٣٥ وما بعدها .

ويعمى فيصور قضاءه الليل في الحديث معها حتى تبشير الصباح ، وكأنه في ذلك يحاكي امرأ القيس في معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثم كُنا ننى القيصص التي تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظناً أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها^(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص^(٢)

أوسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجدته عاصم حمى الدبر أى النحل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لحيان في نفر ، فحاربوهم في يوم يسمى يوم الرجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهراً حتى إذا جنى الليل أمطرت السماء فاحتمله السيئل ، فسمى حمى الدبر . ونال أبيه حظلة بن أبي عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَلْتُ نَحْلَى الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارُ مَيْتاً طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعٍ

وَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبْرُ قَتِيلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ

وإنما لقب الأحوص لحوص كان في عينيه ، وهو ضيق في مؤخرهما . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبي ربيعة عاش للحب

(١) أغاني (دار الكتب) ٧١/١

سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ٤٩٩/١
والموشح ص ١٨٧ والاشتقاق ص ٤٣٧ والخزانة
٢٣١/١ وحديث الأربما ٣٢٩/١ وكتابتنا
الشعر الغنائى في المدينة ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمة الأحوص وأخباره
الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٤/١ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٢٢٤/٤ وما بعدها ،
٢٥٤/٦ وما بعدها ، ٦٤/٩ وما بعدها وابن

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثرياً، ومن ثمّ كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بني أمية وينال عطاياهم الجزيلة ، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَأَ الأرضَ معروفاً وجوداً وسُوددا
وله مدائح مختلفة في الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه
وزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من
أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوم هجاء قبيحاً . وهو
في غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شيء ، حتى
ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدّر ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصّخر جَلَمَدَا
فالحب الحياة ومن لم يعشق عدوّ من الأموات ، بل من الجماد ، بل من
الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان
فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً في
التصرّيح ، على شاكلة قوله :

تعرّضُ سلماك لما حرم متَ ضلّلاً من مُحرّم^(١)
تريد به البرّ يا ليتَه كفافاً من البرّ والمأثم^(٢)
وأشعاره في أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ،
وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن ، حتى ليُروى أنه أصلاه يوماً سيّاطاً حامية ،
وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

فخرجت غير بار ولا آثم .

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتني تعادل إثمي وبري ،

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فَأُبْهِتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
لَكَ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ مَا وَصَلْتَنِي وَمُثْنِي بِمَا أَوْلَيْتَنِي وَمُثِيبُ
أَبْشُكَ مَا أَلْقَى فِيهِ النَّفْسُ حَاجَةً لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَبيبُ
ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزدد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغولاً
بجميلة المغنية وناديتها المشهور في المدينة ومن كنَّ فيه من الإماماء مثل الذَّلْفَاءِ
وعَقِيلَةَ وسَلَامَةَ القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله
في الذَّلْفَاءِ :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هُمِّي فليدغني من يلومُ
حَبِّبَ الذَّلْفَاءِ عِنْدِي مَنْطَقٌ مِنْهَا رَخِيمُ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ مُسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ^(١)

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبراً به ، فنظم فيها غزلاً كثيراً ،
يصورُ كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتُ ذَاكِرُهَا إِلَّا تَرَقُّقُ مَاءِ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعَا^(٢)
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
وَزَادَنِي كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنَعَا
وهو في هذا الغزل بالإماماء والحواري يختلف عن ابن أبي ربيعة الذي كان
لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النobileات من القرشيات والعرييات . وهو يختلف
عنه أيضاً في بعده في التصريح ، إذ كان لا يتخرج أحياناً من إباحة ، ومن
ثمَّ شكاه أهل المدينة لأبي بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على
البُلس للناس . ولما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال
خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلامة — وقد صارت إليه —
عنده فعفا عنه . ولما رُدَّتْ إليه حريره زار دمشق ، وتغنَّى بيزيد وانتصاراته على
ابن المهلب طويلاً . ويقال إنه توفى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

المرجبي^(١)

لُقِّبَ هذا اللقب لضبيعة له قرب الطائف تسمى العَرَج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالفضل ونَحَا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته في أهله ، وكان مشغولاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدَّ في الفرسان ، ومن ثمَّ اجتذبت حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لسهم . وهو لا يختلف في ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً في أنه كان يسرف في فتوته ، حتى ليخرج إلى شيء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالت رضىتُ ولكن جئتَ في قمرٍ هَلَّا تَلَبَّثْتَ حَتَّى تَدْخُلَ الظُّلُمُ
وقوله :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بسداً صُبْحُ تَلَوِّحِ كَالْأَغْرِ الْأَشْقَرِ
فتلازما عند الفراق صبايةً أَخَذَ الْغَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ^(٢)
وهو لا يقف بمثل هذه المعاني عند نفسه ، بل يرى بها حتى الحواجج الناسكات ، يقول في إحداهن وقد سمرت عن وجه جميل :

أماطت كساء الخز عن حرٍّ وجهها وأدنت على الخدين بُرداً مهلهلاً
من اللاء لم يَخْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً ولكن ليقتلن البريء المغفلاً
ونجده يختلف إلى دار جميلة في المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تنقسم أن لا تدخله منزله لكثرة عبثه وسفهه ، ويسْتَفْع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه في قوله :

والشعر ٢٠/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعماء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه في العراق .
(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن .

(١) انظر في ترجمة المرجبي وأخباره الأغاني (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما يملها ، ١٨٤/٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر

أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْهُوَى كَيْفَ أَحْلَقَا فَلَمْ تُلْفِهِ إِلَّا مَشُوباً مَمْدَقاً^(١)
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ يَسْتَزِيرُ حَبِيبَهُ يَعَاتِبُهُ فِي الْوَدِّ إِلَّا تَفَرَّقَا
 لَقَدْ سَنَّ هَذَا الْحَبُّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا وَقَادَ الصَّبَا الْمَرْءَ الْكَرِيمَ فَأَعْنَقَا^(٢)

وكان يمضى في التغنى بهذا الغزل لا ينجل ولا يستحي من الجموح فيه ،
 إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه في تتبعه للنساء المتروجات
 يتغزل بهن ، كما نراه في ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً
 فإننا نرى هذا العنف في هجائه لمحمد بن هشام الخزومي ، إذ أخذ يتغزل بزوجه
 جبيرة الخزومية وأمه جبيداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى على فسلمى جبرُ فِيمَ الصُّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
 وقوله :

عوجى علينا ربّة الهودج إنك إن لا تفعلى تخرجى
 أيسرُ ما نال محبٌ لدى بين حبيبٍ قوله عرج
 نقض إليكم حاجةً أو نقل هل لى مما بى من مخرج

فلما ولي محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البئس وحبه ،
 وظل في سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار
 إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أضاعونى وأئى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر^(٣)
 ومما يستجاد له قوله :

ارْجِعْ إِلَى خُلُقِكَ الْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ إِنْ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ
 ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجي من محمد بن هشام الخزومي حين
 صارت الخلافة إليه ، إذ لم يرعَ حرمة قرشيته ونسبه في بنى أمية .

ميدانه .

(١) أخلق : بلى . مذكاً : مشوباً ومخلوطاً .

(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد

(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن
 الصبا إذا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى في

الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

شعراء الغزل العذرى

الغزل العذرى غزل نقي طاهر معن في النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عذرة إحدى قبائل قضاعة التي كانت تنزل في وادى القرى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه ، ويروى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العذرى صاحب عفرأ : أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العذرى لهذا العصر عند عذرة وحدها ، فقد شاع في بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة والمدينة ولا ما يُطوى فيها من هو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتدينها بالإسلام الخفيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يَصْلَى الحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغاني من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينى يتغنى بمعشوقته ، متذللاً متضرعاً متوسلاً ، نهى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلاً وراء السحب ، وهو لا يزال يناجها مناجاة شجية ، يصورها وجده الذى ليس بعده وجده وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتغضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكروها في يقظته ويحلم بها في نومه ، وقد يصبح كهلاً أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شاباً في قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرق إليه السلوان ، حتى ليظل يُغشى عليه ، بل حتى ليُسجن أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تحيلوا لسامعهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعرف في جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرم القرآن الكريم والحديث النبوي قتل النفس بغير حق . ولا شك في أن هذا كله قصص لفق الرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طوى فيها من أشعار أشخاصاً لعلمهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التي احتلت في الجزء الثاني من كتاب الأغاني تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعي يقول : « رجلان ما عُرُفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية وإنما وصفهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبي : « حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التي يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقة ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذريح ، يقول أبو الفرج في ترجمته لمجنون بنى عامر نقلاً عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل في ليلي إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح . وقد تُفصَح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصَّ على ذلك القدماء ، وخير ما يمثل ذلك قصة (١) وضَّاح اليمى التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق ، وعرف ذلك زوجها ، فحضر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهبيل عليه التراب وسويت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة ، لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة ، فقد وجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوادي الحجاز ، وكثر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتى غدت لوناً شعبياً عاماً ، ولعل شعبيتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً ، جعلوا منهم أبطالاً ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبه هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى ، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَرِيح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوَة بن حزام العذرى وصاحبته عَقْرَاء ، وقد ترجم له صاحب (٢) الأغاني وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإني لتَعْرِفُنِي لذكراك رِغْدَةً لها بين جلدى والعظام دَبِيبُ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبَا وما أعقبَتْها فى الرياح جَنُوبُ
ومهم الصَّمَّة (٣) القُشَيْرَى ، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رِيَاءً ، وخطبها من أبيها فأثر عليه شاباً موسراً ، فزاد

الشعر والشعراء ٢/٦٠٤ وذيل الأملال ص ١٥٧

والخزاة ١/٥٣٣ .

(٣) ترجمته فى الأغاني (طبع دار الكتب)

٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته الميتية فى

الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

(١) انظرها بترجمته فى الأغاني (طبع دار

الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً

تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٩٥

وحديث الأربعاء ١/٢٩٣ .

(٢) أغاني (سأسى) ١٥٢/٢٠ وانظر

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها ، ثم رأى أن يغزو في طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكرها لا تفارقه حتى قتل في غزوة واسمها على شفثيه ، ومن قوله في عينية له بديعة :

وأذكر أَيَّامَ الْحِمَى ثم أنثنى على كَيْدِي من خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
ومنهم كثيرٌ عَزَّةٌ ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له في شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أنقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبي عَمَّار الجُشَمِي وعروة بن أَذْيَنَة وخبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد^(١) الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَسّ لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سَلَامَة ، فشغف بها ، وشاع ذلك ؛ فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القسّ ، وفيها يقول :

سَلَامٌ هل لي منكمُ ناصرُ أم هل لقلبي عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ
وكان عروة^(٢) من فقهاء المدينة ومحدثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى في غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التي زعمتُ فؤادك ملَّها جُعِلَتْ هواك كما جُعِلَتْ هَوَى لها
فبك الذي زعمتُ بها وكلاكما يُبْدِي لصاحبه الصَّابَةَ كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها بلباقَةٍ فأدقَّها وأجلَّها
منعتُ تحيَّتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

أما ابن^(٣) عَتْبَة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدَّمين في المدينة الذين حُمِل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر في حبه لسلامة الأغاني (طبع دار

الكتب) ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمته الأغاني (طبعة ساسي)

١٠٥/٢١ والشعر والشعراء ٥٦٠/٢ والموضح

ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

الكتب) ١٣٩/٩ وما بعدها وصفة الصفوة

٥٧/٢ وتهذيب التهذيب ونكت الحميان ١٩٧ .

غزل كثير في زوجته عثمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمري لئن شطت بعثمة دارها لقد كدت من وشك الفراق أليح^(١)
أروح بهم ثم أغدو بمثلهم ويحسب أني في الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا في هذا الحب العذري بكاء المعشوقات لمن حرموا
منهن، وماتوا على حبهن ، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلي^(٢) الأخنسيلية
الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتي شاعر شجاع يسمى توبة
ابن الحمير ، وشغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ،
حتى يقول :

ولو أن ليلى الأخنسيلية سلمت على ودوني تربةً وصفائحُ
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح^(٣) .

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل في بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته
ليلى بقصائد كثيرة تصوّر ما أوقده في فؤادها من جذوة الحب ، من مثل
قولها :

أيا عين بكى توبة بن حمير بسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر

وقولها :

وآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فتن رزقاء أو طار طائر
وكل شباب أو جديد إلى بلى وكل امرئ يوماً إلى الله صائر

١١/٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/١٦٦

والأمالى للقالى ١/٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر في ليل الأخنسيلية وأخبارها مع
توبة ترجمتها في الأغاني (طبع دار الكتب)

ويقال إنها ماتت في إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جنبه . وتقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذريح عاشق لبني وجميل عاشق بثينة .

قيس^(١) بن ذريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن في ضواحي المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن علي ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هي كل حياته . وهي قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُروى أنه مر في رحلته بديار لبني الخزاعية ، فرآها ، وقعت في قلبه ووقع في قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن علي ، فتوسط له عند أبيه وأبى لبنتي ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزقا الولد ، وداخلت أم قيس الغيرة من كلف ابنها بلبني . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحِجان عليه بعد شفائه من علته أن يفارقها وصدع لمشيتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قبل أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعَى غُراب قبل رحيلها ، فتشام تشاؤماً شديداً ، ونظم في نعيه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبِنِّي لبني فطار القلبُ من حذر الغرابِ
وقال : غداً تباعدُ دارُ لبني وتنأى بعد وُدِّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُراب وكان الدهرَ سعيك في تَبَابِ

ورحلت لبنتي ، فاضطربت جذوة الحب في نفس قيس اضطراباً ، ووجد بلبنتي وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول في غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلِّى بلُبْنَى بلاء ما أَسِغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبْنَى عَيْتُ فما أَطِيق له جوابا

وقوله :

ولانى لأهوى النومَ فى غير حِينِهِ لعل لقاء فى المنام يكونُ
تحدثنى الأحلامُ أنى أراكمُ فيا ليت أحلام المنام يقين
وكانت لبني تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنأ لها عيش ، وتبكي مصيرها
ومصيره . ويُرَوَّى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس
فى غراب البَيْن ، وأخذت تبتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل
قولها :

ألا يا غُرابَ البَيْن لوكُ شاحبُ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ كما ليس لى من ظالمى نصير
ولما أضنى الحب قيساً رَقَّ له بعض رفاقه ، فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار
لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فضى معهم وهو ينشد :

لقد عذبتنى يا حبَّ لىلى فقَعَّ إما بموتٍ أو حياةٍ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ
وقعت عينه عليها ، فخر مغشياً عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق
من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج وراها هناك ، فعادوه
فُتُونَهُ ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت
تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلق روى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً فى المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا متنا بمنصَرِمِ المَهْدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادث وزائرنا فى ظلمة التبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبتة .
 وتمضى القصة فترعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها
 مخايل صاحبتة ، فترجها ، ولكن حنينه إلى صاحبتة الأولى عاوده ، وكأنما لم
 يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وترعم القصة أيضاً أن أباها شكاه
 إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ،
 ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أننى له ؟ لقد أمضه الغرام ،
 ومضى إلى ديار قومها فوجدوها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ،
 وبكى أحراً بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا ونُبصرَ قرْنِ الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل فى الحَيِّ تلتقى ونعلم أنا بالنهار نَقِيلُ^(١)
 وتجمعنا الأرضُ القَرَارُ وفوقنا سماءُ نرى فيها النجومَ تجول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته
 تمنع فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ومن حُرْقٍ تعتادنى وزفيرِ
 ومن ألمٍ للحب فى باطن الحشما وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ
 وقوله :

وبين الحشما والنَّحر منى حرارةُ ولوعةٌ وَجَدٍ تترك القلبَ ساهيا
 تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى ولوعى بها يزداد إلا تهاديا
 وقوله :

ألا لبت أياماً مَصِينِ تعودُ فإن عُدُن يوماً إننى لسعيدُ

(١) نقييل : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبه ، حتى رأى رضيعه الحسين بن علي ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبي في شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئهم راضياً ، فعادت لبي إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكبَّ على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلاً إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

جميل^(١) بن مَعْمَر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ في منازل عُدْرَة بوادي القُرَى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقي ابن أبي ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببني أمية كثيراً ، ففي أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثير عَزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفي أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدْبة بن الحَشْرَم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التي كانت تُعْنَى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحزین الكنانی .

نحن إذ نأمن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما عُنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهي أشعار يمضي جمهورها في التغني ببشينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحاباً صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حباً انتهى به إلى الهيام بها ، وعرفت ذلك ففتحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقي به حين شباً في غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيَّقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقي بَرىء ،

وحديث الأربعماء ٢٤٩/١ ، ٢٨٧ . وطبع ديوانه بشير يموت في بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر في بعض قصائده الآمال ٨٧/٢ ، ٣٠٣ .

(١) انظر في جميل وأخباره وأشعاره الأغاني (طبع دار الكتب) ٩٠/٨ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ٤٠٠/١ وما بعدها والخزانة ١٩٠/١ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/٣٩٥

وأخذت الألسنة في الحى لا تكفُّ عن التعريض بالمتحايين ، فهجرت ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

ولمى لأرضى من بُشِينَةٍ بالذى لو أبصره الواسى لقرت بِلَابِلُهُ (١)
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى وأخسرهُ لا نلتقى وأوائله
وكانت تلمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتشرق الدنيا في عينه ،
ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردّه ، لكراهة العرب أن يزوجوا
فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتي في
القبيلة يسمى بُبَيْسَه ، فتسود الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح
حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ،
يقول :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى
خليلى فبما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبل
فلا تقتليني يا بُشَيْنُ فلم أصب من الأمر ما فيه يحل لكم قتلى
ويقول :

لها في سواد القلب بالحب مِيعَةٌ هى الموت أو كادت على الموت تُشرفُ (٢)
وما ذكرتك الذنفس يا بشن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
ولم اعترتنى زفرة واستكانة وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يذرفُ (٣)
وما استطرفت نفسى حديثاً لخلّة أسرُ به إلا حديثك أطرف
ويعضى يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتنبه في بعض الأحيان
أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشق به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوسواس . قرت : سكنت .

(٢) يقصد بالمِيعَة حرارة الحب وقوته .

(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملاً من الجهد في عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضي الأعوام وصبرته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكرها لا تبرح مخيلته ، بل تعيش في قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يُودعها عبادته على شاكلة قوله .

ألا ليت شعري هل أبين ليلة
وهل ألقين فرداً بشينة مرة
علقته الهوى منها وليداً فلم يزل
وأفنيته عمري في انتظار نوالها
إذا قلت ما بي يابشينة قاتلي
وإن قلت ردى بعض عقلي أعش به
فلا أنا مردود بما جئت طالباً
بموت الهوى مني إذا ما لقيتها
بوادى القرى إني إذن لسعيد
تجود لنا من ودّها ونجود
إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأبليت فيها الدهر وهو جديد
من الحب قالت ثابت ويزيد
مع الناس قالت ذاك منك بعيد
ولا حبها فيما يبيد يبيد
ويحيا إذا فارقتها فيعود

وشعر جميل كله في بشينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بشينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به

شعراء الزهد

تردد في القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، ودعى دعوة تحل في تضاعيفها الحث على التموى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أوده . ويعدّه للكفاح في سبيل الله ، ومن ثم كان زهد

الإسلام لا يعنى الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، وُروى أن رجلاً جاءه فقال : يا رسول الله دُلّنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وزهد فيما عند الناس يحبك الناس ^(١) » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفّة ^(٢) المسجد منزلاً لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثريين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آى الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثير من أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلى لربه . وفى ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس ^(٣) .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضياع وشيدوا القصور ، وهم فى ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم فى كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت فى كل بلد أقاموا فيه جماعات القراء الأتقياء : بالإضافة إلى من كان منهم يعيش فى مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقى فيه بهؤلاء النُسّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر فى ذلك ، وكأنّ قوماً انصرفوا عن الفنّ ، خشية على أنفسهم من التورط فى الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركهم وديارهم ، ومضوا يتعبّدون ، وكان الخوارج فى

(١) انظر فى هذا الحديث رقم ٣١ فى الأربعين
النوعية والبيان والتبيين ١٦٦/٣ .
(٢) الصفة : وضع مظلل من المسجد .
(٣) انظر فى ذلك كتابنا التطور والتجديد فى
الشعر الأموى ص ٦١ وما بعدها .

جعلتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلَّت في اجتهادها وما زعمته من كفر
 الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تفضل يوماً في تقواها .
 لذلك كله عمت في العراق موجة واسعة من التقوى والزهد في الدنيا ونعيمها
 المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل في تنايا هذا الزهد
 تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل في الإسلام من الموالى
 والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه
 وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهاال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق .
 وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس
 وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم . زهى لذلك مائى تحدثهم
 — مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله في خلقه السموات والأرض ، وعن
 الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ
 وهو في وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى وكأنه يشاهدها بين عينيه ،
 ويحض حضاً قوياً على الزهد في الدنيا وحطّامها . وكان هو وغيره من الوعاظ
 لا يزالون يستشهدون في وعظهم بأشعار لبييد والنابعة الجععدى وغيرهما تلك التى
 تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة
 تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً في نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون
 إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته
 الروحية في الشعراء ، كما مرّت بنا في مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار
 زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم
 العجلى والعجاج يبدؤون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول
 الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية
 وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته (١) :

يَا رَبُّ قَدْ أَشْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً لقد أخصيت آثارى
 يامخرج الروح من جسمي إذا احتضرت وفارج الكرب زحزحني عن النار

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج)

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا في أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التي يدعو إليها الإسلام .
وأول من نقف عنده عروة بن أَذْيَنَةَ فقيه المدينة الذي رُوِيَ له - كما أسلفنا - مقطوعات في الغزل العفيف ، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد في هذا العصر ، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة في أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه ، وبيع من مبالغة بعضهم في هذا المبدأ أن رأوا في السعي والكد نقصاً في التوكل والثقة بربهم . ولا شك في أن هذا المبدأ يفضي إلى طمانينة نفسية قوية ، كما يفضي إلى طرح الدنيا طرحاً تاماً ، وفي تقريره يقول عروة :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقٍ أن الذي هو رزقي سوف يَأْنِي
أَسْعَى له فيعْنِي تَطْلُبُهُ ولو قعدتُ أَتَانِي لا يُعْنِي
خِيمي كريمٌ ونفسي لا تحدثنِي إن الإلهَ بلا رزقٍ يخْشِي
ومن اشتهروا بكثرة أشعارهم في الزهد عبد الله بن عبد الأعلى ، ويظهر أنه كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام ، إذ نرى من كتبوا عنه يهتمونه في دينه ، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة ^(١) ، وهو من أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله :

يا وَيَحَ هَذِي الْأَرْضُ ما تَصْنَعُ أَكَلَّ حَيٌّ فَوْقَهَا تَصْرَعُ
تَزْرَعُهُمْ حَتَّى إِذَا ما أَتَوْا عَادَتْ لَهُمْ تَحْصِدُ ما تَزْرَعُ
وقوله :

مَنْ كَانَ حِينَ تُصِيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ أَوْ الْغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنَ وَالشَّعَثَا
وَيَأْلَفُ الظَّلَّ كَي تَبْقَى بَشَاشَتُهُ فسوف يسكن يوماً رَاغِمًا جَدَثَا ^(٢)

في تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضيء أصحابها بما جاء في الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة ، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ (٢) الجدل : القبر .

وما بعدها وانظر أمالي القالي ٢/٣٢٣ .

الدعوة مسكين ^(١) الدارمي القائل :

وُسِّمْتُ مِسْكِينًا وَكَانَتْ لِحَاجَةٍ وَإِنِّي لِمُسْكِينٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ،
ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً
أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد في كتب
الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قد رله ، وأن الله لا بد أن يكشف
غمته :

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَأَكْرَهَهُ إِلَّا سَيَجْعَلُ لِي مِنْ بَعْدِهِ فَرْجًا
ومن مستحسن شعره قوله :

وَلَيْسْتُ إِذَا مَا سَرَّنِي الدَّهْرُ ضَاحِكًا وَلَا خَاشِعًا مَا عَشْتُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ
أَعِفُّ لَدَى عُسْرِي وَأُبْدِي تَجَمُّلاً وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَعِفُّ لَدَى الْعُسْرِ
وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي إِذَا كُنْتُ مُعْسِرًا صَدِيقِي وَإِخْوَانِي بَأَن يَعْلَمُوا فَقْرِي
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْلَمُ مَكَانَ صَدِيقِهِ وَمَنْ يَغْنَى لَا يَعْلَمُ بِلَاءَ مَنْ الدَّهْرِ
وهو القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنْ مِنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحٍ
وله أشعار طريفة في الغيرة ^(٢) وأن على الزوج أن لا يبالي في آتاهم زوجته ،
حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبية
القبلية في فخره بخصاله ؛ وقد مر بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه
في ذلك من شعر . وهو في الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ،
إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها في إشارات
بشيء ، ونحن نتركه إلى أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري .

المرتضى ٤٧٢/١ وابن عساكر ٣٠٠/٥ .

(٢) أمالي المرتضى ٤٧٥/١ وما بعدها .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (سأى)

٦٨/١٨ والشعر والشعراء ٥٢٩/١ ، والخزانة

١١٦/٢ ومعجم الأدباء ١٢٦/١١ وأمالى

أبو الأسود الدؤلي (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بني كنانة ، ولى قضاء البصرة في ولاية عبد الله بن عباس عليها لعل بن أبي طالب ، ولما خرج على إلى العراق لزمه في حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشييعه لآل البيت . وهو أول من وضع النقط في المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدُّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم . وله مدائح وأهاج في معاصريه وأشعار في أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلاً شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقياً صالحاً ، وله أشعار كثيرة في الزهد من مثل قوله :

ولما طلبت من الحوائج حاجةً فاذعُ الإله وأحسن الأعمالا
فليعطيك ما أراد بقُدرةٍ فهو اللطيف لما أراد فعلا
ودع العباد ولا تكن بطلابهم لهجاً تضعضُع للعباد سؤالا^(٢)
إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال
وهو في زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعي في الدنيا والمشى في
مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألقِ دُلُوكَ في الدلاء
تَجِنِّك بملشها يوماً ويوماً تَجِنِّك بِحَمَاةٍ وقليلِ ماءٍ^(٣)
ولا تقعد على كسلٍ تمنى تحيل على المقادير والقضاء

على أنباء النحاة ١٣/١ وتاريخ دمشق لابن
سأكر ١٠٤/٧ ومعجم الشعراء للمرزباني
ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيل
ببغداد .

(٢) تضعضع : تذلل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار
الكتب) ٢٩٧/١٢ والشعر والشعراء ٧٠٧/٢
وأخبار النعمان البصريين ص ١٣ وطبقات
ابن سعد ج ٧ ص ٧٠ وأسد الغابة ٦٩/٣
والإصابة ٣٠٤/٢ والخزانة ١٣٦/١ وروضات
الحنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزري
٣٤٥/١ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباء الرواة

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الرضا به . العلم الديني والعمل ، فالعلم
إن لم يُقَرَّن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان هواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد
ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عهدٍ
ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر
الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرء مالا ثم يُحرِّمهُ عمَّا قليلٍ فيلقى الذلَّ والحرباً^(١)
وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذرُ منه الفتورَ والسلبا
وتوفي أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول
الأول هو الصحيح .

سابق^(٢) البربري

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان
قاضي الرقة بالموصل وإمام مسجدتها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز
يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف
والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء اللذين يعيشون
لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنٌ
وتجمعُ ما لا تأكل الدهرُ دائباً كأنك في الدنيا لغيرك خازنٌ
ويقول :

أموالنا لدوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نَبْنِيها
والنفس تكلفُ بالدنيا وقد علمتُ أن السلامة منها ترك ما فيها

٣٨/٦ والخزانة ١٦٤/٤ والبيان والتبيين

٢٠٦/١ والمبرد ص ٢٥٣ .

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر في سابق تاريخ ابن عساکر

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغي لكل إنسان أن يعدَّ العُدَّةَ للرحيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحاً ، ومن قوله في ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زایلَ روحه خوى وجمالُ البيتِ يانفسُ آهله
وقد كان فيه الروح حيناً يزيّنه وما الغمْدُ لولا نَصْلُهُ وحمائله
إذا الأرضُ خَفَّتْ بعد ثِقَلِ جبالها وخلقُ سبيلِ البحرِيا نفسُ ساحله
فلا يرتجى عَوْناً على حَمَلِ وِزْرِه مُسِيءٌ وأولى الناس بالوِزْرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَعْنَدَ، عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك في أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفعه فلا تَجْزَعَا مما قضى الله واضبراً

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفروقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شئ إلى شئ لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا في غير هذا الموضع كيف تحضر العرب في هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أترفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون . وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد في العصر كان لها آثار عميقة في

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد في الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد في عقابها حين وجد بعض المسلمين يقتربونها من مثل أبي مخجن الثقفي ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة وإلى الكوفة لعمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبي مخجن في عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضي في عصر بني أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملت من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أترفت ، وتحضر العرب الذين خرجوا في الفتوح واستقروا في البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع في الاستمتاع بالحياة ، وبالعنف في هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا في العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة في البيئات البعيدة التي رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيثة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطرّ حين وجد تفشي الخمر في جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر في كل البيئات ، فنحن نجد لها في مكة ^(١) والمدينة ^(٢) حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين نهلوا من كنوسها في هذه البيئة لعهد معاوية بن أخطاة ^(٣) ، وعبثا حاول مروان بن الحكم إلى المدينة أن يردّه عنها ، وفيها يقول :

إِنَّا لَنَشْرِبُهَا حَتَّى تَمِيلَ بِنَا كَمَا تَمِيلُ وَسَنَانُ بَوَسْنَانِ
ومنهم عبد الرحمن بن الحكم ^(٤) الذي كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

(١) انظر كتابنا الشعر الغنائي في مكة ص ٥٠ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب) (٤) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)

(٣) انظر كتابنا الشعر الغنائي في المدينة ص ٤٩ وما بعدها .

(٤) وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٣/٣٤٨ .

(٣) راجع في ابن أخطاة الأغاني (طبع دار

تري شاربِئِها حين يَعتورانها يَميلان أحياناً ويعتدلان
ومن كانوا يحتسونها في هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميادة^(١) مَدَح الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضري الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتقٍ حُرِّمِ الوَقُودَ كرامةً كدم الذَّبِيحِ تمجُّهُ أَوْداجُهُ^(٢)
ضمنَ الكرومُ له أوائلَ حَمَلِهِ وعلى الدُّنانِ تمامُهُ ونِيتاجُهُ^(٣)
ومثله ابن هرمة^(٤) ، وكان مشغولاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أَسْأَلُ اللهَ سَكْرَةً قبلَ مَوْتِي وصياحَ الصَّبَّيانِ يا سَكْرانُ
وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر في غير
حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حملتهم من الخطوب باعثاً لهم
على المجون ، حتى ينسوا به عنائهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقبته
لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَّيم^(٥) بن وثيل الرياحي التميمي ،
وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقبته لغالب
أبي الفرزدق التي مرت بنا ، والتي مضى فيها ينافسه في نحر إبله لقومه ،
ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حذراً تراجمه وتكثر من
مراجعته ، فقال :

تقول حذراء ليس فيك سوى ذا خَمَرٍ معيبٌ يعيُّهُ أَحَدُ
فقلت: أخطأتِ بل مُعاقِرُي ذا خَمَرٍ وبَدَلِي فيها الذي أَجَدُ

(٤) راجع في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٣٦٧/٤ والشعر والشعراء ٧٢٩/٢ والخزانة
٢٠٣/١ والموشع ص ٢٢٣ .

(٥) انظر في ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩
والإصابة ١٦٤/٣ والخزانة ١٢٣/١ والشعر
والشعراء ٦٢٦/٢ .

(١) انظر في ترجمته أغاني (دار الكتب)
٢٦١/٢ والشعر والشعراء ٧٤٧/٢ والخزانة
٧٦/١ والبيان والتبيين ٣/٣٤٤ .

(٢) المعتق : الشراب القديم . حرم الوقود : لم
يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق
في العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حملهِ .

هو الشناء الذي سمعت به لا سبَدٌ مُخلدٌ ولا لَبَدٌ^(١)
ويحك لولا الخمور لم أحفِلِ الـ عيش ولا أن بضئى لحد^(٢)
هي انخيا والحياة واللَّهُو لا أنت ولا ثروة ولا وَلَدٌ
ويقف انسراق الذُّهْنِ إلى هذا الموقف نفسه من ابنته . فيعلن أنه لن يكف
عنها : إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه^(٣) . ويلقانا في عهد زياد بن
أبيه حارثة^(٤) بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه ، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله
فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج في ترجمته يباهر فيها بأنه لن يكف عنها ،
مهما أكثر لاثموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ على الرَّاحِ من نو يذوقها لجنُّ بها حتى يغيب في القبرِ
علامَ ندمِ الرَّاحِ والرَّاحِ كاسمها تُريح الفتى من همِّه آخرَ الدهر
فلَمُنِي فَإِنَّ اللوم فيها يزيدني غراماً بها إن اللامة قد تُغري
وكان يذهب مذهبه في الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفي
وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج في ترجمته^(٥) . ولعل
عراقياً لم يشتهر بها كما اشتهر الأقيشر^(٦) الأسدي وكان كوفياً خليعاً ماجناً ،
وفيها يقول :

أَفَنِي تِلْدَادِي وما جمعتُ من نَشْبِ
قَرَعُ القَوَاقِيزِ أَفَوَاةَ الأَبَارِيقِ^(٧)

ويقول :

كُمَيْتٌ إِذَا فُضِّتْ فِي الكَأْسِ وَرَدَةٌ
لها في عظام الساربين دبيبُ

ص ٢٦١ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء
٧٥٦/٢

(٦) انظر في ترجمة الأقيشر أغاني (دار الكتب)

٢٥١/١١ والشعر والشعراء ٥٤١/٢ ومعجم

الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢٧٩/٢ والموشح

ص ٢٢١ .

(٧) التلاد : المال المدم . النشب : العقار

والضياع . القواقيز : الكنوس وأواني الخمر التي

تُشرب فيها .

(١) لا سبَد ولا لَبَد : مثل أي لا قليل

ولا كثير .

(٢) اللحد : شق الميت في جانب القبر .

(٣) الشعر والشعراء ٦٧٠/٢ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني (طبع الساسي)

١٣/٢١ وأمالى المرتضى ٣٨٠/١ وما بعدها

وراجع فهرس الكامل للمبرد والبيان والتبيين

والطبرى .

(٥) انظر ترجمته في الأغاني (ساسي)

٤٠/١٦ والخزانة ٤٨٥/٢ ومعجم الشعراء

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم في الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان في المحن والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب . ويسرّوى البلاذري أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا في جيش الحجاج الذي وجهه إلى الديلم ، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم : فدفعه صاحبه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثاني فدفعه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء^(١) . ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمرْدَل^(٢) بن شَرِيك ، وكان قد خرج للغزو في تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدَةَ اليشكري الذي سبق أن عرضنا له في شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمِنُها إدماناً ثم تاب عنها ، فقال^(٣) :

سَأَرْكُضُ فِي التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْعَوَى الْمَشْهُرِّ

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المحن في خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحمام الراوية وحمام عَجَرْد وبيحي بن زياد ، وهم جميعاً ممن عاشوا في الدولتين الأموية والعباسية ، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسي منهم بالعصر الأموي ، ولذلك رأينا أن تؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا في قوة إلى تهالك الناس على المحن في الكوفة في أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلق على الأقل عند بعض الأفراد في هذا العصر أن بعض خلفاء بني أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم في ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذي أكبَّ على الخمر والمجون لإكباباً ، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندي شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

٦٨٥ / ٢ الشعراء والشعر ٣٥١ / ١٣ يوماً بعدها

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته في أغاني (دار الكتب) (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٣٠ / ١١ .

الوليد^(١) بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك في سنة ٨٨ هـ الهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترّف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمّر والغناء ، حتى في خلافته ، إذ كان يستقدم مغنّى مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلامة القس وحبّابة ، وانصرف عن شؤون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقصف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف في المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذي خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّي سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرق الأردن مقصفاً كبيراً للخمّر والعزف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً في مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبّ من كنوس المجون عبّاً ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتـ بن عمه يزيد بن الوليد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ توارزه اليمانية ثاراً لخالد القسرى وما كان من تعذيبه له وقتله

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، وما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمّر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقنص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل في نفس الجلو الماجن ، الذي كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة ، ومن ثم آثر قصره ببادية شرق الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا في غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما في ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

٣١٨ وحديث الأربعاء ١/٦٩١ وقد نشر ديوانه في مطبوعات المجمع العلمي " ربّ مشق .

(١) انظر في ترجمة الوليد أغاني (دار الكتب)

١/٧ وما بعدها والطبري في سنتي ١٢٥ و ١٢٦

وكتابتنا التطور والتجديد في الشعر الأموي من

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأنبياء .

وينبغي أن لا نغضى مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانوياً زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً^(١) ، وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان^(٢) . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشنيع على خلفاء بني أمية . وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرم الله ومن شرب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر ، وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخد في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظِم فيها قديماً ، وخاصة عند عيسى^(٣) بن زيد العبادي ، وقد مضى ينميه ويصيف إليه من مواهبه وساعره وملكاته ما أتاح لفن الخمریات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند ندى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنظَّم في مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية . تنبض بالحياة وتحقق بالخلد والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وتأنما تفجر له ينابيع الفرح تفجيراً . وقرأ له هذه الحميرية :

اضدغ نجى الهموم بالطرب	وانعم على الدهر بابتة العنب
واستقبل الحش في غضارته	لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادماً	فهى عجزو تعلو على الحقب

(١) راجع الأغاني ٧/٤٠ وما بعدها ، ٧٢/٧ . (٢) انظر الأغاني ٧/٦٥ .

(٣) انظر الطبري ٥٠٥١ .

أشهى إلى الشرب يومَ جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلّت ورقٌ جوهرها حتى تبدّت في منظرٍ عجب
كانها في زجاجها قبسٌ تذكو ضياء في عينٍ مُرتقب

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب
المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرّة .
واقرأ أيضاً هذه الحمرة :

علّاني واسقياني من شرابٍ أضحى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب القيروان
إن في الكأسِ لِمسكا أو بكفى من سقاني
أو لقد عُودِرَ فيها حين صُبّت في الدنان
كلّاني توجّاني وبشغري غنياني
إنما الكأسُ ربيعٌ يُتعاطى بالبنان
وحُمياً الكأسُ دبّت بين رجلٍ ولساني

وهى تجرى أيضاً في نطاق الفرحة العميقة بالخمير ، بل لعلها أقوى
من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى في رأيه عطر الوجود بل ربيعها ، وهو يتلظى
بنشوتها التى تسرى في جسده من فبرّعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين
من أمثال أبى نواس في هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً
فقال أبو الفرج : « وللوليد في ذكر الخمر وصفها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه
سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره » .

ولم تستم الحمرة عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى
يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم
بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ،
يحسن اللعب على أوتار العידان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة في بعض أشعاره^(١) . ومن ثمّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والحزوءة من مثل التهجّج والرّمْل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتث : فكان أول من نظم فيه^(٢) . وإذا صحت الخطبة الشعرية التي يقال إنه خطب بها في يوم جمعة — وهي موعظة^(٣) طويلة — كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التي شاعت بين أصحاب الشعر التعليمي في العصر العباسي .

أبو الهندي^(٤)

هو غالب بن عبد القدوس بن شيب بن رُبْعَى الرياحي التميمي . وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بني العباس ومات في خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن في أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتُها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُفْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربي إلى تمثيل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقله ، حتى لئزى إسحق الموصلي يقول إن معاني أبي نواس وطبقته في الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفان وطبقهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معانيه » . وله في مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبي نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(٤) انظر في ترجمته أغاني (ساسي) ١٧٧/٢١

والشعر والشعراء ٦٦٣/٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

(١) الأغاني ٢٧٤/٩ و ٣٢/٧ ، ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي

(طبع دار المعارف) ص ٥٩ .

(٣) الأغاني ٥٧/٧ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا
وانتبه ، فزأهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرعون من الخمر ، فشرب ،
حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ،
يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم في بعض شعره . إنه يعيش
للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سقاتها ودنانها وأباريقها وزقاقها مثل قوله :
يَمِجُّ سُلَافًا مِنْ زِقَاقٍ كَأَنَّهَا شَبُوحُ بَنِي حَامٍ تَحَنَّتْ ظَهْرَهَا
وقوله :

وَإِذَا صُبَّتْ لَشَرْبٍ خِلَتَهَا حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ
ونراه يصف القيان اللأئي يسمعن في أثناء شربها ، كما يصف من تصرعهم
وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينة ، بل فرحته ومسرته
حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره في قبره ، فلا تزايله حياً ولا ميتاً ، يقول :
اجعلوا - إن متُّ يوماً - كَفْنِي وَرَقَ الْكَرْمِ وَقَبْرِي مَعْصَرَةً
وَادْفِنُونِي وَادْفِنُوا الرَّاحَ مَعِيَ واجعلوا الأقداح حول المقبره
وعلى هذا النحو مضى أبو الهندي في سكة الحسران إلى الأنفاس الأخيرة
من حياته ، يَصْدَحُ بنغمياته ، ويتخذ الخمر وحي إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير في نفسية
الشاعر العربي ، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يَصْدُرُون عنها في أشعارهم ، فلم
يركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها دون أن يرسموها في أشعارهم ، فهم
يصورون فلكواتها بكثبانها ورمالها وغدُرانها وغيشها وسيولها وخصبها وجندبها
ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض
مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموي - على سُنَّة آبائهم - يستلهمون صحراءهم ،
مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً
مطولاته بوصف أطلال الديار التي قضى بها شبابه مع بعض صواحيبه ،
ويسترسل في الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته
في الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التي يُسهب في وصفها لما لها
من جمال في نفسه ، كما يُسهب في وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو في
ثنائها ذلك يحدِّثنا عن كل ما تقع عليه عينه في صحرائه ويخلف أثراً في ذهنه من
طير وحيوان في الأرض ونجوم وكواكب في السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش في بيئات متحضرة ،
فإن الصحراء لم تجفَّ ينابيعها في نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول
في أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزينهم من أمثال الفرزدق والأخطل
وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء
ونَهْشِير دُجَيْل وما يجري فيه من سفن ، موازنة يُعَلِّى فيها الطبيعة الأولى علواً
كبيراً ، يقول (١) :

لَفْدَجٌ وَصَحْرَاوَاهُ لَوْ سَرْتُ فِيهِمَا	أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دُجَيْلٍ وَأَفْضَلُ (٢)
وَرَا حِلَّةٍ قَدْ عَوَّدُونِي رَكُوبَهَا	وَمَا كُنْتُ رَكَّاباً لَهَا حِينَ تُرْحَلُ (٣)
قَوَائِمُهَا أَيْدَى الرِّجَالِ إِذَا انْتَحَتْ	وَتَحْمِلُ مَنْ فِيهَا قُعُودًا وَتُحْمَلُ (٤)
إِذَا مَا نَلَقْتَهَا الْأَوَادِي شَقَّهَا	لَهَا جُوجُؤٌ لَا يَسْتَرِيحُ وَكَلْكَلُ (٥)
إِذَا رَفَعُوا فِيهَا الشَّرَاعَ كَأَنَّهَا	قَلُوصُ نَعَامٍ أَوْ ظَلِيمٌ شَمَرْدَلُ (٦)

وواضح أنه يُؤثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة
وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس في رحلات نهريّة ممتعة . وهو يعبر بذلك

-
- (١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة
وحمي ضربة . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهبأ للرحيل .
(٤) القوائم هنا : الهاذيف بأيدي الملاحين .
(٥) الأواذي : الأمواج . الجوجؤ : بطن
السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
(٦) قلووص النعام : طويلة القوائم ، الظليم :
ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَنْ حوله من الشعراء الذين فُتِنُوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرِّجَّاز . أمثال رُوْبَة الذى يقول (١) :

إِنْ الرُّدَافِى وَالكَرِىُّ الْأَرْقَبَا يَكْفِيكَ دَرَّةُ الْفِيلِ حَتَّى تَرْكَبَا^(٢)
فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة في شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج ، يقول (٣) :

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَنْشُورٍ^(٤)
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى ، وَأَرْحُلُنَا عَلَى زَوَاحِفٍ نَزْجِيهَا مُحَاسِيرٍ^(٥)
وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صور فيها نُهَيَّرَاتٌ شَقَقَهَا هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ نَهْرِ الْفَرَاتِ ، وخاصة نَهِيرِ الْهِنَاءِ ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تَطَرَّدُ على هذا النمط (٦) :

شَقَقْتَ مِنَ الْفَرَاتِ مَبَارِكَاتٍ جَوَارِيَّ قَدْ بَلَغْنَ كَمَا تَرِيدُ
وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَكُنَّ خُرْسًا يَقْطَعُ فِي مَنَاكِبِهَا الْحَدِيدُ

(٤) شَمَالُ الشَّامِ : رِيحُ شِمَالِيَّةٍ . الْحَاصِبُ :

مَا تَحْمِلُهُ الرِّيحُ مِنْ دِفَاقِ التُّرَابِ أَوْ التَّلْجِ .

النَدِيفُ : نَثِيرُ التَّلْجِ وَالْبَرَدِ .

(٥) نَزْجِيهَا : نَسُقِيهَا وَنُدْفَعُهَا ، مُحَاسِيرٍ : كَلِيلَةٌ .

(٦) دِيْوَانُ جَرِيرٍ (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

(١) الحيوان ٩٠/٧ .

(٢) الرِّدَافِى : الْحَادِى . الْكَرِىُّ : الَّذِى

يَكْرِى دَابَّتَهُ وَيُزْجِرُهَا . وَالْأَرْقَبُ : غَلِيظُ الرِّقْبَةِ .

دَرَّةُ الْفِيلِ : دَفْعُهُ وَكَفُّهُ .

(٣) لِلدِّيْوَانِ ص ٢٦٢ .

بلغت من الهنيء فقلت شكرا هناك ، وسهل الجبل الصلود^(١)
 بها الزيتون في غللي وبالت عناقيد الكروم فهن سود^(٢)
 فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
 يعضون الأنامل أن رأوها بساتينا يؤازرها الحصيد^(٣)
 ومن أزواج فاكهة ونخل يكون لحمله طلع نصيد^(٤)

وجريير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات في الجبال وتحطيم ما يعترض من
 الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية في تلك البيئة وما حفا بها من
 أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

.. فالشاعر الأموي مع استغراق مناظر الصحراء له لم يغمض عينيه عن مناظر
 البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من
 كانوا يلهمجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك في حديثنا عن
 الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رؤبة
 يصفه^(٥) :

أجرّد كالحصن طويل النابيين مشرف اللحي صغير الفقمين^(٦)
 عليه أذنان كفضل الثوبين

واشتهر في هذا المجال هرون مولى الأزدي^(٧) . فالطبيعة الجديدة المتحركة
 والصامته ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن يبيتهم الصحراوية
 كانت ملهمهم الأول في هذا العصر .

(٤) الطلع : ثمر النخل في إبانته . نصيد : منتظم .

(٥) الحيوان ٧٩/٧ .

(٦) الفقهاء : اللحيان .

(٧) الحيوان ١١٤/٧ وما بعدها .

(١) الصلود : اليابس .

(٢) الغلل : الماء الجاري تحت الشجر على

وجه الأرض . الكروم : الأعناب .

(٣) الحصيد : الزروع التي تحصد ثمارها

كالقمع .

ذو الرُّمَّة (١)

هو غَيْلَان بن عقبة من بنى عدى بن عَبْد مَنَاة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله في بعض شعره يصف الوَتِدَ : « أشعث باق رُمَّة التقليد » والرُّمَّة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّبَ بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفرَّع ، فأنت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له مَعَاذَة في جلد غليظ ، وعلَّقَها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمَّى ذا الرمة . وقيل إن مية التي شغفت قلبه حبَّاهى التي لُقِّبَته بذلك حين أَلَمَّ بحبَّائها وطلب منها أن تَسْقِيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لاتعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلِدَ بصحرَاء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء ، هم مسعود وأوفى وهشام ، وفي بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس . وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقَّى الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر في خلاف نشب بين قبيلته وعتية بن طَرَثُوث بسبب بثر كانت لقومه ، ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة في هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مَنَاة : فلم يكرمواهم ، فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً في اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المَرْتِي ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدَّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان يتزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطلع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاًتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد في الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارثى ديوانه في كبرىيدج سنة ١٩١٩

(١) انظر في ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٠٦/١ وأغاني (ساسى) ١٠٦/١٦ وابن خلكان في غيلان والموشع للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ٥٠/١ ومروءة الجنان للياقبى ٢٥٣/١ وفهارس الأغاني

لهلال بين أحوز المازني في انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقي منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق في سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزاري فاتصل به ومدحه ، حتى إذا خلفه خالد القسري منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام ، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البجلي ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبي بريدة الأشعري الذي ولي شئون الشرطة لخالد في البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولي منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفي الشاعر . وقد امتدت رحلاته في طلب النوال إلى دمشق وخاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومي ، ولما ولي فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا في بعض شعره حكيم بن عياش الكلبي الكوفي الذي كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة في شعر ذي الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر في رحلاته الصحراوية التيمم والقصر في الصلاة وتلاوة آي الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعظ والمتكلمين في عصره ، حتى لئراه يعتنق مذهب القدرية في العدل على الله جل جلاله وفي حرية الإرادة ، ويناقش رؤية في ذلك ويعلو عليه في نقاشه^(١) ، وما صدر فيه عن مذهبه قوله في الغزل :

وعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كَوْنَا فَكَانَتَا
فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العدل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاءً حاداً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد سُخِفَ بشعر الراعي ، حتى قالوا إنه كان راويته

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى
يتغناها إلى أن دُفِنَ في أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف في المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق
وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقِيا فيه بقية . ومُلْهِمته الأولى
في الديوان مَيَّة بنت طُلُبَّة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها في بعض رحلاته ، فشغفت
قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها في كل مكان . وفي الديوان أخرى تسمى
خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة
أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ
من مثل قوله :

وقفتُ على رُبْعٍ لَمِيَّةٍ ناقتي فمازلتُ أبكي عنده وأخاطبه
وأُسْقِيه حتى كاد مما أبشُهُ تكلمنى أحجارُهُ وملاعبه (١)

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعداً كأنها النار تحبُّو ثم تلتهب

وقوله :

أداراً بِحُزْوَى هِجَتِ للعَيْنِ عِبرَةً فمَاءُ الهوى يرفضُ أو يترقرقُ (٢)

وقوله :

أَجَلْ عِبرَةً كادتُ لِغِرْفانِ مَنْزِلِ لَمِيَّةٍ لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبِجُ

ولعل شاعراً عربياً لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً
كان يظنُّ بها نيران الحب المتدلعة في قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بمحارباها
الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقاً
كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها
وليلاتها ورمالها وكتبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعوه بالسقيا . يسيل . يترقرق : يسكن في العين جانلاً .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض :

وكل ما يُطَوَّى فيها من آبار وسنّام وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع في
سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجد ذو الرمة عشقه الحقيقي في الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها
إلى شعره في لوحات رائعة ، وارجع إلى القصيدة الأولى في ديوانه التي يفتتحها
بوصف دموعه التي تسيل دائماً ولا تفرّ ، إذ يقول :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ

كأنه من كلّ مَفْرِيةٍ سَرَبُ^(١)

فإنك ستراه يخلص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى في نحو مائة
بيت يصور ثلاثة مشاهد رائعة من مشاهد الصحراء التي كانت تهيج
نفسه ، أولها مشهد أثنى الوحش وحمارها ، وهو يقودها في يوم حارٍّ إلى ماء
بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غلّتها ، فيتعرض لها صائد
مخّنف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً
تطيش هذه السهام في شعر ذى الرمة حباً للحيوان . والمشهد الثاني مشهد ثور
الوحش في كيناسه مكنتاً من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ،
وتفتلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه
كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم
وصاحبته يريهان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُ الجو ، فيسرعان إليها خيفة
أن يسقط عليها برّد السماء أو بعض السباع . وذو الرمة في المشاهد الثلاثة يشبه
الرسامين الذين يحشدون في لوحاتهم جميع الحزنيات والتفاصيل ، فهو يجسّم صورة
الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمّالها ومغازاتها وأعشائها ونباتاتها وغُدّ رانها ،
وهو إلى ذلك يبتّ في الحيوان مشاعر الإنسان وما يعترّيه من وساوس وهواجس .
وقد صور في الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثّل فيه البدوى
وإحساسه بكرامته ، كما صور في الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .
ولعل هذه أهم خاصة تميّز وصف الحيوان الوحشي عند ذى الرمة إذ يحمله

البالية التي لا تني ترسل الماء .

(١) الكلى: الرقع في عروة المزادة. مفرية :
مقطوعة ، يشبه عينه التي يسيل دمعها برفع المزادة

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله في خبره :
وابنّها أو خيشفها :

إذا استودعته صمغصفاً أو صريمَةً تنحّت ونصّت جيدها بالمنظير^(١)
حذاراً على وُسنانَ يضرعه الكرى بكلّ مَقِيلٍ عن ضِعافٍ فواتر^(٢)
وتهجره إلا اختلاصاً نهارها وكم من محبّ رهبة العين هاجر
حذارَ المنايا رهبةً أن يفتنّها به وهى إلا ذاك أضعفُ ناصر^(٣)

وواضح أنه صور محبة الطبيعة لابنّها وكيف تخشى عليه السباع ، فهي تبعد عنه حتى لا تدلّها عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبتّ في الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة في وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى في وصف الطبيعة الصامتة : إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتي بذلك في خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان في النهار بالسراب . فإذا ذُرى الجبال تتحرك كأنها خيل ظالعة أو إبل تُهدى للنّحر عند البيت الحرام ، أولعلها سفن تجرى في الفرات ، أما إذا جنّه الليل فحسبه النجوم التي يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثيل لما يجرى في الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله في وصف ظباء تبدوله من آفاق بعيدة :

كأنّ بلادهن سماء ليلٍ تُكشّفُ عن كواكبها الغيومُ
وقوله في ظباء أخرى :

كانَ أذمانها والشمسُ جانحةً وذُعُ بأرجائها فضٌّ ومنظومُ^(٤)
وقوله في وصف الإبل ورحلتها في الصحراء :

كانَ مطايانا بكلّ مفازةٍ قراقريرُ في صحراء دجلةَ تسبحُ^(٥)

(١) الصمغيف : الأرض المستوية . صريمة : (٣) يفتنّها . يسبقها .

رملة . نصت : نصبت مستقيمة . (٤) الأذمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٢) الكرى : النوم . المَقِيل : وقت القيلولة . (٥) القراقرير : السفن .

وفى الحق أن غيلته كانت حاملة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة فى رؤى غريبة، وهى رؤى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزامى رَشَّها الطَّلُّ بعدما دَنَا الليلُ حتَّى مَسَّها بالقَوادمِ^(١)
وقوله :

ألا طرقتُ مِىَ هَيُومًا بذكرها وأيدى الثُّريَّا جُنَحُ فى المغاربِ^(٢)
ومن صوره الطريفة صورته للحرباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب، يقول :

إذا جعل الحرباء يَغْبِرُ لـونه ويخضرُ من لَفَحِ الهجيرِ غَبَاغِبُهُ^(٣)
وَيَشْبَحُ بالكَفَيْنِ شَبَحاً كأنه أخو فَجْرَةٍ عَالَى به الجِدْعِ صَالِبُهُ^(٤)
وعنى طويلاً بوصف همس الفلوات وما يُسْمَعُ فى حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن، ونراه يشبها بتراطن الروم وتَضْرِبُ الطَّبْلُ وصياح الضرائر وأصوات السم^(٥). ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة فى صوره، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض، فنصبح وكأننا حقاً فى عالم من عوالم الرؤى والأحلام.

٦

الرَّجَّاز

الرَّجَّازُ من البحور القديمة فى الشعر العربى، فقد كان يُسَمَّى سَخْدَمَ بكثرة فى العصر الجاهلى، وهى كثرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبى العام الذى يدور على

- (١) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر .
(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدي الثريا أوائلها .
(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك ،
(٤) يشبح : يمد يديه .
(٥) الحيوان ٦/١٧٥ وما بعدها، ٢٤٧، ٣٦٣ .

كل لسان ، ومن ثمّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ في شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزخاف ، لا تلقانا في أى وزن آخر ، فكثُر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يحدون بغير حين يجولون في ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحَقْنِ بئر أو مَسْحِ منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنظَّمُ بديهة وارتجالاً مقترنة بأعمالهم وحرركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثمّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم في سيرها وسُراها ، وهيأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقرانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب ^(١) العِجْلِيّ : ولا نتقدم في عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكيه . وحتى يَقْصُر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحييره ، وهم في ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثرها منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد . وقد أخذت الأرجوزة - حين طالت - تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة في الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهي لا تختلف غالباً عنها في النظام وسرْد الموضوعات المتنوعة . ومضت تَرْحَمُها حتى غلبتها في باب الصَّيْدِ بالجواريح ، إذ نجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّعْرَدِل بن شَرِيك التميمي الذي عرضنا له بين شعراء اللهو والحجون وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان الشَّعْرَدِلُ صاحب قَنْصٍ وصيد بالجواريح وله في الصَّقَر والكَلْب أراجيز كثيرة ^(٢) » ويسوق له أرجوزة يستلها على هذا النمط :

ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغاني (دار الكتب) ٣٦١/١٣ .

(١) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٩٥/٢

والأغاني ١٦٤/١٨ والخزانة ٣٣٢/١ وأسد

الغابة ١٠٥/١ والإصابة ٥٦/١ وابن سلام

قد أغتدى والصبحُ في حِجابهِ والليلُ لم يَأوِ إلى مآبهِ
وقد بدا أبلقُ من مُنْجابهِ بتوجيَّ صاد في شبابهِ^(١)
مُعاودٍ قد ذلَّ في إصعابهِ قد خرَّق الضَّفارَ من جذابهِ^(٢)
وعرفَ الصوتَ الذي يُدعى بهِ ولعةَ المُلَمعِ في أثوابه^(٣)

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلَةَ^(٤) ، وهو مثل الشردل كان يجمع بين الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : « له في الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه في القنص وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ، ولعل في هذا ما يصحح الفكرة التي كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهم من جمع بين الرجز والقصيد في هذا العصر أبو النجم العجلي ، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد ، منهم دُكَيْسُ^(٥) بن رجاء الفُقَيْسِيُّ ودكين^(٦) بن سعيد الدارمي ، وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت في معجمه ، ومنهم الزُّبَيانُ^(٧) السعدي التيمي ، وأبرزهم جميعاً العَجَّاج وابنه رُوْبَةُ اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقَصَّد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يُقَصَّد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركهما في ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبْعَد في الإغراب إبعادهما .

(٥) انظره في معجم الأدباء (طبع مصر) ١١٣/١١ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وتهذيب ابن عساكر ٢٤٧/٥ .

(٦) راجع معجم الأدباء ١١٧/١١ وابن عساكر ٢٤٨/٥ والشعر والشعراء ٥٩٢/٢ وانظر الهامش .

(٧) راجع معجم المرزبان ص ١٤٩ وقد نشر ألوارد ديوانه في مجموع أشعار العرب ، الجزء الثاني .

(١) أبلق: فيه سواد وبياض. منجابه: مكان انكشافه. التوجي: الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .

(٢) خرَّق: شق. الضفار: الحبل يشد به .

(٣) الملمع: المشير بثوبه .

(٤) انظر في ترجمته الشعر والشعراء ٥٨٣/٢

والأغاني (سابق) ١٣٩/١٨ والخزاعة ٧٨/١ ومطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف)

ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩ .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطَّرمَّاح والكُمَيْت ، وقد عرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِيَّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب ^(١) . وهو اتجه تعليمي نظن أننا أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُوْبَة يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هَيَّاء لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين ، وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقصّوا وساقوا الحكم والأمثال ^(٢) .

أبو النجم ^(٣) العِجْلِيّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاكة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فربهه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول ^(٤) :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرْفِ تخطُّ رِجلايَ بخطِّ مختلفٍ
تكتَّبان في الطريق لأمّ ألف

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجمع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثمَّ كان يغلب الشعراء والرجّاز حين

والمرشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٥٨٤/٢

وأغاني دار الكتب ١٥٠/١٠ والخزانة

٤٨/١ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها

ومعجم الشعراء ص ١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب)

٢٩٧/٣ .

(١) البيان والتبيين ٣٤٣/١ وانظر كتاب

المكائنة عند المذاكرة للطالبي (قشر

جابر) ص ٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر

العربي (طبع دار المعارف) ص ١٣٩ وما بعدها .

(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦

يَسْتَبِقُونَ فِي مَوْضُوعٍ يَطْرَحُهُ خَلِيفَةُ أَوْ وَالٍ ، وَيُظْفَرُ بِالْخَائِزَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، وَيَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : إِنَّهُ أَبْلَغُ فِي النَّعْتِ مِنَ الْعَجَاجِ . وَأَمَّا أَرَاخِيْزُهُ لِأَمِيَّتِهِ الَّتِي يَسْتَهْلِكُهَا بِقَوْلِهِ (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجْزِلِ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخُلِ

وَالْأَرْجُوزَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تَفِيضٌ بِالْغَرِيبِ فِي وَصْفِ الْإِبِلِ وَمَرَاعِيهَا ، وَكَانَ رُؤْيَا يَسْمِيهَا أُمَّ الرِّجْزِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَلِعَجَابًا بِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ الْعَسْجَاجَ غَدَا عَلَى النَّاسِ بِالْمِرْبَدِ يَنْشُدُهُمْ أَرْجُوزَتُهُ الْمَشْهُورَةُ « قَدْ جَبَرَ الدِّينَ إِلَهُ فُجَبَّرَ (٢) » وَقَدْ ضَمَّنَهَا هَجَاءَهُ لِرَبِيعَةَ ، فَاسْتَعْدَتْ عَلَيْهِ رَاجِزُهَا أَبَا النِّجْمِ ، فَبَادَرَهُ يَنْشُدُ أَرْجُوزَتَهُ « تَذَكَّرَ الْقَلْبُ وَجْهَهَا مَا ذَكَرَ » حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : « شَيْطَانُهُ أَثْنَى وَشَيْطَانِي ذَكَرَ » تَعَلَّقَ النَّاسُ هَذَا الشَّطْرَ وَهَرَبَ الْعَجَاجُ عَنْهُ . وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى مِنْ أَرَاخِيْزِهِ أَرْجُوزَتُهُ فِي وَصْفِ فَهْرٍ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَشَرَ بْنِ مَرْوَانَ ، وَهُوَ يَسْتَهْلِكُهَا بِقَوْلِهِ :

إِنَّا نَزَلْنَا خَيْرَ مَنَزِلَاتٍ بَيْنَ الْحُمَيْرَاتِ الْمَبَارَكَاتِ
فِي لَحْمٍ وَحَشٍ وَحُبَارِيَاتٍ وَإِنْ أَرَدْنَا الصَّيْدَ ذَا اللَّذَاتِ (٣)
جَاءَ مُطْبِعًا لِمَطَاوِعَاتٍ عَلَّمَنَ أَوْ قَدْ كُنَّ عَالِمَاتٍ
فَهِيَ ضَوَارٍ مِنْ مَضْرِيَّاتٍ تُرِيكَ آمَاقًا مَخْطُطَاتٍ
سَوْدًا عَلَى الْأَشْدَاقِ سَانَلَاتٍ تَلَوَى بِأَذْنَابٍ مَوْقِفَاتٍ

وَكثِيرٌ مِنْ رَجْزِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ لَا يُبْعَدُ فِيهِ وَلَا يَغْرِبُ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنَّهُ « كَانَ يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَشْتَقُّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ (٤) » ، وَلَكِنَّهُ يَظَلُّ قَرِيبًا مِنَّا فِي جَمْعِهِ وَرَجْزِهِ ، وَخَاصَّةً حِينَ يَعْمَدُ إِلَى التَّنَادُرِ وَالِدَعَابَةِ ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ يَوْصِي ابْنَتَهُ « بَرَّةَ » عِنْدَ زَوَاجِهَا :

(١) نَشَرُ هَذِهِ اللَّامِيَّةَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمِصْنِيَّ فِي « الطَّرَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ » طَبَعَ لَجْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ ص ٥٥ .
(٢) جَبَرَ الثَّاقِبَةُ بِمَعْنَى أَنْجَبَرَ .
(٣) حِبَارِيَّاتٍ : جَمْعُ حِبَارَى وَهُوَ طَائِرٌ .
(٤) الْخَصَائِصُ ١ / ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةٍ قلباً حُرّاً بالكلب خيراً والحماقِ شَرّاً
لا تسأى ضَرْباً لها وجراً حتى ترى حُلُوَ الحياة مُرّاً
وإن كستكِ ذهباً وُدراً والحيَّ عُميهم بشرٌ طُرّاً

وكان يمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له في مجالسهم ويمجزون له العطاء .

العَجَّاج^(١)

هو عبد الله بن رُوْبِيَّة التميمي ، نشأ في البادية ونزل البصرة ، وكان دائم الرحلة إلى منازل قومه في الصحراء ، وقد سخر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية في مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه في خصوصتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفي ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان وإلى العراق وأخاه عبد العزيز وإلى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبي فُدَيْك زعيم النّجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتص منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسئل في ذلك فقال : هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التي ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، في وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشي والأليف ، وكل ما يجري في أرضها من رياح وسموم وطير وفي

٧/٣٩٤ ونهارس البيان والتبيين والخصائص لابن

جني والمزهر السيوطي (طبعة الحائلي) . قد نشر الوارد

نر ثاني .

(١) انظر في العجاج الشعر والشعراء ٥٧٢/٢

والمؤرخ المرزباني ص ٢١٥ وما بعدها وشرح

شواهد المفني ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر

سماؤها من كواكب ونجوم . وهو يُعمدُ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس في اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف في ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعتمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعرّبها ، وقد يصرف منها أفعالا ، على نحو ما صنع في أرجوزته الجيمية : إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت في الملاء البردُجماً » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التفَّ أو تسبَّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي ، فعربّه بسبيجة ، ثم صرف منه فعلا في بعض أبياته (١)

ونراه يلتزم في أرجوزته الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروي في الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحظ ذلك في أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبر » ، وهي في نحو مائتي بيت ، ولو أُطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة (٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أرجوزته بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل في ذلك استرسالاً ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذي استقلَّتْ بإذنه السماءُ واطمأنَّتْ

وقد تحدّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه في ثوابه . وهو في ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصري وغيره وقد توفي سنة ٩٧ للهجرة . وتُنسبُ له أرجوزة في مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحّت يكون قد لحق أوائل القرن الثاني حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه (طبعة الحلبي) (٢) افطر الأغاني (طبع ساسي) ٦٠/١٨

عالية ، ونراه في أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ،
من مثل قوله :

إمّا ترينى أصِلُ القُعَادَا وأتقى - أن أنهض - الإزعَادَا^(١)
من أن تبدلتُ بآدى آدا لم يك يَنَاد فأمسى انآدا^(٢)
وقصبا حُتّى حتى كادا يعود بعد أعظم أعوادا^(٣)

والجناس واضح في البيت الثانى ، وهو يشيع في أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعنى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا في الآد وانآد ، وقد جانس في البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتي ببعض المزيادات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقصد لذاته ، فإن فاته في اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رؤبة^(٤)

سمّاه أبوه العجاج باسم جدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عنى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ونراه في رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين^(٥) . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

١٨/١٢٤ وما بعدها و ٥٧/٢١ والخزانة
٤٣/١ ومجمع الأدباء ١١/١٤٩ وابن خلكان
وتهذيب التهذيب ٣/٢٩٠ ولسان الميزان ٢/٤٦٤
والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥/٣٢١ وكتابنا
« التطور والتجديد في الشعر الأموى » ص ٣٤٠ .
وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث
من مجلّوع أشعار العرب .
(٥) طبرى ٥/٣٠٥ .

(١) القواعد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون
منهم ويفعل فعلهم .
(٢) الآد : القوة كالأيّد . انآد : اعوج
وانحنى .
(٣) القصب : كل عظم ذى مخ . حتى :
دق ، يريد أن عظمه وهن .
(٤) انظر في ترجمة رؤبة الشعر والشعراء
٥٧٥/٢ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسى)

ومنذ أوائل القرن الثاني يلزم ولاية العراق بمدحهم ، بمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترأ في هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى بمدح هريم بن أبي طحمة المجاشعي أحد قوادهم الذين أبلوا في القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا في ديوانه أراجيز كثيرة في مديح خالد القسري وولاته وفي مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله وإلى النخيلة ، وبلال بن أبي بردة الأشعري نائب خالد على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلي نائبه في شئون الخراج ثم وإلى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمر بن عتبة بن سعيد بن العاص . ويقدم على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ومدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلج في هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان ، فيمدح نصر بن سيار ويحذره من أبي مسلم الخراساني في غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراساني أن يذهب عنه روعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله في مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ومدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو في أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبي نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومر بنا أنه كان جبّريّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا منبر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة في مذهبه القدرى على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية في شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتأله . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصسوعية لغوية ، إذ تحول به يرضى اللغويين من حوله ويقدم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية في الألفاظ وأبنيئها وهيئاتها وما قد يحدث في بعض الحروف كالهزمة من إعلال ، وكأنما تحول معينا لا ينفذ للأوابد والشوارد ، ومن ثم غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق ، تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبي عبيدة وخلف الأحمر وأبي عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأعماقِ خاوى المُمخَّرقِ مُشْتَبِهِ الأعلامِ لَمَاعِ الخَفَقِ^(١)

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإبتاع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو نساكن » والإتيان بصيغة فيعمل بفتح العين فى قوله : « ما بال عيني كالشعيب العين » والقياس العين بكسر الياء مع التشديد^(٢) . وأقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلُّ ليلٍ يُخسبُ السَّدوسُ يَسْتَسْمِعُ السَّارى به الجُرُوسُ^(٣)

هَمَاهِمًا يَسْمَهَرُ أَوْرَسِيْسَا علوتُ حين يَخضَعُ الرَّغُوسُ^(٤)

قَرَعَ يَدِ اللَّعَابَةِ الطَّسِيسَا^(٥)

فلأنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمدألى ألفاظ غريبة يحشو . ا وصفه من نحو السدوس والرئيس والرغوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة ، وإنما بصيغة الطسيس . وعنى بأن يلائم بين الروى

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) همهم : جمع همهمة وهى الصوت الخفى ، الرئيس : الحديث غير البين . الرغوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

(١) يتحدث رؤية عن فلاة . قاتم : أسود ،

أعماق المغارة : أطرافها البعيدة . عترق الرياح : مهبا . خوازمه : خلوه . الأعلام :

الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماخ الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .

(٢) راجع الخصائص ٣ / ٢١٤ ، وسيبويه

٣٧٢ / ٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى .

العين : سائل الماء .

والكلمات الداخلية في البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعنى بالجناس كثيراً في نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقراً في أراجيزه فلأنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تتعكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر في سبويه وغيره ممن عنا بتوجيه الصيغ في شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذي فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذي انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة في الإغراب ، إذ كان يكثر من القياس في اللغة والتصرف فيها بالتفريع والتوليد ، محالاً أن يأتي بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفرع إليه الشعراء الذين كانوا يُعنون بإدخال الغريب من مثل الطرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه في أشعارهم ^(١) . وتحول إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجلون رجزه وما يأتي به من مستغلات لغوية ، كان يحشدها في أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرِّح بذلك ، إذ يقول في أرجوزة له « يلتبس النحويّ فيها قصدي » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤية بغاية تعليمية واضحة ، وهي غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمي الذي أخذ ينظمه الشعراء في العصر العباسي ، وكأنهم وجدوا في وفرة موسيقاتها ما يتلافون به نقص المعاني الشعرية في هذا الضرب الخاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والخمسن . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الأرجوزة في التصريح ، فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة ، على نحو ما صنع رؤبة ورُجَّاز هذا العصر في أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هي التي ألهمت ابن دريد حكاياته في تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذاني والحريري صنع مقاماتهم المعروفة .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلاقتهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والغبين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشاداته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو حق في تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسططاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان في الخطابة ، وما لا شك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي .

وعوامل مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان يُستَظَر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهي معارضة كانت تدور كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقَصَّرُ على بني أمية أو

تكون حقاً شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُردّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولّاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشي ، بل لو كان غير عربي . ومضوا يحاجّون في أول الأمر عليّاً وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنّجدات والصّفّرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحجج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله في حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة . ويتوقّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجّر بن عدى مشهورة . ويتوقّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقتلُ بكربلاء دون غايته . ويتوقّى يزيد ابن معاوية ، فتتشب حركة التوايين ، يقودها سليمان بن صُرْد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرّد له مصعب بن الزبير ، فيسَقْضى عليه قضاء مبرماً . ونمضي إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُسَقْضى عليه .

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمان سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولّاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستنديين إلى القبائل النجنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تُقصر على قریش وأن تُردَّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدِي يعبر عنه في ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء السننهم في تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتفاض على بني أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلون الطريق . وكل ذلك هياً في قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين بلى نحو ما مرَّ بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة ، وما اندلع من أسنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان . وهي — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبية القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفصاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل وفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصير الجديد . وتدخل في عصر بني أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصِدُ قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة في شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تَعَيَّن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

في بيعة الخليفة الجديد وفي بَثَّ شكواها حين يلمَّ بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطبة التهئة والتعزية . وكانوا يُسَمُّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدر عن رأيه . ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطبائها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق في البيان والقصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع في الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأَيَّانَ رَكَتَرَ الإسلامُ أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسَمُّون في ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصر ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس مازجيج قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني . وكانوا يستهون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإضرار على خصومهم^(١) ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية^(٢) . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبشون في الجيوش لتحسيس الجنود على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفي الطبری نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عَتَّاب بن وَرْقَاء حين نازل شبيناً الخارجي يقصُّ على جنده محمداً^(٣) كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور^(٤) . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصَّاصهم صالح بن مسرَّح الصُّفَرِيُّ ،

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكنزى ص

٣٠٤ وخطب المقرئ (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢ (٤) البيان والتبيين ٢/٢٧٣ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبري ٨٩/٥ .

وفي الطبري طَرَف من قصصه ^(١) ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهَنَّم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان ^(٢) .

وفي هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رُقُ العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشِب في مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيرٌ في الحياة أو مسيرٌ لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجَهَنَّمية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رَشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة عقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم في جدالهم يستمعون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة ، وهي صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحقلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدامه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسرى لدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رُق الخطابة رُقياً بعيداً .

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراسين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولائهم وقوادهم . وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج ، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم ، ولم يندعوا لها سرّاً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم في وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيتهم كانوا يتخرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيها ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها ، ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم ^(١) .

(١) البيان والتبيين ٢٤٣/١ وما بعدها

و ٣٦٤/٢ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظُبَيَّان السُّلَمي والمستورد بن عُلْفَة لعهد المغيرة بن شعبه في ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقي بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مرَّ بنا - إلى أزارقة ونسجديات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم في وجوه ولاية ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بني أمية : وتصدَّى لهم المهلب ابن أبي صُفْرَة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شرَّ ممزَّق

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن علي الذي وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا في خطاباتهم نفس الروح التي وصفناها في أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، لأنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة في الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون في سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التي ضلَّت في رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير في بعض خطبه ^(١) : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي » . وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض والعاقبة للمتقين » . فهم في رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلّة ، وهم المؤمنون حقّاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم في الجنة أما قتل غيرهم ففي النار ، وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العسجلة إليه ، حتى يسجله من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون في الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم ، على نحو ما يلقانا في خطبة قَطَرِيّ ابن الصُّجاء قائدهم بعد الزبير بن علي ، وهو يستهلها على هذا النمط ^(٢) :

« أما بعد فلني أحد ركم الدنيا فإنها حلوة خَصِرَة ^(١) : حُفَّتْ بالشهوات ... مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْلَة ^(٢) ، إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سَرَّأَها بطناً ، إلا منحتة من ضَرَّأَها ظهراً ، ولم تَطُلْهُ غَبِيَّة ^(٣) رخاء ، إلا هطلت عليه مُزْنَة ^(٤) بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوب وأحلى ^(٥) أمر عليه منها جانب وأوبى ^(٦) ، وإن آتت امرءاً من غضارتها ^(٧) ورفاهتها يعماً أرهقته من نواثيها نِقَمًا ، ولم يُمَسَّ امرؤ منها في جَنَاحِ أَمْنٍ إلا أصبح منها على قَتَادِم ^(٨) خوف ، غَرَّاة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى . »

وتمضي الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباقي ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . و اشتهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدَة بن هلال اليَشْكُرى وزيد بن جُسُئدب الإيادي وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُفَرِيَّة عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرَّح الذي كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان في وعظه وقصصه يجمل على بني أُمِيَّة ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرَّج على الحجاج ، وقُتِل ، فخلفه شبيب الذي دوَّخ جيوش الحجاج طويلاً ، ومن قول صالح في بعض مواعظه ^(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهدي في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة في الدنيا ترغَّب العبد فيها عند الله وتفرَّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

(٥) احلولي : صار حلواً .

(٦) أوبى : من الوباء .

(٣) الغضارة : النضارة والخصب .

(٤) المظلل : المطر الكثير . المزنّة : السحابة .

(٥) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .

(٦) تاريخ الطبري ٥٠٠/٥ .

(١) خضرة : ناضرة .

(٢) حبلّة : سرور .

(٣) المطر القليل . الغيبة : المطر القليل .

(٤) المظلل : المطر الكثير . المزنّة : السحابة .

(٥) القوادم : الريش في مقدم جناح الطائر .

(٦) تاريخ الطبري ٥٠٠/٥ .

يَجْأَرُ^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وإن حبَّ المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بني أمية أئمة الضلال الظلَّة كما يقول ، حاثاً لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . ومن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطرماتح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَيْعِي والضحاك بن قيس الذي خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النجديات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين في سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبي حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردّت الأمر إلى نصابه . ولأبي حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بيّنة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التي ألقاها في مكة ، ويقال بل ألقاها في المدينة^(٢) ، وهو يستهلها بالشثناء على أبي بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن في عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، مندداً بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الحوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعدين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التي لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون^(٣) في شبابهم غَضِيضَةٌ عن الشرِّ أعينهم ، ثَقِيلَةٌ عن

(١) يجأَرُ : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون

الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤

والأغانى ١٠٤/٢٠ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزاة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنضاء^(١) عبادة وأطلاق^(٢) سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل ، منحية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شيق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . موصول كلالهم^(٣) بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . حتى إذا رأوا السهام قد فوقت^(٤) والرماح قد أشرعت^(٥) والسيوف قد انتضيت^(٦) ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكلم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكلم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يوم أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعية خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطّلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتدور هذه الأفكار دائماً في خطابهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجد عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

(١) أنضاء : مهزولون .

الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمي .

(٢) إطلاق : مكدودون .

(٥) أشرعت : سددت .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٦) انتضيت : استلت .

(٤) فوق السهم . حماله فوقاً وهو موضع

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له ^(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنّ أَرْضَى الله . ونحن — أهل البيت — أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجرور والعدوان » .

وتتطور الأمور ويقتتل الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر لحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرايتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صرد فى إحدى خطبه ^(٢) :

« قُتِلَ فِينَا وَلَدُنَا وَلَدُ نَبِينَا وَسَالَتِهِ وَعَصَارَتِهِ وَبَضْعَةٌ ^(٣) مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ . . اتخذوه الفاسقون غرضاً للنسب . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(٤) والأبناء حتى يَرْضَى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تتاجزوا مَنْ قُتِلَ أَوْ تَبِيرُوا ^(٥) » .

وكان من زعماء التوابين معه عبيد الله بن عبد الله المُرّى ، وكان خطيباً لا يبارى ، فضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتفاض على الأمويين بمثل قوله ^(٦) :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذرّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترّم ^(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم ^(٨) إياه بالدم . وتجراهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(٥) تبيرا : تهلخوا .

(١) طبرى ٣٠٣/٤ .

(٦) طبرى ٤٣٣/٤ .

(٢) طبرى ٤٢٨/٤ .

(٧) اجترّم : اقترف وارثك .

(٣) بضعة : قطعة .

(٨) ترميلهم : من رمه إذا لطمه بالدم .

(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .

ولا قربته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل . . إلا أن يناصح لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العشرة . . إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين » .

ونخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكَّلَ بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفي ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي لفرقة الكيسانية المشهورة في تاريخ الشيعة ، وقد مرَّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن علي ، وتعهده وصيه والإمام المهدي المنتظر . وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً^(١) وكان لسنافصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم في « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت في المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر في خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أنه يُوحى إليه ، مصوراً هذا الوحي في فقرات من السجع يوشئها بالآيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله^(٢) :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه^(٣) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلنَّ كلَّ جبَّار ، بكلِّ لَدَنٍ خطَّار^(٤) ، ومهشَّد بَنَار^(٥) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمِثْلِ أَعْمَار^(٦) ، ولا بِعُزْل^(٧) أشرار ، حتى إذا أقمَت عمود الدين ورأيت شَعَب^(٨) صدَّع المسلمين ، وشفيت

(١) الميل : جمع أميل وهو الجبان ،

الأغار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٢) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

(٣) رَأَب : أصلح . الشَّب : الفتق والصدع .

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .

(٢) طبري ٤٥٠/٤ .

(٣) المهامه : الفياق .

(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين . لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردّها خطباء الشيعة ، وهي معان تُردُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر من قتلهم الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى ، وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صَوَّحان : صَعَصعة وزيد وسَيَّحان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المخاصمات والمحاوَرات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي مخاصمات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعيش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه ^(١) ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول ^(٢) :

« إِنْ يُقْتَلْ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَابْنُ عَمِّهِ ^(٣) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنْ وَاللَّهِ لَانْمُوتَ حَتَّى أَنْفُتَنَا ^(٤) ، وَلَكِنْ قَعَصْنَا ^(٥) بِالرَّمَاكِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ ،

(١) طبري ٤/٣٧ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٤/١٢٢ وعيون الأخبار .

(٣) ٤٢٠/٢ .

(٤) يقول مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

(٦) أبو الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمره عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيا ملكه ، فإن تُقْبِلَ الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر^(١) البَطَرِ ، وإن تُدْبِرْ عني لم أبلِك عليها بكاء الخَبَرِقِ المهين^(٢) .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة^(٣) ، ولأُمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة^(٤) طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من تلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرَهًا مفوّهًا ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شُبث بن رِبْعِيّ . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى في خراسان حاضاً الجند على متابعتهم . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب في جنوده يحرضهم على أهل الشام

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم في الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسَف وكيف أنهم جميعاً عطَّلُوا أحكام الشريعة واستأثروا بالقسْء ، حتى لرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم^(٥) .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، ومن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

١٣٥/٤ .

(١) الأشر : البطر .

(٤) طبرى ٣٠/٥ .

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(٥) طبرى ٣٣٥/٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد

الخطابة مع جهازة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية في خطابته فقال ^(١) :

رَكوبُ المنابر وثأبها مِعْنٌ بخطبته مِجْهَرُ ^(٢)
تَرِيعُ إليه هَوَادِي الكلام إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ المِهْذَرُ ^(٣)

وخطابته قسمان : قسم "سياسة" خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة ^(٤) . وهو في القسم الثاني ينفّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ ^(٥) ، وقد اتهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب . والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسي أنه من كُتّاب الوحي وأنه من جِلّة الصحابة . وتتردد في خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدّثهم نفوسهم بالخروج عليه ^(٦) ، أما عمر بن عبد العزيز فخبطه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدّم يده على شاكلة قوله في كلمة له ^(٧) :

« أيها الناس ! إنكم لم تُخلّقوا عبثاً ولن تُتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يُحكّم الله نبيّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحُرِمَ الجنة التي عرّضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بباقي ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولي الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

-
- (١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) ممن : تمنّ له الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .
(٣) تريع : ترجع . هَوَادِي الكلام :
(٤) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار
أوائله .
(٥) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٦) العقد الفريد ٢/٥٩ وما بعدها .
(٧) البيان والتبيين ٢/٤٠١ والأمال ١/١٢ .
٢٤٦/٢ .

بديعة^(١) يصور فيها سياسته ودستوره في الحكم معلناً أنه إن وفّي بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه . ويقول إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكان ولاية بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبي سفيان وإلى مصر وعند ولاية العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسري ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، فمن خير ما يمثل ذلك خطبته في الكوفة حين قدم على العراق وإلياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول^(٢) :

« إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء ترقق بين العمام والمحى . إني والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أغمز تغماز التين ولا يبقه معقع^(٣) لي بالشنان^(٤) ، ولقد فررت^(٥) عن ذكاء وفشتت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كتب كينانته^(٦) ثم عجم^(٧) عيادها ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها عموداً ، فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم^(٨) في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي . أما والله لألحونكم^(٩) لحو العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(١٠) . . أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلًا في جسده » .

وهو يفتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ العريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرت خطبته بأسلوب تصويري قوي ، وهو يعدد في الذروة من أهل الخطابة والبيان في العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه في طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

(١) البيان والتبيين ١٤١/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار

٢٤٤/٢ .

(٣) التعمقة : التحريك ، الشان : جمع

شن وهو القرية البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا

الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اخترت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختر .

(٧) أوضع : أسرع في سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الحرب وعند

الحلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرَوَّى أن الحسن البصري كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويبطش ببطش الجبَّارين» (١) ومن قوله في بعض مواعظه : « اللهم أرني الهدى هدى فأتبعه وأرني الغنى غياً فأجتنبه ولا تسكِّلني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً » (٢) .

وكان خالد القسري خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقته ، وله خطب كثيرة بحث فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَنْ يَنْقُصُ حَبْلَ الجماعة . وأكثر في خطب أُلْجِمِعَ من المواعظ ، حتى سُمِّيَ خطيبَ الله (٣) ، ويُرَوَّى أنه كان يخطب يوماً فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال (٤) :

« سبحانَ مَنْ الجرادَةُ مِنْ خلقه ، أدَّ مَجَّ قوائِمها ، وطوَّقها جناحها ، ووشَّيَّ جلدُها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المَعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بني أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بني أمية في الصفوف المقاتلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام في وقعة الحرَّة : « يا أهل الشام أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يعزِّزوا به نصراً لِمَأمهم » (٥) وقول المهلب بن أبي صفرة في حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ولأنهم إن قلدروا عليكم فتننوكم في دينكم وسفكوا دماءكم » (٦) . فقواد بني أمية في هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق في جانبهم وأن أعداءهم أهل غيٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفي بلاد الروم لا يزالون يحشُّون جنودهم على الاستشهاد في سبيل الله مقتبسين من آي الذكر الحكيم ما يُشعل حماسهم ،

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٥) طبري ٤/٣٧٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والمقد الفريد

(٦) الكامل للمبرد ص ٦٣٠ .

٤/١١٥ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .

ويذكر جندوة شجاعهم وبسالهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتبية بن مسلم الباهلي وقد تهايا لغزو طُخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول ^(١) :

« وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصْرَ بِحَدِيثٍ صَادِقٍ وَكِتَابٍ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهَدْيِ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) وَوَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ الثَّوَابِ وَأَعْظَمَ الذُّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا نَمْيٌ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وَأَخْبَرَ عَمَّن قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَتَّى مُرْزُوقٌ فَقَالَ : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فَتَنْجِزُوا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ » .

واشتهر في خراسان بعد قتبية غير قائد بالخطابة مثل أسد القسري ونصر ابن سيّار ، ويلقانا في الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته في جندة حين دخلها مشهورة ^(٢) ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نمثّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية في هذا العصر من نهوض ورق .

زياد ^(٣) بن أبيه

وُلِدَ فِي عَامِ الْهَجْرَةِ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ لِسُمِّيَّةَ جَارِيَةٍ فَارِسِيَّةٍ كَانَتْ لِلْحَارِثِ بْنِ كَلْمَةَ الثَّقَفِيِّ الْمَشْهُورِ بِطَبَّةٍ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ زَوْجُهَا ثَقَفِيًّا يُسَمَّى عُبَيْدًا ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ يُسَمَّى فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ زِيَادُ بْنُ عُبَيْدٍ . وَيَذْهَبُ بَعْضُ الرِّوَاةِ إِلَى أَنَّهُ إِنَّمَا وُلِدَ عَلَى فَرَّاشِ الْحَارِثِ وَأَنْ عُبَيْدًا كَانَ عَبْدًا رُومِيًّا ، وَلَمْ يَكُنْ ثَقَفِيًّا ،

٢٥٩/١ والأغاني (طبعة الساسي) ٣/١٦

وما بعدها وابن عساكر ٤٠٦/٥ والعقد الفريد ٤/٥ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودي (طبعة مصر) ٥٥/٢ والذخري في مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لقلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

(١) طبري ٥ / ٢١٤

(٢) انظر فتح الطيب ١١٢/١

(٣) انظر في ترجمة زياد وتحقيق نسبه طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٧٠ وأسد الغابة ٢١٥/٢ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي

وما نتقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية في الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبلّة تسجيل الغنائم وقسّمها في الناس ، مما يدلّ على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاية البصرة يكتب لهم . ويوفّده إليها أبو موسى الأشعري إلى عمر ، فيعجب بذكائه ولسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعنّ عجز أم عن خيانة صرفني ، فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك ^(١) .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر وإليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلّى وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأتابه عنه أحياناً ، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة ، ذلك أن معاوية دسّ إلى تميم بعض من أفسدها على عليّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشّعث ورأب الصدع متوسلاً إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعدهم من نصره ومنّاه ، وخوف قوماً وتوعدّهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصدّقت له فارس فلم يلق فيها جتمعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكّرمان ^(٢) . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداورة ^(٣) » . ولما قُتِل عليّ ظلّ على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطّف له ووسّط لديه المغيرة بن شعبة الثقفي ، ذا كراً ما بينهما من الرّحم ، وما زال به ، حتى دخل في طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ، ولما صار إليه

(٣) طبري ١٠٥/٤ .

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .

(٢) طبري ١٠٦/٤ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمون به . ولم يلبث معاوية أن ولّاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والخنّاة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعه وقصّته مع حجر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقي حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعتمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارى في جودة خطابه ، يعرف كيف يصوغ كليمه صوغاً تهش له الأسماع وتصفى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابه كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجدود كلاماً^(١) » . وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلفها هذا العصر ، وهي الملقبة بالبترء^(٢) ، سُميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد^(٣) ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجمل سياسة زياد التي اشتهر بها والتي رَدَّت إلى البصرة أمثها بعد أن عاث فيها الفسّاق واللصوص واضطرب حبيل النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رَسَم الله للمسلمين في كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

الأخبار ٢٤١/١ والمقد الفريد ١١٠/٤ .

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر ٦٢/٢ .

(٣) انظروا في البيان والتبيين ٦٢/٢ وعيون

« أما بعد فإن الجاهالة الجهلاء^(١) والفضالة العَمَمَاء والغنى الموقى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا ينشأ^(٢) عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرمَد^(٣) الذى لا يزول ، أن تكونون كمن طَرَفَتْ^(٤) عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعه الشهوات واختار القانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسَبِّقوا إليه من ترككم الضعيف يُقَهَّرُ ويُؤْخَذُ ماله وهذه المواخر^(٥) المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغشوة عن دلج^(٦) الليل وغارة النهار؟! قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذرت وتغضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صُنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلما ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرَمَ الإسلام . »

وعلى هذا النحو استهلَّ خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرع سامعيه بأنهم انتبلوا كتاب الله وراء أظهِرهم مؤثرين القانية على دار الخلود ، وكأنما عادوا يحترقون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل بصور خطبته فى حكمهم وما أعد له من ضرب العقوبات ، يقول :

« إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذنَّ الوليَّ بالمولى^(٧) والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدير والمطيع بالعاصي والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : (انجُ سَعْد فقد هلك سَعِيد) أو تستقيم لى قناتكم . . من نَقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، ولإيادى ودلج الليل فلانى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .. وإيادى ودعوى^(٨) الجاهلية فلانى لا آخذ

(١) الجهلاء : وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء .

الريية .

(٢) ينشأ : ينفر .

(٦) الداج : السير فى الليل .

(٣) السرمَد : الدائم .

(٧) الولي : السيد ، المولى : العبد .

(٤) طرف عينه : أصابها بشئ قدمعت .

(٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياتيم مثلاً ، إثارة

(٥) المواخر : جمع ماخور ، وهو بيت

من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه فيه حياً ، فكفوا عن أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحسن^(١) جعلتها دبر^(٢) أذنى وتحت قدمي ، فمن كان منكم مسيئاً فلينزح عن إساءته . إني والله لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قيناعاً ولم أهتك له سترأ ، حتى يبدى لي صفحته^(٣) ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرعوا^(٤) على أنفسكم ، فرب مسوء بقدمونا سنسرّه ، ومسرور بقدمونا سنسوءه .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور مجلاء سياسة زياد ودسوقه في حكم البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سيأخذ بالظنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرد سيفه لقتل من لا يرعوى ، وأن من عاد إلى العصية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة في إعادة الأمور إلى نصابها في ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصاً ، وكان الشيء يسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفي نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش . وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فليتن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته في الحكم بأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، وأيضاً حين يجهر في ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويعضى في فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولائه ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودعنكم بفقى^(٥) الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

(١) إحسن : جمع إحنة ، وهي الحق والصفية . (٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها . (٥) الفقى هنا : الخراج وغنائم الحروب .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .

فيما أحبيننا . ولكم علينا العدلُ والإنصافُ فيما وُلِّينَا ، فاستوجبوا عدلنا وفَيْسَتْنا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصَّلاحِ لأنَّ تكم فإنهم ساستكم المؤدَّبون وكهفُكم الذى إليه تأوون ، ومتى يَصْلُحُوا تَصْلُحُوا ، ولا تُشْرِبُوا قلوبكم بِغَضْضِهِمْ ، فيشتدُّ لذلك غيظكم . ويطولَ له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استُجِيبَ لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يُعِينَ كلاً على كلِّ . وإذا رأيتُمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أدْلاله ^(١) ، وآيَمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة ، فليحذر كل امرئٍ منكم أن يكون من صَرْعى .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس ، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضون لحكمهم من قِبَلِ ربهم ، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج وبغنائم الحروب وأنها ستنتشرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نشرًا ، ولا يلبث أن يهدد من تحدَّتهم أنفسهم بنقض الطاعة أهمهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما . وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توعر ولا تعقيد ولا كَلَم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو فيه يُبْذِع ، كما يبدع فى خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهى تطرَّد على هذا السياق ^(٢) :

« إن الله عز وجلُّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه . والله النعمة على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضَّعها الله ، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكشَّر

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأخذَ رَحمَ الله الذي حذَرَكم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجْزة ، قبل أن تَصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة .

وواضح ما في هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقاً ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه في بعض خطبه ، من أنه أوفى حُسْنِ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المحافل

مرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللون من الخطابة ، إذ كانوا يَقْدُمُون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنِينَ عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون في أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا في الأسواق وفي عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدي الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم في عصر بني أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها في نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كي يطمثوا إلى حسن ولائهم للدولة ، فكانت وفودهم تَمُثِّلُ بين أيديهم ، وكانوا يُعْقدون عليها إغداقاً واسعاً . ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تبعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضَقُّ عليها من نواله القمَر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنون سُنَّتَهُ . ومن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبَان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبه « الشَّوْهَاء » التي خطب بها عنده ، فلم يُنشد شاعر ولم يخطب خطيب ^(١) ،

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سلك من منطقته ^(١) » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذي لا يدافع وصُحار بن عبيّاش العبّدى ، الذى قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ^(٢) » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعه ، ومصفلة بن رقة ورقة بن مصقلة وكرب بن مصقلة ^(٣) . ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ^(٤) ويقابل آل رقة وصُوحان في بنى عبد القيس آل الأهم في تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهم الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات ^(٥) ، ومثله ابنه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبّة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيّناء عبد العزيز بن زُرارة الكلّابى ، وهو الذى خاطب معاوية بقوله ^(٦) :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألّوى ^(٧) في الليل فقُبُيْضَ البصر وعُفِّي الأثر أقام بدنى وسافر أُملى ، والنفس تلوّم والاجتهاد يعذّر ، وإذ قد بلغتك فقَطْنى ^(٨) » .

وواضح ما فى هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروى فيها طويلاً حتى يروق لفظه الخليفة ومنّ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون فى خطابهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب فى دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

(٥) نفس المصدر ٣٥٥/١ .

(٦) البيان والتبيين ٧٥/٢ .

(٧) ألوى هنا : استأثر .

(٨) قطنى : يكفىنى .

(١) البيان والتبيين ٣٣٩/١ .

(٢) البيان والتبيين ٩٦/١ .

(٣) نفس المصدر ٩٧/١ .

(٤) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .

البيعة لابنه يزيد^(١)، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العنزي في خطبته التي صدر فيها عن رغبة عبد الملك في خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد^(٢). ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخلف والناس مجموعون على بابهِ يتهيبون القول، فقال^(٣):

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية، وبارك لك فى العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيماً، وأعطيت جسيماً، فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر له على ما رزيت، فقد فقدت خليفة الله، ومنحت خلافة الله، ففارقت جليلاً، ووُهِبَتْ جزيلاً. . . »

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء. وتلقانا من هذا التأين المزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات الماثلة. ومن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان، فكانت ترد على بابهِ الوفود من كل قطر، وكان الحجاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطبائهم بين يديه. وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم^(٤)، ولم يكثر الوعاظ على بابِ كثرتهم على باب عمر بن عبد العزيز^(٥)، منهم خالد بن صفوان. وعبد^(٦) الله بن الأهم ومحمد^(٧) بن كعب القرظى. وكان هشام بن عبد الملك يوسع لخالد بن^(٨) صفوان فى مجالسه، ولما فتر الكميت من سجن خالد القسرى وضاق به الأرض بما رحبت لجأ إلى ساحته متوسلاً ببعض أهلِهِ، حتى إذا مثل بين يديه خطب خطبة طويلة^(٩) يستترل بها عطفه عليه، فرق له وعفا عنه.

- | | |
|---|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وعيون الأخبار | (٦) البيان والتبيين ٢/١١٧ . |
| (٢) ٢١٠/٢ والعقد الفريد ٤/٣٦٩ والأمالى | (٧) نفس المصدر ٢/٣٤ و ٣/١٤٣ ، |
| (٣) ٧٣/٢ ، ١٧٧/٣ . | ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ ، ٣٧٠ . |
| (٤) البيان والتبيين ١/٤٨ . | (٨) البيان والتبيين ١/٣٥٥ وعيون الأخبار |
| (٥) زهر الآداب ١/٤٩ . | ٣٤١/٢ . |
| (٦) البيان والتبيين ٣/١٣٥ . | (٩) أغاني (ساسى) ١٥/١١٣ . |
| (٧) زهر الآداب ١/٧ . | |

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء ينفذون على الولاية ، واشتهر عمران بن حِطَّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة ^(١) . وَمَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخَّطه ببعض قوله ^(٢) ، وكان قواده لا يَنْدُون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن معَعدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة ^(٣) .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم في المصاهرات ^(٤) وفي إصلاح ذات البَيْن ^(٥) . وهناك خطب تأخذ شكل المنابرات القديمة ، وهي تلك التي يقال إنها حدثت بين بعض بني هاشم وعمر بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضَعَفْنَاها ، وَرَجَّحْنَا انتحالها ، ومثلُها ما يروى في بعض كتب الأدب من خصومة أبي الأسود الدُّؤلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر في هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحنف ^(٦) بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بني سعد إحدى عشائر تميم لُقِّبَ بالأحنف لحنف ^(٧) كان في رجله جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنُكَة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها في وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال في مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

١٣٥/٢ .

(٦) انظر في الأحنف طبقات ابن سعد

ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات

الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى

(راجع فهرسهما) .

(٧) الحنف : هو امح في الرجل .

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٢) نفس المصدر ١٣٥/٢ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .

(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٧٣/٤ وعيون

الأخبار ٧٢/٤ والمقد الفريد ٤/١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ،

الأرزاق ومن شقَّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتم كلامه حتى أعجب بروعة منطقته إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ : « نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد ، والأحنف ملتفتٌ في بَتٍّ ^(١) له ، فترك جميع القوم واستنطقه ، فلما تبعق ^(٢) منه ما تبعق ، وتكلمم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء ، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا ^(٣) . ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبلغ في تصفح حاله . وعاد إلى البصرة وأخذ يتفقد على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان ، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش ، إذ كان النصر دائماً يرافقه .

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير ، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أُغمدت استجابة لرأيه ، حتى إذا انتصر على دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته ، وأصفاه ولاءه ، حتى إذا كانت وقعة صفين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه . وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على علي أن يحكم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبيث عمرو بن العاص ودهائه . وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبى ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية . وكان معاوية وولائه وخاصة زياداً يكبرونه إكباراً عظيماً ، ونراه يُصبح سفيراً لقومه لدى معاوية . فهو يتفقد عليه من حين إلى حين ، ويوسع له في مجالسه ، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره .

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة ، بعد ولاته . وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة . حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب . وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُدارى ، وأنه كان يجهر برأيه

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٣٧ وانظر ١ / ٢٥٤ .

(١) البت : كساء صوف غليظ .

(٢) تبعق المطر : تفجر وانسال .

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له ولولائه كان إذا سأله في شيء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريد ، جاهره برأيه في رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التي استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره في الكلام قال ^(١) :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسيره وعلايته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا وهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكانه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفى يزيد ، ويضطر عبيد الله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويسلم أمورها إلى الأزدي وزعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزدي ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويحقق الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامه الأحنف في طاعته ، ويقربه مصعب ويصبح من خلائصائه ، فيقف معه في حرب المختار الثقفي ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى في أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكياً من قومه وعارفيه ، ويروى أن فرغانة بنت أوس بن حاجر التميمية وقفت على قبره ، فأبستته قائلة ^(٢) :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر ^(٣) من مجن ^(٤) في جنة ، ومُدَّوج في كفن ، فوالذي ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشت حميداً ، ومِتَّ فقيداً ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السلم ، رفيع العماد ، وارى الزناد ، منيع الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت في المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفاً ، ومن الناس لقربيا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوداً ، وإلى الخلفاء لموفداً ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيتك لمتبعين » .

ومر بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مضر الذي تعطس عنه وأبسن العرب والعجم

(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر في الجنأى

وضع في القبر .

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٧٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .

(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .

قاطبة^(١) . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدي الخلفاء ، حتى يروعا منطقها ، لقدوته على حَوَك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأسايب التصوير . ولم يكن يُطيل في هذه الخطب ، بل كان يعتمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقها ، فقد وفد على معاوية مرة ، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه في الخليفة من مَدَدٍ يد العون والمساعدة^(٢) :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير ، مع تتابع من المَحُول واتصال من الدُّحُول^(٣) ، فالمكثُر فيها قد أَطْرَقَ^(٤) ، والمقلَّ قد أَمْلَقَ ، وبلغ منه المَحْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُشْعِشَ الفقير ، وَيَجْبِرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الدُّحُول ويدأوى المَحُول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٥) . وإن السيد من يعم ولا يخص ومن يدعو الجفلة^(٦) ، ولا يدعو النَّقَرَى^(٧) ، إن أحسن إليه شكر وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتبه في تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة ، فيمضونه في التَّوَّ والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصَّفْح الجميل ، مستعظفاً ، ولكنه الاستعظاف الذي يُبْقَى فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمداً إلى السجع أو لم يعتمد ، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعاني التي يعبر عنها إحاطة تامة ، وتصور ذلك كلمته الثانية التي أشرنا إليها كما صورته كلمته الآ نفة ، وقد ألقى بها حين ادلهم الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلَّى على نبيه^(٨) :

(١) البيان والتبيين ١/٦٠ .

(٢) زهر الآداب ١/٤٦ .

(٣) الذحول : الثارات .

(٤) أطرق : هزل وضعف .

(٥) اللأواء : الشدة .

(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .

(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .

(٨) البيان والتبيين ٢/١٣٥ .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدين وشركاؤنا في الصَّهْرُ وأشقاؤنا في النسب وجيراننا في الدار، ويدُّنا على العدو. والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرَى ^(١) شَتَا نكم، وأبى حَسَك ^(٢) صدوركم في أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأسنة وحقنت الدماء . وعلى هذا النحو تُشَبِّت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه ، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصره .

٤

خطباء الوعظ والقصاص

نشط الوعظ والقصاصُ الديني في هذا العصر نشاطاً عظيماً، فقد كان الوعَّاظ والقُصَّاص في كل بلدة إسلامية لا يَسُون عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ في بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرزهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسود بن سريع وهو أول من قصَّ بالبصرة ^(٣)، وكان يقابله في الكوفة زيد ^(٤) بن صُوحان وفي المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر ^(٥) وكان عبد الله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدة تأثره . ومن القُصَّاص أيضاً إبراهيم ^(٦) التيمي الكوفي وسعيد بن جبَّير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر ^(٧)، ومسلم ^(٨) بن جندب قاصّ مسجد المدينة، وذَرَّ ^(٩) بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذي كان يقصُّ في جند ابن الأشعث حاثاً الناس على حرب الحجاج، ومطرف

-
- (١) استشرى : تفاقم . الشتان : العداوة .
 (٢) حَسَك الصدور : الحقد .
 (٣) ابن سعد ج ٧ ص ٢٨ .
 (٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
 (٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين .
 (٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
 (٧) البيان والتبيين ١/ ٣٦٧ .
 (٨) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/ ٢٩٨ والعقد ٣/ ١٩٨ .
 ٣٦٧/١ .

ابن عبد الله السَّخَّير وكان يقصُّ في مكان أبيه بمسجد البصرة^(١)، ومنهم وهب^(٢) بن منبّه ويزيد بن أبان الرقاشي، ويذكر الجاحظ من وعظه^(٣). « ليتنا لم نُخلِّق، وليتنا إذ خلِّقنا لم نعبص، وليتنا إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نُبعث، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعدَّب، وليتنا إذ عُدِّبنا لم نخلَّد ».

فالقُصَّاص كانوا وعَّاظاً في الوقت نفسه، بل هم لا يقصُّون إلا من أجل الوعظ، ومن اشتهروا بوعظهم عبد^(٤) الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء^(٥) ابن حيَّوة والأوزاعي^(٦) في الشام وسعيد^(٧) بن المسيَّب وأبي حازم الأعرج في المدينة، ولثانیهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئِلَ ما مالك؟ قال: ما لان: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس^(٨). ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد^(٩) بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز. وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً، من مثل ابن^(١٠) شُبْرمة ومورق^(١١) العجّلي وبكر^(١٢) بن عبد الله المُرَنيّ والشَّعبي^(١٣) وأيوب^(١٤) السَّخَّيتاني ومحمد بن واسع الأزدي البصري، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إلى من مائة ألف سيف شهير وسان طرير^(١٥). ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك^(١٦) بن دينار، وكان يقول في قصصه: ما أشدَّ فِطام الكبير، وينشد:

وتروض عِرْسك بعد ما هربت ومن العناء رياضة الهرم

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ١٧٠، ١، ٣/٣. | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٢٨٩/٢. |
| (٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها ٢/٢٨١، ٣٢٨. | (١١) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨. |
| (٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢. | (١٢) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣. |
| (٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤. | (١٣) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٤٠/٣. |
| (٥) انظر طرناً من مواعظه في صفة الصفوة ١٨٦/٤. | (١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢. |
| (٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨. | (١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ١٧٠/٣ وطيرير: محدد. |
| (٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤. | (١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ١٩٧/٣. |
| (٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩. | |
| (٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤. | |

ومنه إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضَرَّبُ به المثل في الذكاء وصدق الفِرَاسة^(١)، ومنهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الأهمتيان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلاهما^(٢) » ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين^(٣) » وقد لحق خالد عصر أبي العباس السفاح، وكان من سُمّاره، ويؤدّب عنه أنه كان يقول : « احذروا مجائيق الضعفاء يعني الدعاء^(٤) » ومن قوله : « بَيْتٌ لَيْلِي كلها أتمنى فلألت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْرَان^(٥) » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاها^(٦) .

ومن كبار وعّاظ العصر وقُصّاصه الحسن البصري ، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإننا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصريّ فيها^(٧) » ومن يأتي بعده في الوعظ عبد الله بن شداد ، وهو القائل : « أرى داعي الموت لا يُقْلَعُ وأرى من مضى لا يرجع^(٨) » . ومن كبار القُصّاص والوعّاظ الفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان يسجع في وعظه^(٩) ، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصّاً مجيداً^(١٠) » وهو الذي يقول في قصصه : « سَمِلَ الأرض فقلّ من شَقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً^(١١) » . ومن أشهر الوعاظ وأنهمهم واصل^(١٢) بن عطاء رأس المعتزلة ، وكان أغزر خطباء عصره

-
- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ٩٨/١ وما بعدها . | (٨) نفس المصدر ١١٣/٢ . |
| (٢) البيان والتبيين ٣١٧/١ . | (٩) البيان والتبيين ٢٩٠/١ . |
| (٣) نفس المصدر ٣٣٩/١ - ٣٤٠ . | (١٠) البيان والتبيين ٣٠٦/١ . |
| (٤) البيان والتبيين ٢٧٤/٣ . | (١١) نفس المصدر ٣٠٨/١ . |
| (٥) نفس المصدر ١٦٤/٣ والظمر : | (١٢) انظر في ترجمة واصل الملل والنحل |
| (٦) عيون الأخبار ٣٤١/٢ . | للشهرستاني ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعاني |
| (٧) البيان والتبيين ٣٥٤/١ . | وابن خلكان ولسان الميزان ٢١٤/٦ . |

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُروى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في إمارته على العراق (١٢٦ - ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشي ، وتبارى الأربعة بين يديه في الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التي جانب فيها الرأى ، إذ كان يلثغ فيها لثغاً فاحشاً ، ونوه بذلك بشار بن بُرْد طويلاً ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله ^(١) :

أَبَا حُدَيْفَةَ قَدْ أُوتِيَتْ مُعْجِبَةٌ فِي خُطْبَةٍ بَدَهَتْ مِنْ غَيْرِ تَقْدِيرِ
وقوله :

تَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْأَقْوَامُ قَدْ حَفَلُوا وَجَبُّوا خُطْباً نَاهِيكَ مِنْ خُطَبِ
فَقَامَ مُرْتَجِلاً تَغْلَى بَدَاهَتُهُ كَمِرَجَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ ^(٢)
وجانبَ الرأى لَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلَ التَّصَفُّحِ وَالْإِغْرَاقِ فِي الطَّلَبِ
ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصلاً ألقي هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحسُّ أثر التروية والتحضير وأنه تأتَّى لها في أناة حتى اتسقت في نسقها البديع ، وهى من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلَّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائِه ، على هذا النمط ^(٣) :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى عمَّلا في دنوّه ، ودنّا في علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يَشُودُه ^(٤) حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداءً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شىء خلقه ، وتممَّ مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلَّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقَّب ^(٥) لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضع كلَّ شىء لعظمته ، وذلَّ كلَّ شىء لسلطانه ، وسع كلَّ شىء فضله ، لا يَعْزُبُ عنه مثقال حَبَّة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدَّست أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

(١) انظر في هذا البيت وما يليه البيان والتبيين

الرسائل النادرة لعبد السلام هرون وجمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٢/ ٤٨٢ .

٢٤/١ .

(٢) القين : الحداد .

(٤) يشوده : يثقله .

(٣) انظر في هذه الخطبة الحلقة الثانية من

(٥) لا معقَّب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعَصِّى فِيَحْلُمُ ، ويُدْعَى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون .

وواضح أن واصلاً يستظهر في هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم في وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرره من نفي التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثل شئ من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلاً في صلاته كما أطال في حمده . وبقية بس من صنيعه أخذ الكتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون في تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك في الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والنجابة لمعصيته ، وأحضّكم على ما يُدْنِيكم منه ويُرْزُقكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة في معاد ، ولا تُلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخُذّعها وفواتن لذاتها وشهوات أمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شئ فيها يزول . فكم عانيتم من أعاجيبها وكم نصبت لكم من حباثلها ، وأهلكتم من جنح إليها واعتمد عليها ، أذاقهم حلواً ، ومزجت لهم سمّاً .

وواصل في هذه الفقرة يردّ ما كان يجرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبرقها اُخْلَبَ وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم في غوايات الشهوات ، والعاقل من ازور عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمّاً قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزود كل لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التلّاد ، قبضتهم بحمليها^(١)

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما

شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحتهم بكلكلها^(١)، وعصتهم بأنيابها، وعاضتْهم من السَّعة ضيقاً، ومن العزة ذُلّاً، ومن الحياة فناءً، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تُرى إلا مساكينهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تُحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نَبساً» .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطلالها فيه مستوعبين لقصاص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتْهم، وما صبَّ الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جَلَب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويُشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته، إذ كان فاحش اللُّبغة في الرأى، فخلَّص كلامه منها تخليصاً، بحيث لم يكن أحد يظن لذلك لبيان الرأى، يقول : إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن يخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لا بد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الرأى من كلامه وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هُجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمَّل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلَّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة^(٢) الأَكفَاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطُّرُوق الضُّبِّيُّ فقال

علمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكل خطيبٍ يغلب الحقُّ باطله^(٣) »

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الرأى في جميع محاوراته آية بينة على تمام آله في البلاغة وإحكام صنعته. وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرَجَ كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقاتلته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق في منزلة بين منزلي المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول ^(١) :

له خلفَ شَعْبُ الصِّينِ في كلِّ ثُغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر ^(٢)
رجالٌ دعاةٌ لا يَفْلُ عَزِيمُهُمْ تَهْكُمُ جَبَّارٍ ولا كيدُ ماكِـرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلم التشاجر ^(٣)
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم ولا الشُّدُقُ من حَيٍّ هلالِ بنِ عامرٍ ^(٤)

وهو لا ينوّه بوعظهم فحسب ، بل ينوّه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة في عقول الناس . ويمضي فيصور براءة واصل في هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشبهة عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تَلَقَّبَ بِالْفَزَالِ واحدٌ عصره فَمَنْ لِلتَّائِي وَالْقَبِيلِ الْمُكَاثِرِ ^(٥)
وَمَنْ لِحُرُورِيٍّ وآخرَ رافضٍ وآخرَ مُرْجِيٍّ وآخرَ جائرٍ ^(٦)
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكارٍ منكِرٍ وتحصين دين الله من كل كافرٍ
يُصِيبُونَ فَصْلَ القول في كل موطنٍ كما طَبَّقَتْ في العظم مُدْيَةُ جازِرٍ
وسياهمُ معروفةٌ في وجوههم وفي المشي حُجَّاجاً وفوق الأباعِرِ
وفي ركعةٍ تَأْتِي على الليل كلِّه وظاهر قولٍ في مثالِ الضمائرِ

(٥) خير الأقوال في تلقيب واصل بالفزال

أنه كان يجلس في سوق الفزائن ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

(١) البيان والتبيين ٢٥٠/١ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدل في العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البغواء .

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من حاجةٍ واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحرورية ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل في العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلاح المتأخرون، فظهر القلرية بزعامه الحسن البصري، وظهر المرجئة بزعامه غيلان الدمشقي وغيره من دعاة هذا المذهب في العراق وخراسان. وفي كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بني أمية^(١). واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصري في مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقاً، ويراها الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافراً، لأنهم كما قدمنا كانوا يفتصلون الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة في منزلة وسطى بين منزلي المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عبسيد من تلاميذ الحسن البصري، فجمع بينه وبين واصل ليناظره في رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة^(٢)، ويقدم لها بأن واصل أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عبسيد، فحاوره في رأيه، ورد عليه واصل رداً مفحماً مستخدماً بعض آي الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقي دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رموس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يعدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعَّاظ وأصحاب المقالات في هذا العصر من دقة لا في مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً في آرائه، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التي وضع فيها مرتكبي الكبائر فكرة لا يؤتاها إلا من استبصر المعاني وعرف حدودها ومقاديدها ومدخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة في الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه في النثر» (٢) أمال المرتضى ١٦٥/١.
العربي «طبع دارالمعارف» ص ٧٩.

لا يأتي عفواً ، وإنما يأتي من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعِمت فيها الأدلة ودقَّت المعاني ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التي كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاقاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن سَمَّ فتَحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم في حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعدُّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق ، وهياً لهم ذلك شيئاً من التروى والتهمل كان له أثره في روعة الأداء ، حتى لرى فريقاً منهم يعتمد إلى السجع في وعظه مثل أسرة الرقاشيين ^(١) ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشي . ولكن هذا ليس الأسلوب الذي شاع في تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح في خطبة واصل التي مرَّت بنا ، وفي خطابة الحسن البصري وغيَّلان ^(٢) الدمشقي ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معاني الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذي نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني .

(١) انظر في هذه الأسرة البيان والتبيين (٢) انظر في مواضعه عين الأخبار ٢/ ٢٤٥ .
٣٠٦/١ وما بعدها .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدوا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يروج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطلقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعهم وطبقاتهم، ومتى يُستَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعول دائماً على وضوح الدلالة حتى يتصنع الكلام في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بمهايتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عبّاس ما البلاغة؟ فأجاب (١):

« ما بلغ بك الجنة وعادل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشذك وعواقب غيئك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إلهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المثونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونقش الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب.»

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاورة والمناظرة، ويؤثرون عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجّة» (٢). وكان شبيب بن شيبّة يقول: «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت» (٣). ولم يكونوا يتفقدون

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقد الفريد ٢٦١/٢.

الفريد ٢٦٠/٢ وزهر الآداب ٩٣/١. (٢) البيان والتبيين ١١٢/١.

(٣) البيان والتبيين ١١٢/١.

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثنياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلاً عند الحسن البصري وخطابته ، إذ يُعَدُّ أخطبَ خطباءهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن^(١) البصري

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمي يسمى يساراً من سبي ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هي الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة في وادي القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت تروى أحاديث عن أم سلمة وتدبجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق في نفس ابنها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفي أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما في المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة عليّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن ينجح عن المشاركة في الأحداث القائمة ، وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك في الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدرسة القرآن الكريم ورواية الحديث محالوا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامي . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية في الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة في خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصري لابن الجوزي والحسن البصري لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربي) .

(١) انظر في ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ في مصره إذ كان لا يجارى في بلاغته وبيانه .

وُكِبَره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناء على آداب الإسلام ، إذ استقام من مناهله الحقيقية في المدينة دار النبوة ، ومن ثم أخذت الفرق الدينية تتنازعها ، حتى تسوّغ آراءها في عقول الناس ، فكل فرقة تنسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رؤاها الأولى ، فالجبرية يقولون إنه كان ينفي حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شيء بقضاء من الله ، ويقول القدرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار في أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَرِيّاً ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصي من الله جاء يوم القيامة مسوداً وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى تلقاه دائماً كلما ذكره في صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه في القدر ، فكتب إليه رسالة ضمنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله^(١) ، وتلتقى بهذه الرسالة في نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك^(٢) .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد في عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شيء والزهد شيء آخر ، حقاً كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صور إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه في مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر
(٢) انظر مصورة هذه الرسالة في دار الكتب
المصرية برقم ٢٢١ هـ أدب .
آباد) ص ١٢ .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقيل أن يتولى القضاء إلى فترة في عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربي محكك»^(١) ويؤثر عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص^(٢) البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت^(٣) » وهو إنما يعنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج^(٤) ». وكان يجمع إلى فصاحته حساً لغوياً دقيقاً ، ومما بصور ذلك ما يُروى عن رجل من بني مجاشع قال : « جاء الحسن في دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجهكم ، وأجرك الله^(٥) » .

وتنوج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تنوج بها ترجمته في الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وقد نوه به الغزالي في الإحياء مراراً . وهو في مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الوريين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته^(٦) .

وهو في وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثاً على التقوى والعمل الصالح والتأسي بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكرمّة التي تحسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله^(٧) :

« يا بن آدم بئس دنياك بأخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تبطلهم به . الثواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ولا نبي بعد نبيكم ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس

(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .

(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .

(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان في

(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .

البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً ورعاً .

(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون

الأخبار ٢/٣٤٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .

والساعة^١ تسوقكم، وإنما يُسْتَنْظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً^(١) لم يضع لَبِينَةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم في رسول الله أسوة^٢ حسنة) . يابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبَّيْرُكَ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . . يابن آدم اذكر^٣ قوله : (وكلَّ إنسان أزمانه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عدلَ ، والله ، عليك مَن جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، دعوا ما يرببكم إلى ما لا يرببكم . لقد صحبت أقواماً^(٢) ما كانت صحبتهم إلا قُبْرَةً العين وجلاء الصدر ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن تُردَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدهم منكم فيما حرم عليهم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم^(٣) ، تهاديتهم الأطباق ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوئنا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقَّرت في القلوب وصدَّقته الأعمال .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآي الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يرببكم إلى ما لا يرببكم » ففي الحديث النبوي : « دع ما يرببك إلى ما لا يرببك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا : يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ثم عقَّب عليها بقوله^(٤) :

(١) يريد أن يكون أولكم ويروح في كسب

(٢) يريد لو تكشفتم عيوب بعضكم لبعض

لاستفكتم المشي في الجنائز .

(٣) أمال المرتضى ١٥٤/١

(٤) يريد صحابة الرسول .

« إن قوماً غَدَّوْا في المطارف ^(١) العِثاق والعمائم الرقاق يطلبون الإِمَارَات وَيُضَيِّعُونَ الأَمَانَات ، يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية ، حتى إذا أَخَافُوا مَنَ فَوْقَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَفَّةِ وظَلَمُوا مِنْ تَعَثُّهِمْ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّ أَهْزَلُوا دِينَهُمْ وَأَسْمَنُوا بَرَازِيَهُمْ ^(٢) وَوَسَّعُوا دُورَهُمْ وَضَيَّعُوا قُبُورَهُمْ . أَلَمْ تَرَهُمْ قَدْ جَدَّدُوا الثِّيَابَ وَأَخْلَقُوا الدِّينَ ، يَتَكَيَّءُ أَحَدُهُمْ عَلَى شِمَالِهِ ، فَيَأْكُلُ مِنْ غَيْرِ مَالِهِ .. يَدْعُو بِحُلُوِّ بَعْدِ حَامِضٍ وَبِحَارٍ بَعْدِ بَارِدٍ وَبِرُطْبٍ بَعْدِ يَابِسٍ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتْهُ الْكَفَّةُ ^(٣) تَجَشَّأَ مِنَ الْبَشَمِ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ يَا جَارِيَّةُ هَاتِي حَاطُومًا ^(٥) . يَهْضُمُ الطَّعَامَ ، يَا أَحْسِبُحْ لَا وَاللَّهِ لَنْ تَهْضُمَ لِإَدِينِكَ أَيْنَ جَارُكَ ؟ أَيْنَ يَتِمُّكَ ؟ أَيْنَ مَسْكِينُكَ ؟ أَيْنَ مَا أَوْصَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ ؟ »

ويمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكمهم وظلمهم وعاشوا لذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين في حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الخفيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعشَّفُ بالأغنياء عنقه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التي قلَّ ورقها وكثر شوكها ، ولأنه لم يجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسيلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلمها الراجحة ، ومن قوله ^(٦) :

« رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْفُضُولَ حَيْثُ وَجَّهَهَا اللَّهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ، فَإِنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْيُنِهِمْ وَيُؤْتِرُونَ بِالْفَضْلِ . أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَضْرَّ بِالدُّنْيَا ، فَفَضَّحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو لُبٍّ فِيهَا فَرْحًا ، فَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلَ الْمَتَفَرِّقَةَ الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ وَمِعَادُهَا النَّارُ . أَدْرَكْتُ مَنَ صَدَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَوْمًا كَانُوا إِذَا أَجْنَتْهُمْ اللَّيْلُ فَقِيَامٌ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ وُجُوهَهُمْ ، تَجْرَى دُمُوعُهُمْ عَلَى خَدَّوَدِهِمْ ، يَنَاجُونَ مَوْلَاهُمْ فِي فَكَائِكَ رِقَابِهِمْ ^(٧) . . . يَابْنَ آدَمَ إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز . (٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .

(٢) براذنيهم : دوابهم . (٦) البيان والتبيين ٣ / ١٣٥ .

(٣) الكفة : الشيع . (٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا

(٤) البشم : الامتلاء . أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يُغْنِيكَ ، وإن كان يُغْنِيكَ ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدَّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلِّل الحزن مواعظه ، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون ، فطوبى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوة ورواحه المعاد ، وأعدَّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدي الله ، وهو لا يدرى أيؤمَّرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرى أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهَمَّ آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصري ، وقد كان يختار لها كُسُوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لاتزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتَّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التدوين

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مرّ بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهبطاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحفٌ يجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحاولون سريعاً من أمة أُمّية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبارُ آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثمّ كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار^(١) ومن أشهرهم دَغْفَل^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت في كتاب له اسمه «التصايف والتناصر»^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حيّواري ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحبيه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريقة^(٤).

الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .
(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .
(٤) البيان والتبيين ١/ ١٢١ ، ٢٤٧ ، ٨٠/٢ ، ٢٥٣ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/ ٣١٨ وما بعدها
(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال المهداني ٢/ ٢٧٣ والإصابة ، وفي

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعْنَى بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثرت هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١) . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَبُ ويدون ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذي الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إليّ من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يُشْهدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^(٢) ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسينا بإعداد ألواح ودواة ليُحْمَلِ عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لسامعيه بالميريد قِيدُوا قِيدُوا أي اكتبوا^(٤) ، وفي الأغاني أن عمالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق^(٥) . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعْنَى بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثلُه أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتبُه التي كتَبَ عن العرب القضاة قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تنسك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »^(٦).

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى غنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيَت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٥) أغاني (سامي) ١١/١٩ - ١٢ .

(٣) فنانس جرير والفرزدق (طبعة بيثن)

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ص ٤٣٠ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «مصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة ، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»^(١) . ولا يحتمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب . وقد أخذت معظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون ، وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبري . وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصور لنا ذلك البغدادى في كتابه «تقييد العلم» . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث ، ويُعزى بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع^(٢) . ويذكر جولدتسيهر أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤) . ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لا اعتقادهم في أنهم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى علي وأفضيته ، ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالي معاصر الحجاج^(٥) ، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦) .

وأخذت تدون منذ القرن الأول مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عُنوا

وصفة الصفوة ٤٧/٢ والمعارف لابن قتيبة

ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف

الإسلامية .

(٥) المهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب

الإتقان للسيوطي .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية

لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام

المحققين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب^(٢) ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤. وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفيض الفهرست لابن النديم في بيان أميائها، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦. وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠. ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة، وتمثلت هذه العناية في معاوية، إذ استقدم عبيد^(٣) بن شربة الجرمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتابه «أخبار الأمم الماضية» وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤). وقد طُبع له في «حيدرآباد» كتاب باسم «أخبار عبيد بن شربة الجرمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» وهو يدور في أسلوب حوارى، إذ يسأل معاوية ويحيب عبيد، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تبع إلى زمان مملكة طسم وجديس، وتتخلله أشعار كثيرة. ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى «المبتدأ في الأمم الحالية» ذكره المقدسى^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦). وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسب إليه باسم «قصص الأنبياء». ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

(٢) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٣٢

والمعبرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء ٧٢/١٢.

(٤) مروج الذهب (طبعة أوروبا) ٨٩/٤.

(٥) أحسن التقاسيم المقدسى ص ١١٥.

(٦) الإعلام بالتويع ص ٤٨.

(٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعارف

ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦.

(١) انظر في ترجمة أبان المعارف

ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥

وابن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستنفلد)

ص ١٢٥.

(٢) انظر ترجمته في كتاب المعارف

ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥

وميزان الاعتدال ٢٧٨/٢ وتهذيب ابن حجر

وطبقات الحفاظ السووى ١٧/١ وثلوات

ابن العباد ١٥٠/١.

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذى الكِفَل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثالب ^(١) وَوَضَعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تُبَعِّعُ وأشعاره ^(٢) وتأليف كل من علاقة الكلابي ^(٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحَّار ^(٤) العَبْدِيُّ كتاباً في الأمثال . ومن ذلك كتاب ^(٥) في الوصايا والحِكَم للمستورد بن عُثْمَةَ الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبّه لكتاب في القَدَر ^(٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(٧) المرجيء رسائل في ألني ورقة ^(٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(٩) تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة ^(١٠) . ومروءنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتاج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حَمَلُ عنه ^(١١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(١٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(١٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قُلْ في رسائلهم الوعظية والشخصية فلأنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتّاب البالغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة ^(١٤) . وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- | | |
|---|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عيون الأخبار ٢/ ٣٤٥ . |
| (٢) أغاني (سأى) ٥٢/ ١٧ . | (١٠) البيان والتبيين ١/ ١٥ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٢٩٨/ ٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ١٩/ ٢٥٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مفتت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ . | |

الخلفاء والخطباء الناهيين وعظّاء وغير وعظّاء ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان ^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين» ^(٢) ومرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة » ^(٣) . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أمّون في الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا ^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية ^(٥) . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية ^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع ويتشرب بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتحدث عما خَلَّفَ العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل الملوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أثرت عن هذا العصر ،

(٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

١٢١/١ وابن القطّعي ص ١٠٥ .

(٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة

الجلي) ص ٦٩ .

(٦) انظر صفحات عن إيران لصادق فشتات

ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١

(١) انظر في خالد المعارف ص ٢٠٦ والبيان والتبيين في مواضع متفرقة (راجع

الفهرست) وابن خلكان ونجم الأدباء ٢٤/١٢

والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست

ص ١٥١ .

(٣) الفهرست ص ٤٩٧ .

وحقاً هناك كتب تزيّدت في هذه الرسائل ونقصت كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحينا هذين الكتابين وأضربهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبري والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة في الطبري سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومن ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بني أمية ولأنهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما روي للخوارج من رسائل ، لكنّها ، ومن ثمّ سنكتفي بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هي الأزارقة والنجدية والصُفْرىة والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق يجرّمون القعود عن الخروج ويستحلّون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفهم في ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد في تصوير هذا الخلاف رسالتين ^(١) متبادلتين بين نَجْدَة بن عامر الحنفي زعيم النجدات ونافع بن الأزرق ، فنجدة يراجعها في مقالته ، ونافع يحتاج لها . والرسالتان وثيقتان طريقتان في بيان مقالتي النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولا ب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم ، وظلت الجيوش توجه إليهم ، يوجهها ولاية العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعده قطرى ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يرأسه مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعد ، ونحن نسوق رسالتين ^(٢) لها تصوّران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجري على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مرّقت من الدين مروق السهم من الرميّة ، وقد علمت حيث تسجّرت^(٣) ، ذاك أنك عاصي لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابي

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

ص ٢١٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣١٠ وانظر المبرد (٣) تجرّمت الشيء : أخذت معظمه .

جِلْفٌ^(١) أَمْ تَسْتَظِمُ^(٢) الْكِسْرَةَ وَتَسْتَشْنِي^(٣) بِالْمَرَّةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً،
خَرَجْتَ لَتْنَالِ شُبْعَةٍ^(٤)، فَلَحَقَ بِكَ طَغَامٌ^(٥) صَلَّوْا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعِيشِ
فَهُمْ يَهْزُونَ الرِّيحَ وَيَسْتَنْشِنُونَ^(٦) الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ،
وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِنَزْحَتَيْنِ^(٧).
وَالسَّلَامُ.

وَأَجَابَهُ قَطْرَى :

« سَلَامٌ عَلَى الْمُؤَدَّةِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَرْعَوْنَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيَرْهَبُونَ نِقَمَهُ،
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ، وَأُظْلَعَ بِهِ أَهْلُ السَّفَالِ^(٨) وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ
وَنَصَرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَاكَ بِحَقِّهِ. كَتَبْتُ إِلَى تَذَكُّرِ أُنَى أَعْرَابِي جِلْفٌ أَمْ
أَسْتَظِمُ الْكِسْرَةَ، وَأَسْتَشْنِي بِالْمَرَّةِ، وَلَمْ يَمْرُ يَابْنَ أُمِّ الْحِجَاجِ^(٩) لَأَنَّكَ لَمْ تَسِيَّهْ فِي
جِيلَانِكَ^(١٠)، مُطْلَحِيْمٌ^(١١) فِي طَرِيقَتِكَ، وَاهٍ فِي وَثِيقَتِكَ^(١٢)، لَا تَعْرِفُ اللَّهَ
وَلَا تَحْزَنُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَسْتِ وَاسْتِيَّاسْتَ مِنْ رَبِّكَ، فَالْشَّيْطَانُ قَرِينُكَ،
لَا تَجَاذِبُهُ وَثَاقُكَ، وَلَا تَنَازَعُهُ خِنَاقُكَ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَهْرَزَ لِي
صَفْحَتَكَ، وَأَوْضَحَ لِي صِلَتَكَ^(١٣)، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرَى بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ
مُقَارَعَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ^(١٤) الْمَقَالِ، مَعَ أُنَى أَرْجُو أَنَّ يَدُ حَضْرَتِ اللَّهِ
حُجَّتُكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهْنَتَكَ. »

وَوَاضِحٌ أَنَّ كَلَامَهُمَا يَرْمِي صَاحِبَهُ بِالضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، وَقَدْ عُيِنَا جَمِيعاً
بِالْتَّائِقِ فِي أَسْلُوبِهِمَا. وَمِنْ ثَمَّ زَيَّنَّا كَلَامَهُمَا بِالسَّجْعِ. وَإِذَا تَرَكْنَا الْأُزَاقَةَ
إِلَى الصُّفْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَبِيحاً يَرِاسِلُ صَالِحَ بْنِ مَسْرُوحٍ حَاضِئاً عَلَى الْخُرُوجِ^(١٥).
وَلَمْ تَحْتَفِظْ الْمَصَادِرُ بِرِسَائِلِ النُّجْدَاتِ إِلَّا بِإِضَاضَةٍ.

(٨) أظلع : من الظلع وهو العرج. السفال :

سفلو الخلق .

(٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن في النسب .

(١٠) متيه : مضلل . الجبلية : السجية .

(١١) مطلقم : متعجرف .

(١٢) الوثيقة : الثقة .

(١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره .

(١٤) تصدير المقال : تبطيره وتحييره .

(١٥) طبرى ٥٢/٥ .

(١) جلف : جاف .

(٢) تستظم الناس : تسألم أن يطعموك .

(٣) تستشني : تطلب الشفاء .

(٤) الشبعة : ما يشع من الطعام .

(٥) طغام الناس : أزدالم .

(٦) يستنشون الرياح : يتنسمونها ، كناية

عن جوعهم .

(٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما

الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة .

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات ^(١) تحض على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين . ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوآيين ، ويصور زعيمهم سليمان بن صرد في مكاتبتة لبعض أصحابه ندمهم على خذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالتأثر من قاتليه ^(٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول ^(٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيلته ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر ^(٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر ^(٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر ^(٦) ، وإني لأملك ما خُط في القدر ، وقد بلغني أنكم تسموني كذاباً ، وإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتفة ^(٧) .

وأثرت عن ابن الزبير ولواته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار ^(٨) الثقفي . ونرى ولواته يكاتبون من وجهونهم إلى الخوارج ^(٩) . وولتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريظة المشهور بسجعه .

- | | |
|---|------------------------------|
| (١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها . | من قبائل مضر . |
| (٢) طبرى ٤٢٩/٤ . | (٥) سقر : جهنم . |
| (٣) طبرى ٥٣٩/٤ . | (٦) الصدر : الرجوع . |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه . وكان المختار يعمل من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكل بتميم وغيرها . | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
| | (٨) طبرى ٥٤١/٤ . |
| | (٩) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها . |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١) ، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولّونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولائهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولائهم وقوادهم من مراسلات يطفح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين إلى العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولائهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسائله الآتفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعنى بتجبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتجبير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحشّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسائله مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال ولياً للعهد — من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٣٠٧/٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .

(٣) طبرى ٢٠٢/٤ وما بعدها .

(٤) طبرى ٢٥٠/٤ وما بعدها .

(٥) طبرى ٢٦٥/٤ وما بعدها والوزراء .

والكتاب للجهياري ص ٣١ .

(٦) طبرى ١٢٠/٥ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .

(٧) طبرى ٧٩/٥ وما بعدها .

(٨) طبرى ١٤٩/٥ وما بعدها .

(٩) طبرى ١٤٠/٥ ، ١٤٦٠ .

أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فلان شئت محوتك وإن شئت أثبتك^(١) ، وكان الخلاف دباً بينهما ، ومن ثم حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعة عبد الملك ، فهو الذى أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولأه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتق ما استطاع في تعبيره ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خيصباً بعد جدب ومطراً بعد قحط ، وهى تجرى على هذا النمط (٢) :

« أما بعد فلما نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا إلا ما بَلَ وجه الأرض من الطَّش والرَّش والرَّذاذ^(٣) ، حتى دَقِعت^(٤) الأرض واقشعرت^(٥) واغبرت^(٦) واثارت في نواحيها أعاصير تذرو^(٧) دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاَّحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨) وامتناعها ، وأرضنا أرض سريع تغيرها ، وشيك تنكرها ، سبي ظن أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(٩) يوم الجمعة ، فأثارت زبرجاً منقطعاً متمصراً^(١٠) ، ثم أعقبته الشمال^(١١) يوم السبت ، فطَحَطحت^(١٢) عنه جهامه^(١٣) ، وألَّفت منقطعه ، وجمعت متمصره ، حتى انتضد فاستوى ، وطما وطحا^(١٤) ، وكان^(١٥) جيونا^(١٦) مرثعنا^(١٧) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر : المتقطع .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(٤) دقت : خلت من النبات .

(١٢) طحطحت : بددت وفرت .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(١٤) طما : امتلأ وزعر ، وطحا : انبسط

(٧) تذرو : تسفى وتحمل .

وملاً الأفق .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهى الأرض

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

الصلبة .

(١٦) الجون : الضارب إلى السواد

(٩) القبول : الزرع الشرقية .

(١٧) مرثنا : سائلا .

مُنْسَجِل^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شُؤْبُوبُ أردفته شَأْبِيب^(٣) لشدة وقعه في العِراض^(٤) . وكتبْتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترمى بمثل قِطْعِ القُطْن ، قد ملأَ اليَسَاب^(٥) . وسدَّ الشَّعَاب^(٦) ، وستى منها كلُّ ساق . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَه ونشر رحمته من بعد ما قَنَطُوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحتالون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التمنيى ، وسرى عما قليل طبقة من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتاب الدواوين .

وأخذت تَشِيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة أسهلها بقوله^(٨) .

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوام كل مائلة وقَصْد^(٩) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(١٠) كل مظلوم ، ومفرغ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرقيق بها ، الذى يرتادها أطيب المراعى ، ويذودها عن مَرَاتِعِ الهلكة ، ويحميها من السَّبَاع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ^(١١) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،

- | | |
|--|----------------------------------|
| (١) منسجل : منصب . | (٦) الشباب : المسالك والسبل . |
| (٢) يردف : يتبع . | (٧) قنطوا : يشوا . |
| (٣) الشأبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة | (٨) العقد الفريد ١/ ٣٤ . |
| من المطر . | (٩) قصد : هداية . |
| (٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية . | (١٠) نصفة : من الإنصاف . |
| (٥) اليباب : الموضع الخالى لانبثات فيه . | (١١) القر : البرد ، مثلث القاف . |

وتسكن بسكونه، تُرُضِعُهُ تارةً وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته». ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح. والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرّ بنا وصفه، والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس، وكان يزيدّها تمكّيناً بمقابلاته وطبائقاته الكثيرة. وكان يجاريه — كما قدمنا — في هذا الأسلوب كثير من الوعاظ، وعلى رأسهم غيّلان الدمشقي، ويُروى أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة، منها قوله^(١):

«اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خزانةً بالياً، ورأسها عافياً، فيامست بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طغى أمر السنة، وظهرت البدعة، أخيف العالم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل».

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته^(٢)، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية^(٣). وما نشك كما أسلفنا — في أن بلغاء الكتّاب في عصرهما كانوا يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ، فنحن لا نقرأ في سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى بالطباق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينتهي به إلى الازدواج، حتى يؤثرا في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم.

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات الشخصية، بحكم تباعد العرب في مواطنهم، وبتأثير بعض الظروف من موت يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهئة، أو شفاعاة عند وال لقريبه أو صديق، أو عتاب أو اعتذار. وطبيعى أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها، لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية قليلة، فمن ذلك رسالة عقّال بن شبّة إلى خالد القسرى في شفاعاة تجرى على هذه الصورة^(٤):

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢.

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦.

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣.

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١.

« إن الله انتخبك ^(١) من جوهر كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً ^(٢) شهرته العرب ، وتحدثت به الحاضرة والبادية ، وأعان خطرك بقدرة مقسومة ، ومنزلة ملحوظة ، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك ، ويسره ما خار ^(٣) الله لك ، وليس كلهم أداله ^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات ، وعاد لهم بما يبقى له ذكره ، ويحسن به نشره ، مثلك . وقد وجّهت إليك فلانا ، وهو من دنية ^(٥) قرابتي ، وذوى الهيئة من أسرى ، عرف معروفك ، وأحببت أن تلبس نعمة ، وتصرفه إلى ، وقد أودعني وإياه ما نجده باقياً على النشر ، جميلاً في الغيب » ^(٦).

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتسيقها ، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام ، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى ، والفقه الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله ، فيقضى له حاجته . ونحن اشتهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر ، فقد كان لسيماً بليغاً ، يعرف كيف يحرك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً ، إذ يقول ^(٧) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك ، ابتدأتني بلطف عن غير خبيرة ، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب ، فأطمعني أولك في إحتائك ، وأيامني آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم بجمع لك أطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام » .

(١) انتخبك : اختارك .

(٥) دنية : لاصق .

(٢) خطراً : قدراً .

(٦) الغب : العاقبة .

(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .

(٧) البيان والتبيين ٨٤/٢

(٤) أداله : نصره وأعانه .

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جملتها المعاني الطريفة ، التي تروع بما فيها من منطق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى إلى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحقّقون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتمحّير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحسّ حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال القسّ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديواني الخراج والجند ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكتب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخثعمي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبا الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي^(١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر^(٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهنا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسَلَّم إلى خِلافه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يسلّموا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعيّنونهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه^(٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد^(٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٢٠٨/٥ .

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ٣٨٧/١ والطبرى

كِتَابُ الْوَلَاةِ . وَإِذَا رَجَعْنَا فِيهِ إِلَى أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ وَجَدْنَاهُ يَذْكُرُ بَيْنَ كِتَابَيْهِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْمَلَقَبَ بِالْأَشْدَقِ لِفَصَاحَتِهِ وَرَوْعَةِ مَنْطِقِهِ وَجَهَارَةِ صَوْتِهِ ، وَكَانَ خَطِيئاً لَا يَبَارَى ^(١) . وَلَمْ يُؤَثَّرْ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّسَالِ فِي عَهْدِ مَعَاوِيَةَ ، وَقَدَرُوا لَهُ الْجَاحِظَ رِسَالَةً فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ خَرَجَ عَلَيْهِ ، إِذْ كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدِ الْمَلِكِ يَتَوَعَّدُهُ ، فَأَجَابَهُ عَمْرُو ^(٢) :

« أَمَا بَعْدَ فَلِنْ اسْتَدْرَاجِ النَّعَمَ إِيَّاكَ أَفَادَكَ الْبَغْيُ ، وَرَاحَتُ الْقُدْرَةِ أَوْرَثَتْكَ الْغَفْلَةَ . زَجَرْتَ عَمَّا وَاقَعْتَ مِثْلَهُ ، وَنَدَبْتَ إِلَى مَا تَرَكْتَ سَبِيلَهُ ، وَلَوْ كَانَ ضَعْفُ الْأَسْبَابِ يُؤَيِّسُ الطَّلَابَ مَا انْتَقَلَ سُلْطَانٌ وَلَا ذُلٌّ عَزِيزٌ . وَعَمَّا قَلِيلٍ تَبَيَّنَ مَنْ أَسِيرُ الْغَفْلَةِ ، وَصَرِيحُ الْخُدْعِ ، وَالرَّحِيمُ تَعَطَّفَ عَلَى الْإِبْقَاءِ عَلَيْكَ ، مَعَ دَفْعِكَ مَا غَيْرُكَ أَقْدَوْمٌ بِهِ مِنْكَ وَالسَّلَامُ » .

وَالرِّسَالَةُ عَلَى قَصَرِهَا تَصَوَّرُ مَهَارَتَهُ الْبَيَانِيَّةَ وَقُدْرَتَهُ عَلَى التَّعْبِيرِ الْمَوْجِزِ السَّرِيعِ مَعَ طَلَاوَةِ اللَّفْظِ وَحُسْنِ الدِّيَابِجَةِ . وَكَانَ يَتَوَلَّى دِيْوَانَ الرِّسَالِ لِمَعَاوِيَةَ وَابْنِهِ يَزِيدَ عُبَيْد ^(٣) . اللَّهُ بْنُ أَوْسِ الْغَسَّانِيِّ ، وَرَوَى لَهُ الْجَهْشِيَارِيُّ رِسَالَةً عَلَى لِسَانِ يَزِيدَ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ لِيَتَّخِذَ الْعُدَّةَ فِي مَقَاوِمَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ حِينَ نَزَلَهُ الْعِرَاقَ وَهِيَ تَمْضِي عَلَى هَذَا النِّحْوِ ^(٤) :

« أَمَا بَعْدَ فَلِنْ الْمَبْدُوحِ مُسَبِّبٌ يَوْمًا مَا ، وَإِنْ الْمُسَبِّبُ مَبْدُوحٌ يَوْمًا مَا وَقَدْ انْتَمَيْتَ إِلَى مَنْتَسَبٍ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

رُفِعَتْ فَجَاوَرَتْ السَّحَابَ وَفَوْقَهُ فَمَا لَكَ إِلَّا مَرْقَبَ الشَّمْسِ مَرْقَبٌ وَقَدْ ابْتُلِيَ بِحُسَيْنٍ زَمَانُكَ دُونَ الْأَزْمَانِ ، وَبِلَدِّكَ دُونَ الْبُلْدَانِ ، وَنُكِبَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعُمَمَالِ ، فَلِإِذَا تُعَسَّقَتْ أَوْ تَعُودَ عَبْدًا ، كَمَا يُعَبِّدُ الْعَبِيدَ ، وَالسَّلَامُ » .
وَالرِّسَالَةُ قَصِيرَةٌ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحْبُونَ الْقَصْرَ فِي الرِّسَالِ الدِّيْوَانِيَّةِ حَتَّى هَذَا الْعَهْدِ . وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ فِيهَا كَاتِبٌ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ يُسَمَّى عَمْرُو ^(٥) بْنُ نَافِعٍ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الطَّوْلَ رَمَزٌ لِمَا كَانَ يَأْخُذُ بِهِ الْكِتَابُ أَنْفُسَهُمْ فِي هَذَا التَّارِيخِ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي الْقَوْلِ ، وَهُوَ تَفَنُّنٌ كَانَ يَفْتَقِرُ إِلَى تَرْتِيبِ

(١) انظر البيان والتبيين ٣١٥/١ وراجع

(٢) الجهشيارى ص ٢٤ ، ٣١ .

(٤) الجهشيارى ص ٣١ .

(٥) طبرى ٢٨٥/٤

(٢) البيان والتبيين ٨٧/٤

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .
ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رُوح بن
زنباع الجُذامي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي ^(١) الكتابة ، وليس بين
أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهمشياري وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد
غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له ^(٢) :
« لا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمَتَتَهُ » ^(٣) ، ولا تسوِّهَنَّ بِي صديقاً أَنْتَ سَرَرْتَهُ ،
ولا تهدمنَّ مَنِي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، هَلَا أَتَى حَلْمُكَ وَإِحْسَانُكَ عَلَى جَهْلِي وَإِسْأَتِي ؟ .
فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتَّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنِيّ كاتب
رسائله الذي جَوَّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصِّ المصادر القديمة
على ما كتبَ به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة
والبيان ، وفي الجهمشياري أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك
قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد
والى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله ^(٤) : « لِمَ بَعَثَ أمير المؤمنين
إلى أسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدري ، قال : أفندي ما مثلك ومثل أسامة ؟
قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حيّة كانت في ماء وطين وبرّد ، فلان رفعتُ
رأسها وقع عليها حافر دابّة ، وإن بقيت ماتت برّداً ، فرّ بها رجل ، فقالت :
أدخلني في كمّك حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفئت قال لها :
اخرجي ، فقالت : إني ما دخلت في هذا المدخل قط فخرجت حتى أنقُرَ
نقرةً ، إما أن تسلم منها ، وإما أن تموت ، والله لئن دخل أسامة ليشقُرَنَّكَ
نقرةً إما أن تسلم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بيّنة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن
في نقله الدواوين ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقرن بعدوبة المنطق
تزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضّحه كلمته .

(٣) وقته : قهره وأذله .

(١) الجهمشياري ص ٣٥ .

(٤) الجهمشياري ص ٥٦ .

(٢) البهان والتبيين ٣٥٨/١ والجهمشياري

ص ٣٥ والأمال ٢/٢٥٩ .

وإذا ولّينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتابُ يهون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيرية كاتبه حين ثار على الحجاج : « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجماً أعرفه فيه سوء فعالة وأبصره قبح سريرته » وينفذ ابن القيرية مشيئته ، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة ^(١) ولا تهمنا الرسائلان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تفتقر بها غايات بلاغية ، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعنمر — أحد علماء اللغة الأوائل — كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في « بادغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب ^(٢) : « إنا لقينا العدو ، فمتحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقنا طائفة بعرائر ^(٣) الأودية وأهضام ^(٤) الفيطان ، وبتنا بعمر عورة ^(٥) الجبل وبت العدو بحضيفه ^(٦) » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوايد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضع . وفعلاً راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين ترأّها قال : ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي ^(٧) .

-
- (١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .
 (٢) البيان والتبيين ٣٧٧/١ والمجرد ص ١٥٨ والطبري ١٨٧/٥ .
 (٣) عرائر الأودية : أسافلها .
 (٤) أهضام الفيطان : مداهنها .
 (٥) عورة الجبل : أعلاه .
 (٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .
 (٧) البيان والتبيين ٣٧٨/١ .

وعلى هذا النحو كان كتاب الولاية والقواد في الشرق يحبرون رسائلهم ، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكتاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدلولين من القلاوسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي مُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قُحْدُم بن أبي سُلَيم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم » (١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعَنِّون بالطوامير والقراطيس (٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويجلل (٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض (٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاعتصاف في القراطيس ، طالباً من الكتاب أن يوزوا (٥) ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كلن مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رَفِىَ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيئته هو ابنه عبد الله والثاني من غير بيته ، هو صهره وختنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ومثّل عنها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول (٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة (٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

(١) الجهمشيارى ص ٣٩ .

(٢) الجهمشيارى ص ٥٣ .

(٣) الجهمشيارى ص ١٨٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) الطوامير والقراطيس : الصحف

الكبيرة .

(٦) يجلل : يعظم .

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له^(١).

فالحليفة لم يعد يُعَلَى كُتِبَ على كُتَابِهِ كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثمَّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزع أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصَّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصَّت المصادر على اسمه . وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطَبِّعُ بطوايع أسلوبية واحدة ، إذ تتجسَّر في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفَّ ببعض أهله^(٢)

« حلت هضبة أصبحت تحو^(٣) بها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يُدْهَدْ^(٤) بك قلة شرك متحطماً وقيداً^(٥) ، فهلا - يا بن مجرشة^(٦) - قولك سأعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسَّعت مجلسه إذ رأيته إليك مقبلاً ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاورضته^(٧) مقبلاً عليه بيشرك إكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يترينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أثرتْ لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدَّمه إليه ، وهي على هذا النمط^(٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم للرجاء فيما بقي لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شركك ، وجعل

(٦) المجرشة : الماشطة .

(٧) فاورضته : حدثته .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفحت ٤٣١/٢ .

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٢) طبري ٦٨/٥ وما بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدعه : يسقط .

(٥) وقيداً : صريعاً .

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .»

وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويعمل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتحها بقوله ^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب ^(٢) الصنعة قبلك واستقام معروفاً عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتلك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطلته ، فأساء حتمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه ، ورهطه وعشيرته ، فلذا نزلت به الغيرة ^(٣) ، وانكشطت ^(٤) عنه عناية الغنى والسلطان ، ذل منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . »

وأطنب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يعاونه ويغمره . ويمضى يعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالهجوم في أعماله ، وكيف ضيع أموالاً كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفر نهر المبارك ، وكيف يبتز أموال رعاياه باسم هدايا التيسر والمهرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهرأ بها العصبية الجنية متحاملاً على المضرة . وهو في ثانياً ذلك يتهدهد بروجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غيئه فقبيل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملاً . وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) الفير : حوادث الدهر .

(٣) رب الصنعة : إتمامها وتنميتها .

(٤) انكشطت : انكشفت .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ،
والذى ثبتته سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه
عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسى
الأصل . ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن
الرقّة . وكان فى أول أمره يتنقل فى القرى معلماً فى كتابتها ، وعرف فى
نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب
به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرج كاتِباً لا يبارى . وعرفه مروان
ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذ
كاتِباً له . ولعلنا لا نخطئ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبرى من رسائل
لمروان فى ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم
عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد
رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وبعثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت
جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هُزم مروان فى موقعة الزّاب ولّى
وجهه معه إلى مصر حيث فُتِلَ معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض
الرواة أنه فُتر بعد موقعة الزّاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح
فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل
عشور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

(الخطى) ص ٦٩ وصيغ الأعشى ٨٥/١ ،
١٩٥/١٠ والبيهية لشمالي (طبعة الصاوى)
١٣٧/٣ والجزء الثانى من جمهرة رسائل
العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث
الشعر والنثر لطلح حسين ص ٤٠ وما بعدها
(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول
إنه من أهل الشام .

(١) انظر فى عبد الحميد الوزراء والكتاب
لجبهشيارى ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٢٥ والبيان
والتيبين ٢٠٨/١ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ ، ويون
الأخبار ٢٦/١ والصناعتين للمسكرى (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم ^(١) .

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سباه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونَصَحَ الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم ^(٢) ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته المنزوعة الرائ . ولا تلتفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما بلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحدَ نقلتها إلى العربية ^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنهى إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب ^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هي موجّهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نَقْرُنُها إلى ما استهّل به الجهمشيارى كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزرائهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تُعدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

(١) الجهمشيارى ص ٨٢ .

٢٩/٣ .

(٤) الجهمشيارى ص ٧٣ وصبح الأعشى

٨٥/١ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

وضبط شئونها في الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلوم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فلمها ثِقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حليمةُ كُتُبِكُمْ ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمُون إليه بهمكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قِيَام كتاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحلى العلم والأدب ، ويصرّح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حصّهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرِّفّة في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور^(١) وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصّل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيّناً دعاؤه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّه الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخّل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصلّر عنه ابن المقفع في كتابيه

الأدب الكبير والأدب الصغير (١)

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسائلين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولى عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي العُمَـري، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨. ولا نكاد نلم بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طويلاً غير مألوف، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القِطْع الكبير. وهو يستلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلين دماء المسلمين؛ وأنه رأى أن يكتب إليه بعهدهم يؤدي به حق الله الواجب عليه في إرشاده. ويمضى العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها. وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده. ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته، ويُنْفِض في بيان الحِصَال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعه. وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يُنْقِسمه إلى وحدات، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة. ويشير إن ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال. وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبهم ووعده لهم بالمنازل والولايات. ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غُدُوهِ وِرَاحِهِ ومنازلة خصمه. ويختم الرسالة بالدعاء له.

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش، وهو دستور استعان

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر (٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

لعمري » ص ١٣٩ وما بعدها.

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يدبرونها في كتبهم ، هى خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكمتهم وياؤكهم ، وقد شفّعها بتعاليم الإسلام الزكيّة واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأشرافها بما أتبع له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهى صياغة لا تكاد تفرق في شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألنوا اللغة ومرتّبوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفرق عنهم في شىء ، فهو يزواج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباق والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية ^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفه عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهى شائعة في الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهى تتضح في رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغى أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيَله من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً. ومن هذا الباب رسالته ^(١) التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الطباء والآرام وحُمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغُدران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تُسند بالتفنن في القول وتشعيب المغاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تَرْحَم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يُجَرى قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعننا براحته البيانية، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا نغضى دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة ^(٢) التي كتبَ بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

«أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درّت ^(٣) له بحلاوتها، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعَصَّتْه بأنبيائها، وتوطأت به بشقلها، قَلَّاهَا ^(٤) نافرأ عنها، وذمَّها ساخطاً عليها، وشكاها مستريداً منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها ولَوْضَعَتْنَا من دَرِّهَا أفأويق ^(٥) استحلبنها، ثم شَمَسَتْ ^(٦) منا نافرة، وأعرضت عنامتكرة، ورَحَّتْنَا ^(٧) موليةً، فلُحَّ عذبتها، وأمرَّ

(٥) الأفويق: ما يتجمع في الفرج من اللبن.

(٦) شمس: من شمس الفرس إذا جمع.

(٧) رحتنا: من رجع الفرس إذا ركله.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤.

(٢) الجهشيارى: ص ٧٢.

(٣) درت: من الدر وهو اللبن.

(٤) قلَّاهَا: كرهها وأبغضها.

حلوها، وخُشِّنَ لَيْتُهَا، ففَرَّقْتَنَا عَنِ الْوَطَانِ، وَقَطَّعْتَنَا عَنِ الْإِخْوَانِ، فَدَارُنَا نَازِحَةً،
وَطَيْرُنَا بَارِحَةً^(١)، قَدْ أَخَذْتَ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَ، وَتَبَاعَدْتَ مِثْلَمَا تَقَرَّبْتَ، وَأَعْقَبْتَ
بِالرَّاحَةِ نَصَبًا^(٢)، وَبِالْجَذَلِ^(٣) هُمَا، وَبِالْأَمْنِ خَوْفًا، وَبِالْعَزِّ ذُلًّا، وَبِالْجِدَّةِ^(٤)
حَاجَةً، وَبِالسَّرَّاءِ ضُرًّا، وَبِالْحَيَاةِ مَوْتًا، لَا تَسْرَحِمُ مِنْ اسْتَرْحَمَهَا، سَالِكَةً بِنَا
سَبِيلَ مَنْ لَا أَوْبَةَ لَهُ، مُنْفِيَيْنِ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ، مُقْطُوعِينَ عَنِ الْأَحْيَاءِ».

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميَّز بها في أسلوبه
ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها توعر ولا غريب وحشي، وإنما فيها
العذوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يُعْنَى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به
إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
موسيقية تثبت في الذهن وتجعلها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من
طباقات وتصويرات تُضْغِي على أسلوبه روعة بيانية خلابة، بل إننا لا ندقق في
القول حين نزرع أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
وكأنها سدهاء ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
الأموي على كل ما كان يُنْتَظَر لها من رقي وإبداع فني.

(٣) الجذل : السور

(٤) الجدة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمن إلى

اليسار ، والعرب القدماء كانوا يتشامون بها .

(٢) نصبا : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيناً كيف أخرج العرب من الظلمات إلى النور وبمعهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا . وألّمت بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروب الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا فى مدى تأثيرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مساً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مساً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحطّيشة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيق الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعتمد على الإقذاع فى الهجاء فحسبته التهمك والسخرية . وكان يجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خالصة .

وكان تأثير النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصَف الكون في طرفيه من النشأة والدُّثور ورسم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التي تحقق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تجتمع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعطون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخطبون في الجيوش الفاتحة محمسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأئمة المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة في صفوفه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدّ أطنابها مدداً واسعاً . وجدت بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذِّكْر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موافق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكرهم الجهشيارى وغيره . وتحدث الفتوح ، وتكثر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاتهم ، كما تكثر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرق ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحتمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بني أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادي الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذري العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجماء . وكانت الكوفة مستقراً للشيعة وثوراتهم ضد بني أمية فطُبع شعرها في جمهوره

بطابع شيعى حزين . وأخذت العصبية تحتدم فى البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون فى خراسان ، فكثُر الشعر الذى ينطق عنها فى البيتين . وكثرت سيول المديح فيها وفى الكوفة ، ومضت أسراب تنغنى بالزهة أو بالحن ، وأسراب أخرى تنغنى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة فى البصرة وبين جيوش الأزارقة فى فارس . ولم ينشط الشعر فى الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أنشد فيها وقد عليها إما مع مدّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التى هاجرت إلى الشمال وإما مع بنى أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر فى المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثّر فى الشعر الأموى مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب فى البلدان المفتوحة بالموالى ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالى لكلمات مختلفة وانتشر الالحن ، وأخذت سلاقت بعض العرب أنفسهم فى الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام فى أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد فى سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبّرية والمُرَجّثة والقَدَرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداؤه فى الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالى ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بموانهم من العرب ، إذ يشعرون فى قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكثُر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يتغذّون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وغير من يمثلهم نَصَبَ القُطاي وكعب بن معَعدان الأشقرى وزِياد الأعجم . وسعرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وغير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عَبدل وثابت قُطنة . ومما لا ريب فيه أن أروع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النقائص النابون : الأخطل والفرزدق وجريز ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمدححة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء في صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويتناضلون وكانت لكل فرقة نظرية في الخلافة تدافع عنها وتدود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة في حكمه إلى قریش لا إلى كُتُلب وغيرها من القبائل اليمنية التي يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُقَيْسَات أهم من صدر في شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقریش وحدها ، وأنه ينبغي أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذبذبين في أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة في الاستشهاد وزهداً قوياً في الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حِطَّان والطَّرِمَّاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌ شرعى لأبناء علي اغتصبه منهم الأمويون وينبغي أن يُردَّ عابهم ، وكان استشهاد أممتهم لا يبرح ذاكرتهم ، ففضوا بكونهم بدموع غزار ، مُحَفِّظِينَ الناس على أن يثأروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حتفهم ، كما مضوا يصورون عقيدتهم فيهم وما يكدون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثير والكُمَيْت . وكان كثير من أشراف العرب وخاصة في الكوفة متغيظين مُحَفِّقِينَ على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبر عن ذلك ابن الأشعث في ثورته وشاعره أعشى همدان في شعره واصطف مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزبير الأسدي الكوفي وعدى بن الرقاع الدمشقي .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها في اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص والعرجي ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بثينة ، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرمة . ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تنسج لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطّرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآيلة .

وازهزت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تنهض هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المخالف بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعَنِّونَ بتجبير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثرُوا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتّوه تثبيتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حلّتي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصري .

ونمت التدوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تنصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تنصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه والمغازي وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترقون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الديني الذي يتحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى يدبج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظم ابن سلام المخضرمين منهم في طبقات الجاهليين العشر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والخطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والناطقة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . ونخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المرائي وشعراء القمري ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والخطيئة ، كما ترجمنا لاثنتين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والناطقة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحدوراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعدُّون في الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثّر به الإسلام في أشعارهم. ولم نُغفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناه يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن مَنْ سَمَّاهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا عرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وصنينا بآخرين لم يجرؤوا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من عرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمَّ اهتمَّ بمجهورهم صاحبُ الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصولاً طويلة ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكَمَة . وكثرة من سَمَّاهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً ممن تُعْجِد ، وكأنه إنما عني بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشعدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بيّنة ، فقد سلك الراعي في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلٌّ ، ويدنو عن طبقته درجات. وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحشدّه في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخبره عن طبقته روضع فيها بدلاً منه ذا الرُئمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُئمة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعيث والقطامي وكثيراً ، والبعيث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وثيل وأوس بن مِغْرَاء ، وَهْشَل بن حَرْمٍ وَحُصَيْنْد بن ثور الهلالي والأشهب ابن رُمَيْلة وعمر بن لَحْطَاء التَّيْمِي ، وأبو زُبَيْد الطَّائِي والعُجَيْر وعبدالله بن هَمَّام السَّكُولِيان ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلّون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقرن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزيداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عتيق بن علفه وشيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجاتز هم : الأغلب العجلى وأبو النجم والنجم ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العتيقي ويزيد بن الطشيري وأبي دؤاد الرؤاسي والقحيف العتيقي ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يغنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثم عنى بشعراء نجد والبادي ، ولم يكده يعنى بشعراء المدن مع أنهم يتفضلونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من أبيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العرجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حطان والطيرماتج ، ولم يعن من شعراء الشيعة إلا بكشير ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء المحون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم ناثراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ - ٥	مقدمة
١٣٥ - ٩	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
٢٤ - ١١	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٤١ - ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوي
٦٧ - ٤٢	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٢	(٤) شعر الفتوح

صفحة

٦٨ - ١٠٥	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثيرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام . . .
٧٧	(٢) حسان بن ثابت . . .
٨٣	(٣) كعب بن زهير . . .
٨٩	(٤) ليبيد . . .
٩٥	(٥) الخطيئة . . .
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي . . .
١٠٦ - ١٣٥	الفصل الخامس : النثر وتطوره . . .
١٠٦	(١) تطور الخطابة . . .
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم . . .
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين . . .
١٢٩	(٤) الكتابة . . .
١٣٧ - ٤٧٩	الكتاب الثاني في عصر بني أمية . . .
١٣٩ - ١٦٨	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي . . .
١٣٩	(١) المدينة ومكة . . .
١٤٨	(٢) نجد وبادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال . . .
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة . . .
١٦١	(٤) خراسان . . .
١٦٥	(٥) الشام . . .
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى . . .

١٦٩ - ٢١٤	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء . . .
١٦٩	(١) الامتزاج بالأهم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك في اللغة . . .

صفحة

١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر . . .
١٨٢	(٣) السياسة
١٩٣	(٤) الحضارة
١٩٩	(٥) الثقافة
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من المولى . . .
٢٨٩ - ٢١٥	الفصل الثالث : شعراء المديح والمجاء . . .
	(١) شعراء المديح : نصيب : القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم . . .
	(٢) شعراء المجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٩	ثابت قطنة
٢٤١	(٣) شعراء النقائض
٢٥٨	(٤) الأخطل
٢٦٥	(٥) الفرزدق
٢٧٦	(٦) جرير
٣٤٦ - ٢٩٠	الفصل الرابع : شعراء السياسة
٢٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات . . .
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح . . .
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميث
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان . . .
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عندي . . .
٣٣٦	بن الرقاق
٤٠٤ - ٣٤٧	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العرجي

صفحة

(٢) شعراء الغزل العذري : قيس بن ذريح ، جميل	
ابن معمر	٣٥٩
(٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلي ، سابق البربري	٣٦٩
(٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد ، أبوالهندي	٣٧٦
(٥) شعراء الطبيعة : ذو الرمة	٣٨٥
(٦) الرجاز : أبو النجم العجلي ، العجاج ، رؤبة	٣٩٤
الفصل السادس : الخطابة والخطباء	٤٠٥ — ٤٥٠
(١) ازدهار الخطابة	٤٠٥
(٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه	٤١٠
(٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس	٤٢٨
(٤) خطباء الوعظ والقصاص : الحسن البصري	٤٣٥
الفصل السابع : الكتابة والكتاب	٤٥١ — ٤٧٩
(١) التدوين	٤٥١
(٢) كثرة الرسائل المدونة	٤٥٦
(٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب	٤٦٥
خاتمة	٤٨٠ — ٤٨٧
(١) خلاصة	٤٨٠
(٢) تعليق	٤٨٥